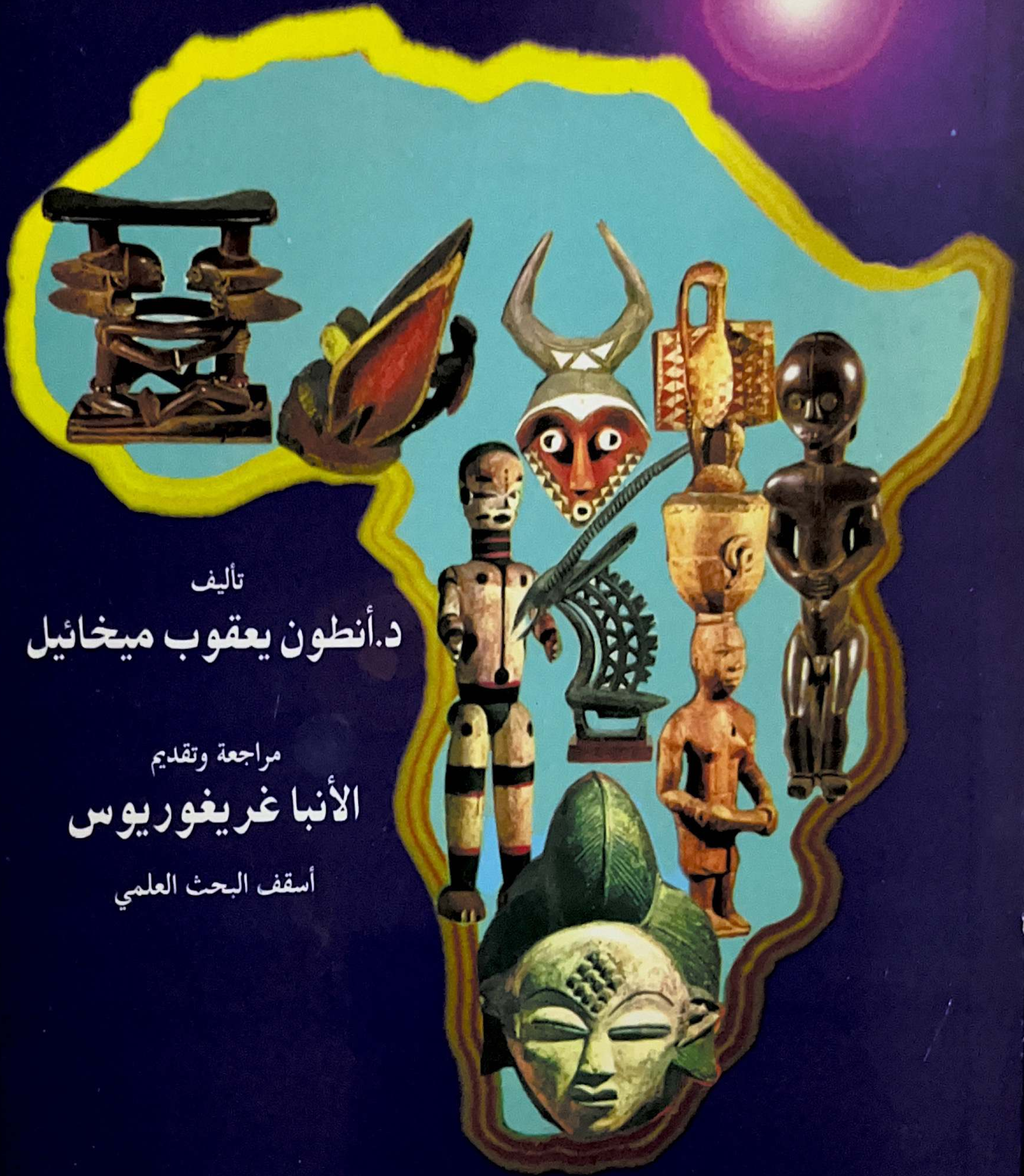
لاهوتيات إفريقية



تأليف
د.أنطون يعقوب ميخائيل

مراجعة وتقديم
الأنبا غريغوريوس
أسقف البحث العلمي

لاهوتيات إفريقية

تأليف

الدكتور أنطون يعقوب ميخائيل

مراجعة وتقديم

الأنبا غريغوريوس

أسقف عام

للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية

والبحث العلمى

الكتـــــاب : لاهـوتيـات إفـريقيـــة

المـــؤلف : د . أنطون يعقوب ميخائيل

جمع وإخراج فنى :أم سى للتجهيزات الفنية ت : ٢٤٣٨٢٥٥

تصميم الغـلاف : القسم الفنى والكمبيوتر بدار نوبار للطباعة

الطبــاعـة : دار نوبـــار للطبــاعـــة

الطبعـــــة : الأولـى

رقـم الإيـداع : ٥٩٦٩ / ١٩٩٥

الرقــم الـدولى : I.S.B.N 977 / 00 /9396 / 3

تقديـــــم

كتاب لاهوتيات إفريقية

للأستاذ الدكتور أنطون يعقوب ميخائيل

كتاب (لاهوتيات إفريقية) للأستاذ الدكتور أنطون يعقوب ميخائيل أكثر من رائع ، كله جميل معنىً ومبنى . أنه مرجع موثّق ، من ينقل عنه ، يثق فى صدقه ودقته .

إنه كتاب تاريخ ودين وأدب ، أما التاريخ فشامل يُغطى بأسلوب فريد كل تاريخ العقائد الدينية فى إفريقيا منذ القديم إلى العصر الحديث ، وبكل صور التقاليد العريقة ، فى الله الواحد الأحد ، العالى فوق الآلهة الوسيطة ، والأسلاف والأبطال - والاعتقاد فى الحياة بعد الموت ، وعلاقة الموتى بالأحياء ، بمعنى أنّ الجميع عند الله أحياء، فإنّ أرواح الموتى فى عقائد الإفريقيين حية لاتموت ، وأنها تتردد على جثث الموتى كما أنهم يعاونون الأحياء بمثابة آلهة صغار تحت الإله الأعظم الواحد الأحد ، العالى فوق الجميع .

إننا نحيى الأستاذ الدكتور أنطون يعقوب ميخائيل على هذا الكتاب الثمين حقا . إنه بحث ممتاز جمع فأوعى ، ونسأل لمؤلفه الإكليريكى الدكتور أنطون البركة والنعمة واطراد التوفيق فى مهامه العلمية والروحية .

ولعظمته تعالى الشكر دائما ...

الأنبا غريغوريوس

أسقف عام

للدراسات العليا اللاهوتية

والثقافة القبطية ، والبحث العلمى

٢٧ من يوليو - تموز لسنة ١٩٩٤

٢٠ من أبيب لسنة ١٧١٠

المقدمــة

إفريقيا قارتنا . هنا نشأنا . وعلى أرضها عشنا . وفى مسارحها داعبت الأحلام أفئدتنا . وبالخيال جسنا ربوعها ، نكتب قصتنا .

خصّتنا بركنها الشمالى الشرقى . جعلت لنا فيه موضعاً عبقريا . جسرا حضاريا أسطوريا بين قارات العالم القديم الثلاثة . ومفتاحا لتاريخ هذا العالم . وامتدت عبقريته داخل الزمان ، ليكون له وزنه الدولى المؤثر فى عالـــم اليوم والغد .

وإفريقيا أمّنا . ربطتنا بأعماقها بشريان ، أشبه بالحبل السرى ، يحمل إلينا الحياة والخير ، ليجعل منا هبه فريدة ، تتيه على الزمن بذلك النيل الوفى الخالد، الذى جرى التاريخ فى مجراه ، ومعه أقدم حضارة ، لأقدم دولة ، وأعرق شعب .

وإفريقيا امتدادنا ، فى الحاضر والمستقبل . ارتبطنا بها ارتباطا عضويا لاينفصم . نسعى إليها ، وتسعى إلينا . نتقاسم خبراتنا وخيراتنا ، ونتساند نحو فجرنا المأمول .

وإفريقيا عمق أمننا [(١)] ، ليس فقط بحكم المكونات الطبيعية التى تشكّل

---

(١) لقد وقفت بجوارنا أثناء العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، وبعده . كما قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل بعد حرب سنة ١٩٦٧ . وإفريقيا ذات موقع استراتيجى هام جدا ،إذ تكاد تحتل وسط العالم ، بين قديمه وجديده ، وتطل على المحيط الهندى شرقا ، وعلى المحيط الأطلنطى غربا ، وهو شريان التجارة والحضارة والعلوم فى العصر الحديث ، وترتبط بالبحر الأحمر وقناة السويس اللذين يمثلان طريقا حيويا للتجارة العالمية. وطاقتها الكهرومائية تمثل حوالى ٤٠ ٪ من الطاقة الكهرومائية فى العالم كله ، ولاتستغل منها الآن إلا ٢ ٪ فقط . وكنوزها المعدنية متعددة . وبعضها استراتيجى كاليورانيوم والنحاس الذى تنتج منه ثلثى الإنتاج العالمى ، إلى جانب الذهب الذى يمثل نصف إنتاج العالم ، والماس بثلاثة أرباع الإنتاج العالمى ، والحديد والقصدير والكروم والبترول وغيرها . بالإضافة إلى ثروة غاباتها من أخشاب الأبنوس والماهوجانى ، وحاصلاتها المتنوعة كالكاكاو وزيت النخيل والبن والشاى وغيرها .

جغرافيتنا ، وحلقة مُحكمة فى حماية مصالحنا ، بل أيضا بحكم الجوار ، والصلات البشرية ، والموارد والثروات ، وجماعية العمل من أجل الأمن والسلام .

عشقها الفراعنة ، فارتحلوا فى مجاهلها ، وطافوا حول سواحلها . واهتمت بها مصر العربية . واتجهت نحوها مصر الحديثة بعيون محمد على وذريته . ومثلت الدائرة الثانية فى فلسفة الثورة المصرية واهتماماتها .

وهى دائما عزيزة علينا . أثيرة عندنا . تهمنا شئونها . نبارك أحلامها . ونقف إلى جانبها وقفة الشقيق الصديق . وندعمها فى كفاحها من أجل رخائها، وعزة شعوبها .

وهذا كتاب فى حبها . يحيّى تاريخها . ويعترف بسبقها وفضلها . ويدهش لتراثها . ويستلهم أسرارها التى لاتغيض . ويقرأ بعض سطور فلسفاتها . ويستقى من روحانياتها . ومن حظنا ، نحن المصريين ، أننا نشرب كل يوم ، من نيلنا ، قطرات محيية من ذوبها وعصارتها .

د. أنطون يعقوب ميخائيل

أكتوبر ١٩٩٤

الفصل الأول

التراث الإفريقي

رؤية ظالمة

داعبت إفريقيا ، وعلى مدى قرون ، خيال الجغرافيين ، والمؤرخين ، وعلماء الإنسان والأجناس ، لقدم عهدها ومخزونات أسرارها . فجيولوجيا ، كانت هى قلب التشكيل القارى الضخم ، الذى عرف باسم « جندوانا لاند » ، والذى انفصلت عنه ، منذ ملايين السنين ، أمريكا الجنوبية وأستراليا ، وتباعدت عنه كل من آسيا وأوروبا ، بفعل الانسياق القارى The Continental Drift . وأنثروبولوجياً ، شاركت إفريقيا ، من أزمان سحيقة ، فى تشكيل التاريخ بالنسبة لنشوء الإنسان . وتؤكد الأبحاث اليوم أنها كانت مهد الإنسان ، والحضارة الإنسانية الرائدة . وممر الهجرات إلى أوروبا [1] . فمن سهولها المحيطة ببحيراتها

(١) وخاصة بعد اكتشاف إنسان « أتلانتروبوس موريتانيكوس » فى شمال إفريقيا . فهذه وغيرها من الحفريات التى اكتشفت فى إفريقيا ، أثبتت وجود إنسان قديم فى إفريقيا ما قبل التاريخ ، هو فى الغالب أصل الأجناس البشرية التى هاجرت إلى آسيا وأوروبا . وأحدث هذه الاكتشافات تمت فى صحراء إثيوبيا ، إلى الشرق منها ، فى سبتمبر ١٩٩٤ . وقدّر تاريخ الحفرية المكتشفة هناك بمليون سنة أقدم من أية حفرية سابقة.

ولقد تهيأ للإنسان الإفريقى الوقت للتحرك شمالا ، فى قارته ، خلال العصر الجليدى البلستوسينى Pleistocene ، حين أدى تغيّر المناخ إلى إزالة العقبة التى تمثلها الصحراء الكبرى . ومن ثم أمكنه الانتقال إلى أوروبا فى موجات ، عرفت أولاها باسم مياندیتال Mianditall ، وتزامنت مع فترات تراجع الجليد inter-glacial . ومن ثلاثين ألف سنة فقط اتجهت من إفريقيا الأقوام التى كونت شعوب أوروبا الحالية .

الاستوائية انطلقت الكتل البشرية ، ومنها الجنس القوقازى الذى اتجه فى شعبتين إحداهما إلى شمال إفريقيا والأخرى إلى غرب آسيا .

ورغم هذه العراقة والأهمية ، فقد نعتت بأسماء بعضها يحط من قدرها، مثل القارة السوداء ، والقارة المظلمة ، والقارة الهمجية . والبعض الآخر يعطى الأمل ، حين أشير إليها مثلا ، فى الخمسينيات من هذا القرن ، باعتبارها قارة المستقبل . وظهرت مصنفات عدة ، خلال القرنين الأخيرين ، عجزت عن إنصافها ، يؤكد بعضها أنها – أى إفريقيا – باستثناء شمالها وخاصة مصر – لاتاريخ لها ،وبالتالى لم تنشأ فيها ثقافة واعية بنفسها ، مما جعل الإفريقيين قوما لامكانة لهم ، ولامكان لهم يعتد به فى نظر غيرهم من الشعوب . وقال فيهم أحد الكتاب (١) « إنهم بدون عقيدة فى كائن سام . وليس لديهم أى شكل من العبادة السليمة . وظلام عقولهم كثيف لم ينره ولو شعاع من الخرافة . فالعقل عندهم راكد ركود مستنقع آسن ، وقد شكّل لهم عالما محدودا وهمجياً » .

ولقد ساد هذا المفهوم فعلا ، أو قريب منه ، على العقول فى أوروبا طوال القرن التاسع عشر . فالإفريقى لاشئ عنده ، لا لأطفاله ولا للعالم . فهو

---

(١) سير إدوارد بيكر ، فى خطاب له أمام جمعية لندن للأجناس ، عام ١٨٦٧ .

* وقد سبقته دائرة المعارف البريطانية (١٧٩٧) فى وصف « الزنجى » بصفات كالخيانة والقسوة والوقاحة ، والأخلاق الشاذة، والاستعداد الطبيعى للسرقة والكذب والدنس . كما قررت الجمعية الفلسفية ، بمانشستر بانجلترا ، فى مؤتمر علمى ، عام ١٧٩٦ ، أن الزنوج يقتربون إلى الطبيعة الوحشية القاسية فى الخلق ، أكثر من أى جنس بشرى آخر .

* وأضاف بعض الكتاب أن الإفريقيين يفتقرون إلى الأصول الحضارية ، وأنهم عاشوا حياتهم أقرب إلى الحيوان ، ومتخلفين تماما عن ركب الحضارة . ودللوا على دونيتهم بميلهم القوى نحو الشر والوحشية ، واستعدادهم الطبيعى للعبودية !

+ وأشارت كتابات أخرى إلى عقائدهم التى تقوم على ذبح الضحايا ترضية للآلهة . وذكرت إحداها أن ملك داهومى (غرب إفريقيا) صنع بحيرة من دماء الضحايا البشرية ، كان يسبح فيها بزورقه.=

طفل يحبو فى مؤخرة موكب الحضارة البشرية .

أما المبشرون الذين أرّخوا للديانات الإفريقية ، فقد رفضوها رفضا تاما ، معتبرين إياها خرافات لاتملك من البصيرة الفقهية شيئا ، ولا قواعد فيها للحرمات الاجتماعية . كما صوروا الإفريقيين أنفسهم على أنهم برابرة متوحشون ، يعيشون فى ظلمات الجهل ، ولهم عادات وطقوس همجية ، ويأخذون بتعدد الزوجات ، ويعيشون فى الدنس . وقد استغلوا فصول الدراسة فى المدارس التى افتتحوها لأطفال الإفريقيين ، كمنابر للتعبير عن إزدرائهم بأعراف إفريقيا وتقاليدها ، رغم معرفتهم بقيمة هذه الأعراف والتقاليد بالنسبة لأصحابها فى المجتمعات الإفريقية .

وحظيت هذه الآراء بتأييد دوائر متعددة ، كان أبرزها تقريراً قدمته لجنة متخصصة من العلماء، بنته على دراسة مولتها مؤسسة فيلبس ستروكس الأمريكية عام ١٩٢٠ . وإن كان هذا التقرير ذاته قد أكد أن أطوار البدائية والبربرية السائدة فى إفريقيا عرفتها كل الأجناس المتحضرة ، ومرت بها فى فترة ما من فترات تاريخها الطويل . مضيفاً أن الإفريقى إنما يملك قدرات فطرية تمكنه من التطور نحو الأحسن . ودلّل على ذلك باستجابته المشجعة لجهود المبشرين ، والحكومات

= ومن أحدث هذه الاحكام القاسية ما صدر عن عالمة أجناس ألمانية (شارلوت هون) ، إذ فاجأت مؤتمر السكان ، الذى كان منعقداً بالقاهرة (سبتمبر ١٩٩٤) ، بقولها إن الجنس الإفريقى منحط الذكاء ، مقارنة ببقية الأجناس . وكأنما كانت تعيد إلى الأذهان ما دأب النازيون على ترديده من حطهم لقدر الإفريقيين .

* وفى أوائل القرن الحالى ، استغل الانثروبولوجيون البريطانيون والألمان كتابات «لوسيان ليفى برول» عن «العقلية البدائية» ، ليؤكدوا أن للبدائيين تكوينا نفسيا فطريا «بدائيا» خاصا بهم ، يجعلهم بالفطرة غير قابلين « مطلقا وأبداً » لإدراك قوانين المنطق والسببية والتناقض ، وغيرها من قوانين « التفكير العلمى » ، التى هى وقف على « المتطورين » أصحاب العقول المتطورة المتفتحة .

الأوروبية ، والمؤسسات التجارية العاملة فى ربوع القارة . وأشار إلى الفنون الإفريقية، من نحت وحفر ونقش ، باعتبارها من أصدق الدلائل على قدرة الإفريقى على الاستجابة للطرق والأساليب التى يتبعها حملة الحضارة الأوروبية الأمريكية بصورة طيبة .

وهذه الأحكام القاسية قد نجم أغلبها ، ولاشك ، عن الأخذ بظواهر الأمور ، أو عن أفكار مسبقة افتقرت إلى الدراسة الموضوعية ، وفى وقت لم يكن هناك رأى عام إفريقى ، أو صوت إفريقى متمكن قادر على مواجهتها ومناقشتها، أو تفنيدها . فإفريقيا ، جنوب الصحراء ، كانت غارقة فى ظلام مطبق ، وكانت تبدو ، خاصة للعين المتحيزة ، أو المتسرعة ، وكأنها فعلا قارة بدون تاريخ أو حضارة أو تراث . وسارع المستكشفون والمستعمرون إلى الترويج لهذه الأفكار ، وإلى تعميقها لدى الرأى العام فى أوطانهم ، لأهداف خاصة بهم ، من بينها ، مثلا ، التحفيز على تمويل حملاتهم ومشاريعهم ، أو لتبرير ما كانوا يرتكبونه من أفعال ضد شعوب القارة . وساعدتهم على نشر مقولاتهم عوامل إفريقية بحتة، مثل سيطرة الحياة القبلية ، والتطاحن القبلى . وصعوبة الاتصال والتنقل ، وغير ذلك من العوامل الطبيعية والبشرية ذات الطابع الإفريقى . وفوق ذلك ، تعدد اللغات واللهجات بالمئات ، وعدم وجود لغات مكتوبة ، مما أدى الى غياب السجلات ومصادر التعريف بأحوال القارة وتاريخها .

ومن رأى السير بيرتون أن تجار الرقيق كانوا من مروجى هذه المقولات ، ليبرروا تجارتهم الذميمة من جهة ، ولإبعاد الأجانب ، والضمير الإنسانى ، حتى ينفردوا بالقارة ويواصلوا مهمتهم القذرة . وجاءت السينما لتصور إفريقيا على نحو المروجين العنصريين ، رغبة فى الإثارة واقتناص الأرباح .

والتمييز بين الناس على أسس بيولوجية ، أى التركيب الجسدى واختلاف المستويات العقلية والنفسية ، قديم العهد . فقد ميز اليهود أنفسهم باعتبارهم شعب الله المختار . واعتبر الرومان أنفسهم أعلى مجموعات البشر ، وغيرهم برابرة . وادعاء المستعمرون البيض أينما حلوا فى آسيا وأوروبا والامريكتين، إذ روجوا لتفوق عقلية الرجل الأبيض ، وأسسوا ذلك على شكل الجمجمة وتركيبها ، وما فيها من تجويف . وقد أثبت العلم زيف هذه الادعاءات العنصرية، ذات الأهداف السياسية الإبتزازية .

رؤية جديدة

ومع مرور الأيام ، بدأت الحقائق تتكشف رويدا رويدا . ساعد على ذلك العلماء الأجانب الذين تخصصوا فى الإفريقيات ، وكرسوا جهودهم للكشف عن مقومات الحياة الإفريقية ، وصور التعبير عنها . إلى جانب جهود المبشرين فى ترجمة الكتاب المقدّس وكتب العبادة ، إلى اللغات واللهجات الإفريقية المتعددة ، والتعريف بهذه اللغات ، والعمل على تحويلها إلى لغات مكتوبة . على أن الإسهام الأكبر جاء من أبناء إفريقيا أنفسهم ، بعد ما أُتيحت لهم فرص التعلّم والتثقّف ، سواء فى مدارس وجامعات بلادهم ، أو فى جامعات الغرب . فقد انبروا فى حماس يكشفون النقاب عن قارتهم وعن تراثها ، ويمسحون عن وجهها غبار المغالطات والافتراءات الذى تراكم عليه عبر القرون ، ويخرجون إلى النور حقائق الحياة الإفريقية فى ماضيها وحاضرها . وزادت يقظتهم بعد الحرب العالمية الثانية حين انتفضت شعوب إفريقيا من أجل حرياتها ، فشرعوا يتحدثون عن قيم ثقافاتهم فى كل منتدى ، ويصنفون الكتب وينشرون الدوريات .

ومما دعَّم هذا التحرك أنَّ الزنوج لم يهجروا تراثهم الإفريقى عندما وصلوا إلى العالم الجديد ، بل تمسكوا به ، مع قليل جدا من التغيير . واحتفظوا بكثير من لغاتهم وآدابهم الشعبية ، وعقائدهم الدينية ، وانتقلت معهم أساطيرهم وأمثالهم وقصصهم . ويُقدَّر وجود ما يقرب من ستة آلاف كلمة ، إفريقية الأصل ، متداولة فى سواحل جورچيا وكارولينا الجنوبية ، تمثل أكثر من ثلاثين لغة من لغات غربى إفريقيا . ومعابد الزنوج فى إقليم باهيا ، بالبرازيل ، ذات طابع إفريقى خالص ، يكاد لايمت بصلة للكاثوليكية التى يتبعونها .

ومن الجدير بالذكر أنه فى أعقاب ظهور حركة العودة إلى إفريقيا ، وإنشاء دولة ليبريا لاستقبال العبيد المحررين من الولايات المتحدة الامريكية ، فى منتصف القرن الماضى ، بدأ العديد من المثقفين الزنوج ، فى الجنوب الأمريكى وجزر الكاريبى ، يتداولون فكرة تشكيل « الجامعة الإفريقية » كحركة ثقافية ، تستهدف اكتشاف عناصر الوحدة والتمايز فى ثقافات قبائل وشعوب إفريقيا السوداء ، وخاصة فى إفريقيا الغربية . وفى عام ١٩٠٠ صدر بيانهم الأول الذى عُرف « ببيان نيويورك » يتضمن تأكيدهم على وجود ثقافة إفريقية متميزة ، قامت على أسس مغايرة لتلك التى قامت عليها الثقافة اليونانية ، التى تعتبر من الجذور الأولى للثقافة الغربية . كما كشفوا عن القواسم المشتركة فى إيقاعات الموسيقى والرقص ، واللغات ، وعناصر التشكيل فى فنون النحت والحفر والمعمار ، لدى كل القبائل والشعوب الإفريقية . وعقدوا فى نفس العام مؤتمرهم الأول فى لندن ، وتلاه مؤتمر فى باريس . ثم توالت مؤتمراتهم فى نيويورك وغيرها . وتميز مؤتمرهم الذى عقد فى مانشستر بانجلترا ، عام١٩٤٥ ، بحضور جيل ليوبولد سنجور السنغالى ، فيلسوف الزنجية الإفريقية وشاعرها . وشهد عام

١٩٥٨ أول مؤتمر لهم يعقد على أرض إفريقية ، فى أكرا ، وحضره كوامى نكروما وأحمد سيكوتورى وغيرهما من قادة النضال الإفريقى . وفيه تبلور بصورة أقوى مبدأ وحدة كل الثقافات الإفريقية ، باعتبارها ثقافة مستقلة ، متميزة عن غيرها ، مع تفاعلها وتبادلها التأثير سواءً مع الثقافات الغربية ، أو المسيحية الأرثوذكسية (الشرقية) ، أو الإسلامية العربية . فالتاريخ ليس من صنع حضارة واحدة ، أو عصر واحد ، أو شعب معين . والثقافة مزيج معقد تكتسبه المجتمعات البشرية . والأوروبيون أنفسهم لايمكنهم الادعاء أن ثقافتهم هى خلق خاص بهم ، أو من صنعهم وحدهم . فقد كانت هناك ثقافات إنسانية رائدة ، طورت وتطورت ، بالأخذ والتقارب والتداخل ، فلما وصلت أوروبا كانت ثقافة وحضارة إنسانية جديدة . وقد ساعدها على ذلك اتصالاتها بغيرها من الشعوب . وهذا يؤكد وحدة الإنسانية .

ولاشك أن مؤتمرات هذه الجامعة [1] قد تمكنت من لفت أنظار المثقفين الغربيين الصغار والكبار إليها ، وتأكيد أصالة الثقافة السوداء وقيمتها . إلى جانب

(١) وقد قامت جمعية أمريكية أخرى ، عام ١٩١٥ ،باسم «اتحاد دراسة حياة الزنوج وتاريخهم» ، برز نشاطها فى ليبريا ، غربى إفريقيا . وأخذت على عاتقها بحث الدرسات الإفريقية ، والثقافة الزنجية . ثم تطورت إلى «جماعة الثقافة الإفريقية» ، وأصدرت عدة صحف ، واهتمت باصدار « دائرة معارف إفريقية » تصحح فيها ما تنشره دوائر المعارف الأخرى من أخطاء عن إفريقيا .

وقد أثمر التعاون الوثيق بين المثقفين الإفريقيين ، فى بلدان إفريقيا ، والمثقفين الزنوج من أصل إفريقى خارج القارة ، فى قيام مؤسسات لنشر الحقيقة ودحض أكاذيب المستعمرين ، منها « جماعة الوجود الإفريقى » ، فى باريس عام ١٩٤٧ ، التى أصدرت نشرة ثقافية دورية ، ساعدت فى حركة تحرير إفريقيا . وتعاون معها بعض مثقفى فرنسا الكبار ، أمثال جان بول سارتر . ثم انبثقت عنها هيئة أدبية ثقافية باسم « مؤتمر الكتّاب والفنانين الزنوج » ، كانت لها إصدارات عديدة أدبية وتاريخية . كما شهدت باريس ، عام ١٩٥٦ ، قيام « الجمعية الأمريكية للثقافة الإفريقية » ، لإصدار دراسات على الطبيعة عن إفريقيا . وترويج كتب الغربيين التى تنصف القارة.

حشد تأييد المثقفين الديمقراطيين فى الغرب لها .

وقد ظهرت كتابات منصفة ، تشير إلى حضارات إفريقية قديمة ، أزاحت الستار عنها حفريات واكتشافات أثرية وتاريخية، من بينها حضارات كوش والنوبة المزدهرة فى حوض النيل الأعلى . وحضارات الأزانيين والزيمبابوى فى شرقى إفريقيا ووسطها ، وحضارات فائقة فى غربى إفريقيا ، مثل ممالك غانا وغينيا ومالى ، التى كانت تتمتع بالرخاء والقوة والثقافة والعلم . وقد أذهلت العالم نماذج الفن فى تماثيل آيف وشمال نيجيريا (نوك) وبنين ، و ثبت أن شعوبا زنجية متقدمة عاشت فى هذه المناطق قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة .

وهكذا اكتشف العالم، ولو متأخرا ، أنَّ هناك فنا إفريقيا خالصا ، وفكرا إفريقيا متميزا ، وقيما وتقاليد وتراثا تخص شعوبها وحدها . كما توجد عبادات وطقوس ومفاهيم دينية ، هى فى الواقع بمثابة ناموس خاص بها، يتفق كما يبدو مع ما عبر عنه بولس الرسول حين تكلم عن الناموس الطبيعى . فالأمم « *الذين ليس عندهم الناموس ، متى فعلوا بالطبيعة ما هو فى الناموس ،* ***فهؤلاء إذ ليس لهم ناموس هم ناموس لأنفسهم*** » (رو ٢ : ١٤) .

الدين فى إفريقيا

والإفريقيون ، مثلهم مثل غيرهم من أصحاب الديانات الكتابية وغيرها ، لهم أسرارهم الدينية ، التى تشكلت وتجمّعت لدى محاولاتهم تفسير الوجود ، وفهم الظواهر السماوية والأرضية التى تحيط بهم ، واستكناه الألم الذى يدفع إلى التأمل فى أمور الحياة ومآسيها . ومع أن تصوراتهم بخصوص الإله تأثرت بثقافتهم ، وما يحيط بهم ، وبحركتهم الدائبة ، أو بعدم الحركة ، إلا أنَّ مادة

اختباراتهم وتجاربهم ، ومضامين تقاليدهم ، تشير إلى ذات «الآخر» الذى يحيى الكون ويسوده ، والذى تجب عبادته . فالفكر الإفريقى كان دائما زاخراً بعناصر رائعة من التصور والاعتقاد ، وقد اقترب بعض معتقداته القديمة من «الوحدانية» إلى حد كبير .

ويُشار إلى الإفريقى ، عادة ، على أنه متدين لدرجة «غير قابلة للشفاء» ، بسبب إيمانه الصلب ، وولائه للمعلن من قوى ما وراء الطبيعة ، والتى تدور حول سر الإله المتعالى البالغ السمو Transcendent ، الذى يتجاوز كل تصور. وقد انتقلت إبداعاتهم ، وما أقاموه من مؤسسات وتقاليد خاصة بهذه القوى المعلنة، من خلال الأساطير ، من جيل إلى جيل . وينعكس عمق إيمانهم هذا على معتقداتهم وأنماط عباداتهم ، التى نسقت فى رموز ، وفى نظم ومتطلبات أدبية . كما انعكست على ديناميكية السلوك الإنسانى ، الذى يستهدف استمرارية الحياة والتقدم ، وما يترتب على ذلك من مسئولية تجاه النفس ، ووعى الفرد ببقية أفراد قبيلته ، والتضحية من أجلهم . وفى كل هذه الأمور يظل الإله بعيدا ، لا يُدنى منه ، ولكنه مع ذلك قريب ويشترك فى أحوال الإنسان من يوم إلى يوم.

وإذا كان الدين ، كما يقول فريزر ، هو الاعتقاد فى قوى عليا ، توجّه العالم الطبيعى وحياة الإنسان ، الذى يعمل من جانبه على استعطافها واسترضائها ، فقد أضافت الشعوب القديمة والبدائية بعداً آخر إليه ، يرتبط بوجود أرواح قديمة ومتعددة ، وبعالم السحر ، وهو ما يدخل فى نطاق الأنيميزم animism أو المبدأ الحيوى ، الذى يقوم على أن كل الأشياء حية ، وأن حياة

شئ ما هو نوع من روح الأشياء (١) . فالإفريقى منح عالم الجماد «الكينتو» روحاً ، وتخيله ، على غرار نفسه ، يعيش كما يعيش هو . فهو شخصية تختفى وراء كيانها الظاهرى . فالعاصفة ، مثلا ، روح جهنمية غير منظورة قــادرة على إيذائه .

ومما يجدر ذكره أن اللاهوتيين الإفريقيين لايقبلون الربط بين الديانات الإفريقية والأنيميزم ، ويقولون إنها تعتقد بما تعتقد به الديانات الكتابية ، من أن الكائنات جميعها لديها وعى بالله ، فالفلك يخبر بعمل يديه ، والنجم والشجر يسجدان ، وما من شئ إلا ويسبّح بحمد الله ، ويأتمر بأمره للخير وغيره .

ولقد قامت مجموعة من اثنى عشر مبشرا مسيحيا ، فى الخمسينات ، بدراسة لآلهة إفريقيا ، فتعرفوا على قرابة مئتى اسم ، بين ثمانى عشرة جماعة عرقية من شعوب إفريقيا جنوبى الصحراء . وهناك ولاشك مئات غيرها . وكل هذه الأسماء ، والتصورات المرتبطة بها ، لايتأتى فهمها خارج الإطار الثقافى لهذه الجماعات أو الشعوب ، لأنها ترتبط بخبراتها فى الزمان والمكان . كما أنها نتاج افتتانها بالظواهر فى بيئتها ، وبرغبتها فى المعرفة ، واستكناه الحقائق الخاصة ببدايات الأشياء والأحداث ، التى تعطى معنى لوجودهم . ومن هنا برزت الأفكار حول منشأ الكون والفنون ، والموت وعلته ، وغيرها الكثير . وجرى تداولها فى

(١) كان الهنود الحمر يخاطبون كل ما فى الحياة ، الأشجار والحيوانات والصخور ، بصيغة الاحترام : أنتم ، انتن – حضراتكم ! ويقول هنود « الباوني Pawnee » إن الحكمة والمعرفة كانتا مع الحيوان فى البداية . لأن تيراوا ، الكائن الأعلى ، لم يتكلم مباشرة مع الإنسان، إذ أرسل حيوانات إلى الجنس البشرى لإعلامهم ، أى أنه أظهر ذاته من خلال الحيوان . وعلى الإنسان أن يتعلم منه ومن الشمس والقمر والنجوم .

قصص ، وقصص تفسيرية لها ، كعادة الشعوب التى على الفطرة . وقد مرت كافة الشعوب فى مثل هذا الاختبار ، فى فترة من فترات تكيفها ومسيرتها نحو الوعى الأمثل بأمور اللاهوت ، والخليقة ، والحياة والموت ، وما إليها .

وهناك من يرون أن دراسة موضوعية لنماذج العقائد الإفريقية الأصيلة ، التى أنبتتها التربة الإفريقية ، والتى صنعت روح وعقل الإنسان الإفريقى على مر العصور والدهور ، إنما تكشف عن نقاط إلتقاء مع المسيحية والإسلام ، وذلك بعد إزالة بعض المظاهر التى لاتتصل إتصالا وثيقا بجوهر هذه العقائد. ولعل من أهم نقاط الالتقاء هو الفكر الخاص بوجود كائن أعلى خالق وقادر ، ومفهوم الرقابة والرعاية اللتين تمارسهما قوى ما وراء الطبيعة على الكون والخليقة . وهى القوى التى صنفها الإفريقى تصنيفا يجعل لكل وحدة منها وظيفة أو مهمة معينة تضطلع بها . ويتمثل هذا التقسيم فى أربعة مستويات أو أركان هى : إله أعظم فى القمة وهو البدء . ثم مخلوقات تتبعه ، وتأتمر بأمره ، وتعاونه ، وتمارس بتفويض منه سلطات هى فى الأصل له . ثم قوات الأسلاف أو الأجيال التى رحلت ، والتى يقدسونها ، ولايعصون لها أمرا تقول به على لسان رسلها من الكهنة . ثم القدر وسلطان الغيب على المصير الإنسانى . وهذه القوى بأركانها ليست فى الواقع خاصية إفريقية ، بل تنتمى إلى العالم القديم ، وسبقت زمنيا التبشير بالديانات الكتابية الكبيرة . وانتشارها فى أركان الأرض ، منذ القديم ، إنما يشير إلى أن الوجدان البشرى حين التقى بالكون ، أول ما التقى ، استجاب نحوه على نحو متشابه تقريبا ، قد تختلف التصورات أو التفاصيل ولكن لاخلاف يذكر فى الجوهر .

ويُرجع العلماء هذا التشابه أولا ، إلى أن « السـايك Psyche » ، أو النفس ، هي ذاتها في كل العالم ، وباعتبارها الاختبار الداخلي للجسد الإنساني الذي هو متماثل في كل البشر : ذات الأعضاء ، والغرائز ، والصراعات ، والمخاوف والدوافع. ومن هذه الأرضيـة المشتـركـة جـاء النمـوذج الأولى archetype ، كما يقول يونج ، وهو أفكار عامة عن الأساطير ، التي تظهر في أثواب مختلفة ، في مختلف أنحاء العالم ، وعلى مدى التاريخ ، بسبب اختلاف البيئة والظروف التاريخية . وثانيا ، إلى انتشار هذا النموذج الأولى من مكان إلى ما يماثله من أماكن. فأساطير المجتمع الزراعي تنتشر في مثلها من المجتمعات الزراعية ، وهكذا . فالجغرافيا قد لعبت دورا كبيرا في تشكيل ثقافتنا وأفكارنا حول الدين .

والإنسان يعتمد في حياته ، واكتمال كيانه ، على قوى خارجة عنه ، وإن كانت تشترك معه في طبيعته بصورة ما . وعلى الإنسان أن يكون في وفاق معها ، وهذا الوفاق في الديانات الإفريقية يتحقق من خلال أفعال وطقوس حركية ، كالرقص ودق الطبول .

والدين ، أساسا ، هو نتاج محاولات عقل الإنسان الأول لبلوغ الشعور بالأمن . وتشير مخلفات الإنسان الأول إلى أنه كان متدينا . فوعيه بالحاجة إلى الأمن جاء مبكراً جدا . ومن شأن الأزمات التي تمر بالإنسان أن تثير فيه قلقا ، يتطلب منه تأدية شعائر وطقوس ، تعيد إليه الطمأنينة ، وتمنحه البرء . وبعدما تستقر هذه الطقوس ، وتصبح جزءاً من حياة الناس ، مع مايرافقها من عناصر أسطورية ومؤسسية ، ينشأ في أذهانهم قلق ثانوي ، مرجعه ، عادة ، الخوف من أن تكون هذه الطقوس والشعائر التي استقرت ليست كافية ، مما يستدعي إضافة

فرائض تعززها أساطير [1] من نتاج خيال الإنسان الخصب ، تتحدث عن القوى الخارقة لما وراء الطبيعة ، وعن الآلهة ، والجدود ، والأبطال وأمثولاتهم وأعمالهم المبهرة ، وعن المخلوقات والموجودات وكيف تكونت . كما تعبّر عن معتقدات جادة حول الإنسان والأبدية والألوهية. ويأخذها علماء النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا بكل الجدية ، ويحللّونها ، ويكتشفون فيها مخزوناً من أماني الجنس البشرى وآماله ، ومخاوفه أيضا، وجوانب من أعماق الطبيعة البشرية .

ولقد تعددت المعتقدات الدينية والأساطير والفنون ، أو التراث في جملته ، بتعدد مناطق إفريقيا الجغرافية ، أو مناطقها الثقافية ، كما يشير إليها علماء علم الإنسان. فهناك ، في تقديرهم ، ثماني مناطق متمايزة ، تأخذ في الاعتبار الأحوال الجغرافية والعوامل الطبيعية ، وخاصة المناخ والتضاريس ، إلى جانب الحقائق البشرية ، بما فيها التنوع العرقي (الأثنى) والقبلي ، واللغوى والثقافي. وتضم : الشمال الإفريقي ، والجنوب الإفريقي ، والقرن الإفريقي في الشرق ، والغرب الإفريقي بما فيه الكنغو وساحل غينيا حتى السنغال شمالا ، و الشرق

(١) قالوا في الأسطورة إنها قناع الله ، أي استعارة لما هو قائم خلف العالم المنظور . وهي خريطة للطرق الداخلية « للاختبار » ، أعدها أناس سبق أن اجتازوها . إنها قصص بحثنا عن الحق ، وعن المعنى ، عبرالأجيال . إنها بمثابة المفتاح والدليل إلى المكنوزات الروحية في حياة الإنسان .

ولاتتعارض الأسطورة مع العلم . فالعلم يقتحم أبعاد ما في الأسطورة من أسرار . ويدفع طريقه في الدائرة التي تتكلم هي عنها. فالأسطورة إنما تمهد الطريق للعلم .

والأسطورة تربط بين الفرد ومجتمعه ، وتجعلهما واحدا ، وبين المجتمع والطبيعة ، فهي قوة توفيقية .

ويفسّر العنف الشائع في الشارع الأمريكي على أنه يرجع إلى غياب الأسطورة التي تشد الشباب إلى العالم الكائن وراء ما يراه .

الإفريقى من موزمبيق إلى إثيوبيا . أما الوسط الإفريقى فيضم ثلاث مناطق تتميز مناخيا هى السفانا (منطقة الماشية) وتمتد من الجنوب الإفريقى حتى البحيرات العظمى شمالا ، والمنطقة الصحراوية فى السودان ، وتلتحم هذه بمنطقة إفريقيا الوسطى التى تمتد من الساحل الغربى شرقا حتى الصحراء .

وإضافة إلى ذلك ، فقد تعددت المعتقدات بصورة أكبر بتعدد تقسيمات هذه المناطق الثمانية ، وتفريعاتها العرقية ، والقبلية . وهى فى جملتها ، كما يتوقع المرء ، إنما تعكس الصلة الوثيقة بينها من جهة ، وبين الموارد الإقتصادية ، والتركيب الاجتماعى والتنظيم السياسى ، من جهة أخرى . فنجدها مثلا متقنة التشكيل والتنظيم ، ومعقدة الطقوس حيثما يكون الاستقرار والثراء أو الوفرة الاقتصادية . فى حين تكون بسيطة وساذجة فى المناطق الفقيرة أو الأقل حظا ، وسكانها كالبدو يتنقلون . ورغم هذا التعدد فهناك قواسم مشتركة تجمعها تتعلق خاصة بالإله الخالق ، والآلهة الوسيطة ، والأسلاف ، وطقوس السحر .

ففى منطقة الجنوب الإفريقى ، حيث ساد « الهوتنتوت والبوشمن » إنتشر دين نما وتطور مع الزمان الطويل ، يحتل المكان الرئيسى فيه خالق مبدع ، وتقوم إلى جانبه كائنات عليا تحيط بها الأساطير ، وتقدسها التقاليد . وفى حين إعتقد « البوشمن » أن للقمر والشمس والنجوم دخلا فى أمور حياتهم ، فكثرت عندهم أساطير الكواكب ، آمن « الهوتنتوت » بدور كبير للأشباح فى حياتهم على الأرض ، ولهم حول الموت مفاهيم وممارسات متعددة .

والى الشمال ، فى منطقة السفانا ، تدور أغلب الطقوس حول الماشية . ويفوق حرص القبائل على أبقارها حرصها على حقولها ، فالبقر عندها يمثل

القيمة الكبرى ، وهو رمز الكرامة فى مجتمعاتها . وقد آمن الناس أن الكون من صنع صانع كبير ، وإن اختلفت نظرة القبائل فيما يتعلق بعلاقة هذا الصانع بمن صنع من الأحياء . فبعضها رآه بعيدا وكاد أن يغفله أو لا يحسب له حسابا . والبعض منها رآه قريبا من شئون أفراده وحياتهم . وانصرف البعض الثالث إلى الاعتقاد بأن الخالق يصرّف شئون خلقه عن طريق آلهة أقل شأنا منه ، تتولى عنه كل شئ فى حياة الناس . ولكى يتقى الناس ما قد يأتى من سوء عن طريق هذه الآلهة ، كانوا يتخيلون أو يتوهمون رغباتها ، ويتصرفون بالصورة التى تقيهم من السوء ، أو تخفف منه عند حدوثه . وللأسلاف مكانهم فى معتقدات القبائل هنا . إنهم لايعبدونهم . ولكن لهم مكانا كبيرا فى رؤيتهم للعالم حولهم، وكثير من الطقوس تدور حولهم . وهى طقوس للتقرب إلى الجدود باعتبارهم لم يفنوا ، ولم يتوقفوا عن أداء وظائفهم التى كانت لهم قبل الموت ، وذلك عن طريق أرواحهم . فهم باقون فى الغيب صلة وصل بين الكون الكبير والأحياء على الأرض ، يرعونهم ويحمونهم من السوء . وللسحر دور فى عقائدهم لأنه وسيلتهم الفعالة للتحكم فى القوى الغيبية المحيطة بهم ، كى يعيشوا أصحاء البدن ، ويكثر نسلهم، وتتكاثر ماشيتهم ، ويضار عدوهم .

وفى مناطق الكونغو آمنت القبائل بإله يشار إليه بالخالق أو الإله الأول ، ويسمى « نزامبى » . وهناك آلهة صغيرة تأتمر بأمره ، أكثرها آلهة طبيعية كالصواعق والرعود ، تتحكم فى الأرضيين وفى المياه والغابات نيابة عن الإله الأول . وهذه الآلهة ووظائفها تكوّن جزءاً من نظرة الإفريقى الكاملة لمحيطه وللكون كله . والوجود عنده حركة مستمرة ، فلا مكان للجمود فيه . ولكل كائن ، حيوانا كان أو جمادا ، طاقة فيه ومنه تحركه دائما . والصلة وثيقة بين

القوة والطاقة والكينونة ، وهى أساسية فى فهمه للحياة . وهذه القوة حية ومؤثرة فى عالم يتجدد ويتغير دائما ، ومقامها فى وعيه للكون ، لايفوقه شئ .

وإلى الشمال من الكنغو وعلى امتداد ساحل غينيا (١) ، وإلى الشرق حتى السودان الغربى ، حيث قامت ممالك عدة ، وتنوعت الديانات ، تنقسم القوى إلى أقسام محددة بحدود واضحة . فى القسم الأول تجمعت الآلهة العظيمة ، وعلى رأسها خالق هو الأب الأكبر لكل الآلهة المتحالفة ، يتحكم فى كل مظاهر الطبيعة كالسماء والأرض والبحر والبرق . يليه قسم آخر يتكون من سلسلة من الكائنات ، يتحكم كل منها فى مكان بعينه كتلك التى تعيش فى الغابة أو فى النهر . وللحرب ومعداتها كائنات تعيش لها وتحرس شئونها . وكائنات تتمثل فى الشاذ من أى نوع كالتوائم مثلا . وتقديس الأسلاف له مكانته أيضا فى ديانات هذه الشعوب ، التى تتميز بأنها معقدة فى لاهوتها وغنية فى طقوسها ، منها إحتفالات دينية تستمر أياما وأحيانا أسابيع ، تثور فيها العواطف بالطبل والزمر والغناء والرقص . وهى الحفلات التى أعطت عالم الفنون القديم والمعاصر الأقنعة العديدة التى تزين حفلات الرقص .

وهذه العبادات والطقوس لها كهنتها يتم اختيارهم بعد دراسات وتدريبات وامتحانات عسيرة . والعلاقة بين الإنسان وأربابه قريبة ومحددة بصفات ثابتة . فالإنسان تنمّيه وتقويه آلهته ، وهذه الآلهة ، من جهة أخرى تَقْوى أو تَضعف بعبادته أو بعزوفه عنها ، أى أن الإله والإنسان يكمل أحدهما الآخر ، مما يؤدى

(١) وتضم أساسا بلاد غربى إفريقيا ، من جابون إلى السنغال ، بما فيها نيجيريا وغانا وساحل العاج وجيرانها .

فى النهاية إلى كون منسجم ، لا تناقض فيه ولا صدام .

ويقرر « صموئيل زويمر » أن هناك خمسة عناصر مشتركة وشائعة وسط قبائل إفريقيا الغربية ، هى (١) حياة عائلية منظمة ، (٢) اسم لقوة عليا غير منظورة خيّرة وسائدة . (٣) وعى أدبى وأخلاقى بقيم كالحق والعدالة ، ومعرفة بوجود خير وشر ، وبمفهوم « العار » . (٤) فكرة عن النفس ، والاعتقاد بكونها لاتموت بموت الجسد . (٥) اتصال بالقوى العليا غير المنظورة بالصلاة والعبادات وطقوس الذبائح . (١)

إن الفلسفة الإفريقية تشمل بنظرتها الوجود كله ، والموجودات كلها. وهى تضم كل أوجه النشاط الإنسانى لدى الإفريقى : العقيدة ، والسياسة ، والنظرية الاجتماعية ، والقانون والطب ، وعلم النفس ، والحياة ، والموت ، والفن، فكلها مرتبطة فى تناسق بحيث إذا حاولنا إبعاد أى منها أصيب البناء كله بالشلل. فالحقيقة والإيمان والعقيدة متصلة كلها بعضها فى تناسق تام ، بل إن الإله هو الذى خلق بيده المبدعة كل أسباب المعرفة وطرقها .

وفى هذا تأكيد على المصالحة القائمة بين الإله والطبيعة ، فلم ينفصل عنها (كما حدث فى قصة السقوط) . كما لم تنفصل أمور الروح عن أمور الجسد . ولم يحدث إنفصام بين الروح والمادة ، بين الأبدية والزمن ، أو بين

(١) وقد تميزت هذه المناطق ، بتأثير معتقداتها الدينية ، بالانتاج الفنى الجمالى ، مثل صناعة الأقنعة فى سيراليون وليبريا وساحل العاج ، ورؤوس أيف- و« أيف » (Ile-Ife) هو مكان المنشأ لشعوب اليوروبا فى نيجيريا - ونحاس بنين ، وقصدير داهومى . وموازين الذهب عند الأشانتى . وغيرها من فنون المعادن .

الدين والعلم . لاثنائية . بل وحدة وتكامل تلغيان مفهوم الصراع بين كل هذه العناصر .

الفنون فى إفريقيـــــا

تستحق الفنون الإفريقية دراسة واعية متعمقة ، فالفن هو روح الأمة ، المعبّر عن وجدانها وأعماقها ، وهو تجلياتها فى مضمار الخلق والإبداع . وإفريقيا التى ظلمت كثيرا يمكن فهمها وإنصافها باستقصاء ما تبوح به فنونها من أسرار تمثل ضميرها ، ومن معان وقيم تجسّد فلسفاتها .

الفن التشكيلى

ارتبط الفن ، بكافة صوره وأشكاله ، فى المجتمعات الإفريقية ، بمعتقداتها الدينية ، شأنها فى ذلك شأن كل المجتمعات البشرية . وقد اتخذته سبيلا للتعبير عن هذه المعتقدات وممارسة طقوسها . ووسيلة للتعبير عن أفكارها ومشاعرها وتجسيدها . وإن كان فهم المعنى المقصود منه ليس دائما بالأمر الهين .

وهو فى أغلبه تأثيرى الطابع impressionist ، وفيه كثير من الغموض والمهابة . كما أنه متنوع بقدر تنوع الجماعات العرقية واللغوية . فالقبيلة هى قوامه ولبه ، ولأن كل قبيلة كيان مستقل بذاته ، فقد انقسمت أشكال التعبير عنه فى المجتمع القبلى التقليدى تبعا للحدود القبلية . على أنّ هذا التعدد لا يعنى غياب الوحدة عنه ، رغم أنّ إفريقيا الغربية وحدها تموج بأكثر من ألفى لغة ولهجة . فقد قامت إمبراطوريات زنجية عظيمة ، وجرت هجرات واسعة ، وحدث اختلاط كبير بين شعوب القارة ، مما ساهم فى قيام نوع من التقارب فى

الفنون . وتكشف الأساطير عن مدى التشابه البيّن بين الشعوب المتباعدة فى أنحاء القـارة ، الأمـر الذى أثّر فى فنونهـا وأثراها . فى الوقت الذى بقى فيـه الفن الإفريقى دون تأثر يذكر من الخارج ،رغم المؤثرات الحضارية والتقنية التى وفدت على القارة ، من خلال المهاجرين الذين قدموا إليها فى العصور الوسطى من الشمال الإفريقى، ومن الجزء الجنوبى الغربى للجزيرة العربية . وإن كان القناع بالذات قد تأثر بقبائل الفولانى المسلمة فاقتبس عنها « العُقد الأبدية » ذات الشكل المثمّن الأضلاع .

ويُعتبر النقش والحفر على حيطان الكهوف من أقدم أشكال الفن الإفريقى (1) . ويرى علماء الأنثروبولوجيا أنّ هذا قد يعود إلى أنواع الحجارة والزلط التى وقعت فى يده ، وهو يحاول شطفها ليستخدمها كبلطة . وهو معروف فى الصحراء الكبرى والسودان ، وفى شرق وغرب القارة. وكان انتشاره فى المناطق الجافة أكثر منه فى المناطق الإستوائية المطيرة . ومعظم الرسوم فى الجنوب والشرق من عمل قبائل « البوشمن » الذين انتشروا فى الجنوب على وجه الخصوص . وهى رسومات ملونة تصور الماشية والحيوانات المفترسة ، إلى جانب شخصيات دينية . وقد عمّر بعضها مئات السنين ، بينما عمّر البعض الآخر آلاف السنين . وترتبط فى مجملها بطقوس الصيد والقنص اللذين اعتمد عليهما الإنسان البدائى فى معيشته . وقد اتخذ الفنان الوضع الجانبى للحيوان ، واستخدم العظام المحروقة فى تحديد الشكل باللون الأسود ، أما اللون الأحمر الذى

(1) يقول د. هربرت كوهن إن الإنسان ، قبل أن يكتشف الكتابة ، رسم أفكاره ورغباته وما يرجوه من الإله على الصخور ، التى حفظت الخطاب البدائى للإنسانية حتى يومنا هذا . وتملك جنوب إفريقيا أقدم هذه الرسوم فى القارة ، وهى توصف بالدقة والسيولة فى التركيب ، والوضوح والمهارة فى تجميع الأشكال بنسب مختلفة . وفى تنزانيا وحدها يوجد أكثر من ألف من هذه الرسوم .

كان يملأ به الشكل فاستخدم له « المغرة » الحمراء ، من أكاسيد الحديد والتحجر الموجودة في البيئة .

ويمثل الفن الإفريقي تجاوب الإنسان الإفريقي الفطري والتلقائي مع بيئته الغنية بمظاهر الطبيعة المتنوعة ، والتي استوحى منها التشكيلات والألوان . واستخدم موادها المتاحة ، كالخشب والعاج والأبنوس والمعادن وطين الصلصال ، في إنتاجه الفني . فمن أصداف البحر صنع أدوات زينته الخرزية ، ومن محاره صنع أدواته . أما جذوع الأشجار فقد شدّ عليها جلد الحيوان ليصنع طبله ، أو آلاته الموسيقية . وقد تنوعت المواد التي صنع منها الأقنعة ، من قبيلة إلى أخرى . فمن أغصان الشجر ، إلى ثمار القرع العسلي ، إلى الجلود وريش الطيور . وكذلك الطواطم ، فقد نحتها من الخشب والجلد ، كما شكلها من الفخار .

ومازال هذا الفن يحتفظ بما تميز به من سمات في الشكل واللون والحركة ، ومن تلقائية وتجريد . فهو لا يهتم بالتفاصيل قدر اهتمامه بالمعنى المختفي وراء الصورة أو التمثال . فرأس تمثال لزعيم لن تكون طبق الأصل ، ولكنها تشير إلى الإنسان « عموما » ، أو بمثابة رمز للكائن البشري . والتصميم الفني هو الذي يبرز خاصية معينة « تدل » على هذا الزعيم . كأن يميزه بشكل شعر رأسه ، أو بتاج يلبسه ، أو غير ذلك . أي أن التصميم الذي يشكله الفنان ما هو إلا « المعنى » بالنسبة لشكل التمثال النهائي .

وقادته هذه النزعة التجريدية إلى استخدام فنه لتحويل غير المنظور إلى منظور . وهو لا يصور ما يعتقده بأشكال مباشرة ، بل يعيد تنظيم عناصر رؤيته الطبيعية والمجردة والتعبيرية والتكعيبية ، ويدخلها جميعا في وحدة كلية متصلة مترابطة ، يعبّر بها عما يريد . فهو مثلا يعبّر عن القوى الإلهية بأن يرسمها

برؤوس كبيرة ، وعيون براقة ، وبطون منتفخة ، وصدور ضخمة .

وبقيت صناعة النحت كما هي في تطابقها مع التقليد ، وفي تمسكها بالتعبير الأيقوني ، والذي يتركز في الرأس ، مركز التفكير والإرادة ، والذي يحظى بمنزلة أكبر في علاقته ببقية الجسد ، وقد تهمل هذه البقية . وبقي الفنان يحتفظ لنفسه ببعض الحرية (١) الشخصية في التعبير ، ويتصف بالمرونة في عمله الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالقيم الجمالية الإفريقية الخاصة ، التي تتصل اتصالا كبيرا بفلسفات الإفريقي ومعتقداته ، فيرسم السلف بوجه يشع هالة من الهدوء ، ويخرج ومضات من الحضور الحي لشخصيته من خلال محاجر العينين الضيقة ، مؤكدا استمرار حياته رغم موته .

واستطاع هذا الفن مؤخرا من اقتحام المجتمعات الأوروبية والأمريكية .

(١) بل بإرادته ، بعد أن تنتقل قوته السحرية إلى ما يصنعه . وهذه « الإرادة » من الفنان هي التي تتحكم في نتيجة العمل الفني ، وما هي في واقع الأمر إلا « كلمة » الأرواح والأسلاف والآلهة ، التي تفرض حمايتها ورعايتها عليه . أي أن العمل الفني ، في أية صورة ، يخضع لأرواح الأسلاف والآلهة . وهو لهذا ذو صلة وثيقة بالعقيدة والدين والفلسفة الإفريقية . والفنان إذا شكل تمثالا لإله ، من قطعة من الخشب مثلا ، فهو في نظره ليس وثنا أو إلهاً . فالإفريقي لا ينحت من الخشب آلهته التي تسيطر عليه ، ولكنه يخلق في تشكيله لها الصور التي يسيطر « هو » عليها . فالتمثال لا يعبد لذاته . إنه ليس أكثر من « مزار » للآلهة ، أشبه شيء بالتماثيل التي في الكنائس المسيحية . أي أنها رمز للكائنات الروحية ، وليست شيئاً معبودا . ففن النحت الإفريقي لم يكن فنا وثنياً ، وتماثيله مجرد رموز للآلهة أو لأرواح الأسلاف . فالتمثال ، كما أسلفنا ، يتلقى «معناه أو مضمونه من إرادة الإنسان « منتو » ، وهو بهذه الإرادة يمكن أن يحوله إلى مجرد شيء « كينتو » ، أي قطعة من الخشب . أي أن التمثال ليست له قوة ذاتية مستقلة إلا بقدر ما يريده له صانعه ، أو من يقتنيه . والتمثال مرتبط « بالدلالة » التي يضيفها إليه صانعه أو مقتنيه . فقد يكون لصبي صغير ، بينما دلالته المقصودة تشير إلى رجل مسن أو ملك عجوز . فهو إذن مرتبط « بإرادة » الإنسان وما يتصوره عنه .

والتأكيد على أذواقها الفنية . ففي الملبس ، مثلا ، شغفت بما تميزت به الملابس الإفريقية من ألوان زاهية ، ونقوش وتصميمات متفردة . وقد جاءت بداية تعرّف الغرب على الفن الإفريقي في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، عن طريق ما كان يجلبه الرحالة والتجار البرتغاليون من ملاحات محفورة من العاج ، من صنع قبائل (بنين) و (يوروبا) ، في إقليمي سيراليون ونيجيريا . وفي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، تسنّى لجامعي التحف في أوروبا الحصول على مجموعات ضخمة من الإنتاج القبلي الفني ، التي وسموها باعتبارها إنتاج همج دون مستوى البشر Sub - human ، ولم يقدّروا ما احتوته من صور الجمال .

على أن الكثيرين من الفنانين التأثيريين impressionists والتكعيبيين cubists بالذات استلهموا هذا الفن الإفريقي ، وخاصة الأقنعة التي وصلتهم من أسواق أوروبا الشعبية (flea markets) في أعمالهم . وبرز تأثيره في أعمال بيكاسو وماتيس وفلامنك وديرين Derain في باريس ، ونولده وكيرشنر في درسدن وبرلين . وقد اجتذبهم هذا الفن لاختلافه اختلافا بيّنا عن فن محاكاة الطبيعة الذي ساد الفن الغربي منذ عصر النهضة . فالفنان الإفريقي « خلق » موضوعا يماثل صور الطبيعة ، ولم يكتف بمحاكاتها أو مجرد عكس نماذجها . أي أنه جسّم في مخلوقه قوى الطبيعة الحيوية المكملة لسر الوجود كما اختبره في سياقه القبلي .

الأقنعة

ويحتل القناع والطوطم رأس قائمة هذا الفن ، لصلتهما الوثيقة بالممارسات الدينية وطقوسها واحتفالاتها . ومع أن هناك ما يزيد على ألف قبيلة

في القارة ، فإن عددا قليلا منها يشتغل بالنحت ، وعددا أقل ، في حدود المائة فقط ، يصنع القناع ، وهذه القبائل تمتد على مدى قوس من السنغال ، في الشمال الغربي ، إلى زامبيا وأنجولا وصحراء كالاهاري في الجنوب ، وبعض المناطق شرقي بحيرة نياسا . وهي تجمّع شعوب غابات وسفانا الغرب الإفريقي ، والنيلية بالسودان الشرقي ، والبانتو في وسط وجنوب وشرق القارة .

والقناع والوجه يمثلان مقراً لشئ مقدس ، وللقوة الإلهية ، سواءٌ أكانت وظيفتها عمل طقسي عميق ، أو تافه للتسلية . وإطلالة الوجه في الفن الإفريقي لها معنى أيقوني دقيق . ولهذا ينبغي أن تكون الأقنعة جميلة ، أو مخيفة بقدر الإمكان ، كي ترضى الروح أن تسكن فيها . وهي عادة تلبس ومعها زينة من لحاء الشجر، والليف والأنسجة ، وفرو الحيوان ، وإضافات أخرى من الصدف وقطع من المعدن وقرون الحيوان . والراقص الذي يلبس القناع يحظى بروح القناع ، ويتوقف عن كونه إنسانا . وهذه الروح تجعله يمشي على هيئة (مسكون) أو ممسوس ، ويتكلم بصوت مغاير .

والغرض الرئيسي وراء حفر الأقنعة هو تحقيق الرغبة في إعطاء شكل حقيقي وملموس لعالم الروح ، كوسيلة للاستحواذ على مظهر من مظاهر السيطرة على قوى الإبداع الكونية ، وهي القوى التي يعتقد أنها موجودة في كل شئ حي ، ويمكن استخدامها في صورة إيجابية ومانحة للحماية . ويعتبر تنامي الثقة في عالم الروح واحدا من مظاهر الحياة الحقيقية والضرورية .

وتستخدم الأقنعة في أمور متعددة ، كالشعائر الخاصة بدخول الصبية عالم الرجال initiation ، والطقوس الخاصة بالكهنة ، والاحتفالات والشعائر المرتبطة بمرور الذكور من درجة أو مرحلة عمرية إلى أخرى ، واحتفالات الحصاد ،

ومحاكمة السجناء ، والتعاويذ الخاصة بطرد أو استحضار الأرواح الشريرة . كما أنها تستخدم فى حفلات التسلية ، حين يمثل لابسه بهلولا (بلياتشو) دون أن ينفصل عن عالم الروح .

ويعود تاريخ القناع إلى العصور البدائية السحيقة ، حين كان الصيادون يلبسونه وهم يؤدون رقصة الصيد ، التى كانت فى الواقع إبتهالا للآلهة كى توفقهم فى صيدهم للحيوانات ، التى كانت مصدرا مهما لطعامهم وكسائهم . وكانت هذه الأقنعة تمثل أشكالا لرؤوس بعض الحيوانات التى يريدون صيدها ، وكان يُستعاض عنها أحيانا برؤوس حقيقية لهذه الحيوانات . وما كان منها يشبه الجاموسة ، أو حيوان ذى قرون ، كان يستخدم فى حفلات الرقى والتعزيم ، وتقمص الروح ، وتكريم السلف ، والتماس القوة الطبيعية . وكانت تصنع من الجلود ، خاصة جلود وحيد القرن والفيل لمتانتها وصلابتها بعد ما تجف . ومن ثمار القرع العسلى لسهولة ارتدائها ، ومن الخشب أيضا . وهى ذات أشكال مختلفة ، منها الدائرى والبيضاوى ومنها ما هو على شكل إنسان . وتُزيَّن عادة بألوان وأشكال مختلفة . وكان صبغها باللون الأبيض يشير إلى الأشباح وأرواح الموتى ، وإلى صفة من صفات العالم الآخر . ومهما تنوعت الأقنعة فهى جميعها تعبِّر عن الصفات الأدبية المرغوبة كالحكمة والحيوية والقوة والشباب .

الطواطم

هى منحوتات من الخشب أو الجلد أو الفخار ، يصنعها الفنان الإفريقى على هيئة ما اتخذته العشيرة رمزا لها ، من حيوان أو طير أو نبات أو جماد . كما يصنع منها التميمة الصغيرة التى يلبسها كالقلادة حول عنقه دائما

لتحميه. وقد دفعته عقيدته الدينية إلى تكريس ملكاته وخياله الفنى ، ليبدع فى الأشكال التى يقدم بها الآلهة والطواطم التى تمثلها ، مستلهما ألوان الطبيعة فى بيئته ، ومستعيناً بكل ما هو متاح من مواد .

والطوطم الذى تتخذه القبيلة أو العشيرة رمزاً لها ، يصبح لقباً لجميع أفرادها ، ويوحد بينهم جميعاً . فالقبيلة أو العشيرة ترتبط به ارتباطاً وثيقاً ، وتقيم معه علاقات مودة ، وتؤلف معه وحدة مكينة . فالطوطم يعمل على تضامنها وتماسكها ، ويعبِّر عن وحدتها اجتماعياً ، ويمد حياتها الاجتماعية باسمه . ويعطيها أيضا القوة والحيوية . والطواطم الحيوانية أكثر انتشارا من النباتية . أما الطواطم غير الحية فهى نادرة ، مثل المطر والسحب والنار . ويعتبر الثعبان والأسد والنمر والتمساح وفرس النهر والفيل من الطواطم الحيوانية المعروفة . ومن الطيور البومة والحدأة . ومن النباتات الخيزران والنخيل ، وأنواع معينة من الأخشاب والأشجار ، التى تنمو فى المناطق القبلية .

ويقوم الطوطم على أساس أسطورى ، يختلف من قبيلة إلى قبيلة . فقبيلة لُويل Luel ، مثلا ، تتخذ التمساح طوطما لها لاعتقادها أن جدها عقد ميثاقا معه ، بينما اتخذت غيرها الأسد لأن جدها الأكبر كان توأما له . وتحْذر القبيلة أن تسئ إلى طوطمها أو تؤذيه . فاذا كان طوطمها من الشجر اعتقدت أن من يقطعها يموت ، ومن يلقى بأخشابها فى النار يدخل دخانها فى عينيه ويصيبه بالعمى .

ويجسِّد العديد من الطواطم آلهة تمثل قوى الطبيعة ، التى تسيطر على حياة الإنسان البدائى ، التى لايعرف كنهها أو نواميسها ، كالزلازل والبراكين ، والعواصف والأمطار والرعد ، والشمس والقمر والنجوم، وغيرها من القوى الغيبية الخيِّرة التى يسعى إلى استرضائها ، أو الضارة التى يقى نفسه من ضررها . وقد

أحاطها بأساطير ومعتقدات دينية ، وجعل لها أعياداً ومواسم ، يقيم فيها الاحتفالات والشعائر ، ولها تقدماتها وذبائحها ، وموسيقاها ورقصاتها وملابسها .

الرقص والموسيقى

يجرى الرقص فى دم الإفريقى حيثما نشأ ، فهو فطرى تلقائى يعبر به عن مشاعره ، أياً كانت هذه المشاعر. فهو يهتز ويتمايل ، فرديا، أو فى حلقات مع الجماعات ، مع الموسيقى أو بدونها . ويهتم أيضا بزينته التى تشكل مظهراً هاماً من مظاهر حياته . فالرقص والتزيُن صنوان بالنسبة للإفريقى . ويتزين الرجل بالوشم والألوان والأصباغ ، ولبس الأساور والعقود من الأصداف والقواقع ، أو من الخرز الملون ، ومن أسنان الحيوان وعظامه ، والأحجار الزاهية الألوان . ويزين ملبسه بريش الطيور وغيرها . أمّا المرأة فتلبس الأساور فى الأذرع والأرجل ، بعضها مصنوع من الخيزران وقد عولج بالنار ليكون متميزاً فى أشكاله ، والأقراط الطويلة فى الآذان ، وتهتم بالملابس ذات الألوان الزاهية والنقوش الجذابة. وتستعمل الوشم أيضا فى زينتها . وبالرغم من تنوع الآلات الموسيقية فى أرجاء القارة ، تظل الطبلة أهمها وأكثرها انتشاراً . إذ لا تكتمل الموسيقى الإفريقية إلاّ بها . وتختلف الطبلة شكلا وحجما ، سواءً فى المنطقة الواحدة ، أو فى مختلف المناطق ، فمنها الكبير الذى يحمله أكثر من فرد ، ومنها الصغير . كما أنّها تُصنع من كافة المواد المناسبة المتاحة ، مثل جذوع الشجر المجوفة ، والبامبو ، والقرع العسلى ، ويشد عليها جلد الحيوان الرقيق .

والرقص والموسيقى يشكلان عنصرا هاما فى الطقوس والاحتفالات الدينية والموسمية والشعبية. وقد استطاعت الموسيقى الإفريقية أن تعبر الأطلنطى ، وتشق طريقها إلى المجتمع الأمريكى والبرازيلى والغربى عموما ،ممثلة فى موسيقى الجاز

بألوانها المتعددة . ومنها أيضا السامبا والرومبا ، وكلاهما كلمتان إفريقيتا الأصل. وإيقاع بعض الرقصات والأغنيات مأخوذ من إيقاع أغنيات للآلهة : فإيقاع أغنية الإله « أوشان » ، إله الأنهار عند « اليوروبا » ، صار إيقاع رقصة « الشرلستون » التى اشتهرت فى وقت ما فى الولايات المتحدة الأمريكية . وإيقاع أغنية الإلهة «أوشالا» ، عند اليوروبا أيضا ، هو إيقاع أغنية « مالاجينيا » المشهورة . ويرى خبراء الموسيقى أن المستوى الفنى للموسيقى الإفريقية والغربية متشابه من ناحية الإيقاع (الميلودى) والتكوين ، وإن كانت الغربية أكثر تعقيدا من ناحية تآلف الأصوات (الهارمونى) ، وأبسط من الناحية الإيقاعية .

والطبلة فى إفريقيا ليست مجرد آلة موسيقية ، بل كانت «لغة» الإفريقى ، أو وسيلته فى نقل المعلومات والتفاهم . فدقاتها تمثل حروف الكتابة عند الشعوب الأخرى. فهى « حروف مسموعة » . وقد تطورت وقامت بدور الكتابة فى تبادل المعلومات ، بصورة سريعة فى أرض تكثر فيها الغابات الكثيفة ومسطحات المياه ، والتلال والوديان ، التى تعرقل الانتقال البشرى ، وعلى نطاق واسع ، بين أفراد القبيلة ، والقبائل ، المنتشرة فى مساحات شاسعة . والطبلة تنسجم مع اللغات الإفريقية ، فمعظمها لغات صوتية ، أى تعتمد على ما يشبه النغمات الموسيقية . ولهذا وجد الإفريقيون صعوبة عند التحول إلى الحروف اللاتينية لكتابة لغاتهم ، واضطروا إلى إضافة كثير من وسائل التنغيم والإمالة والمد الموسيقية إلى هذه الحروف ، حتى تكون أقدر على التعبير عن لغاتهم .

وكان دق الطبول ، كلغة ، يتطلب مهارة فائقة ، وكان من يتولاه يعتبر من أهم الشخصيات فى مجتمعه وأكثرهم قربا لأرواح الأسلاف ، إذ كان يعد «راوية» القبيلة ، ينقل التراث والأدب والشعر « شفاها » ، دون كتابة ، كما فعل شعراء الجزيرة العربية ، ورواة الأدب فى أوروبا ، قبل انتشار الكتابة . وكان أشبه

بالمذيع ، قبل أن تُعرف الإذاعة بقرون ، يذيع الاحتفالات ، وينشر القصص الشعبية ، وملاحم قبيلته الرائعة ، وقصص أسلافها وأبطالها ، وهو ما يتطلب منه أن يكون عالما بكل أساليب الدق على الطبول ، وأن يكون ضليعاً فى تقاليد المنطقة ، ملماً بتاريخها وآدابها .

وقد قاوم المبشرون ، منذ مجيئهم إلى إفريقيا ، الطبلة واستعمالها ، من منطلق دينى ، ومنطلق حضارى فى نظرهم ، وعلّموا الإفريقى اللغة «المكتوبة»، وهكذا قضوا على لغة الطبول « المسموعة » . ويتحسّر شعراء الزنجية اليوم على اختفاء صوت الطبلة من غاباتهم وسهولهم وجبالهم ، وينعون أيامها :

أيام الطبول واحتفالات الرقص فى الظل
ظل الشمس التى تسطع أشعتها على سعف النخل (١)

وهذه الفنون ، حتى ما يعود منها إلى مئات السنين ، لايمكن أن نعتبرها بدائية – بمعنى التخلف أو عدم النضج ، أو الهمجية . لأنها ليست كذلك . فهى بدائية فيما يتعلق بمستوى الأدوات التى كان الفنان يستخدمها فى تشكيل عمله الفنى . ورغم عدم امتلاك الوسائل الفنية ، وقتذاك ، فقد استطاع أن يشكل أشكالا بديعة من النحاس والذهب والبرونز ، رغم صعوبة تشكيلها . ومثلها أيضا التشكيلات الحرفية المبهرة .

وبعد ما كان هذا الإنتاج لايعتبر صالحا إلا لمتاحف التاريخ البشرى ، تغيرت النظرة إليه ، وبدأت عيون الفن فى الغرب تبحث فيه عن القيم الفنية والجمالية الرائعة الكامنة فيه ، بل وتأثرت به لما فيه من أصالة وتميز .

(١) للشاعر الغانى داى أنانج.

الفصل الثاني

أساسيات الفكر الديني الإفريقي

لم تكن الديانات القبلية ، والتى تتجاوز فى عددها السبعمئة وربما الألف، جامدة أو ساكنة يوما ما كأنها متحجرات محفوظة من العصر الحجرى ، ولكنها على العكس كانت دائمة التغيير مع الزمن ، وبصورة مؤثرة أحيانا . وما زالت تستطيع التأثير على الحياة المعاصرة حتى اليوم .

ولهذه الأديان خصائص متعددة ، تشترك فيها معظمها ، إن لم تكن كلها . فشعوبها عموما ، تعرف إلها أو كائنا أعلى . ولكنه ، فى العادة ، بعيد فى عظمته عن الكائنات البشرية فلا يدنى منه . ولهذا لا توجد طقوس خاصة به ، أما أحداث الحياة اليومية فتقع فى دائرة إهتمام أنواع متعددة من آلهة أقل مقاما ، إلى جانب الأسلاف الذين يحظون بالطقوس المناسبة .

وتهتم الأديان الإفريقية اهتماما كبيرا بالكوارث والمصائب التى تحل بالإنسان . وتنسب أمراض البشر وآلامهم إلى واحد من مصدرين : الأرواح أو الأسلاف وقد أغضبتها أفعال الناس أو عدم انتباههم . أو عمل سحرى مارسه أعداء شخصيون . وفى الحالتين يستشير المتضرر وعائلته مختصا ، وهو إما أن يكون كاهنا أو عرافا أو وسيطا روحانيا . ويقوم المختص بتحديد العلة وسببها ، ويصف العلاج الطقسى . وعادة ما يتم استرضاء الروح أو السلف الذى أُغضب بتقديم ذبيحة من الحيوان .

وتتلخص القواسم المشتركة الرئيسية فى الفكر الدينى التقليدى فى إفريقيا السوداء فى الأمور التالية :

الاعتقاد فى إلـــه

إن الاعتقاد فى كائن أعلى (١) ، كان وما يزال قويا جدا فى إفريقيا، وقد ظل محور الديانات الإفريقية . ولا يعرف بالتحديد متى جاءت الإفريقى هذه الأفكار الخاصة بإله ، ولكنها بدأت معه كما بدأت مع غيره من الأجناس البشرية . ويؤكد « لانج » أن التصور الخاص بكائن أعلى ، قادر على كل شئ وعالم بكل شئ ، قد وجد بين أشد قبائل الأرض بدائية . وكما قال القديس بولس ، « ***فإن الإيمان به لا يتطلب رؤيته إذ معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم . لأن أموره غير المنظورة ترى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته حتى أنهم بلا عذر*** » (رو ١ : ١٩ ، ٢٠). فالطفل (٢) الإفريقى ينشأ ومعه المعرفة الفطرية بوجود خالق ، والإفريقيون أمكنهم معرفته دون كتب مقدسة . وفى ممارسته للخلق – والخلق عندهم عملية ولادة مستمرة – وفى كل الأحوال ، تصوروه يهتم بأن تكون للإنسان بيئة كابلة متقنة وأن يتمتع براحة تامة ، وهو إمّا أن يعيش مع الإله فى السماء ، أو أن يعيش الإله معه على الأرض. وهو (الإله) قوة الحياة الكبيرة القادرة ، وهو الحكيم للغاية الذى يعرف كل شئ ، والذى منح كل شئ قوته ، وحدد نوع هذه القوة وطبيعتها ، وهو القوة ذاتها . ويقول الأب تامبلر إن الإفريقيين عرفوا الإله الواحد ، ويعتقد أن هناك شبها كبيرا بين عقيدة الشمس عند « الأكان » –غانا– والعقيدة

(١) عرف المصريون فكرة وجود الخالق الأزلى للكون منذ أول بدء تاريخهم ، وعرفوه على أنه واحد لاشريك له ، أى أنهم توصلوا إلى عقيدة التوحيد . وأضاف إخناتون تأكيداً لهذه العقيدة عندما تعبّد للإله « آتون » المنزه عن الشريك والضد ، والمنفرد بوحدانية مطلقة .

(٢) هؤلاء البدائيون هم أطفال الحضارة – أطفال التاريخ ، ترىِ هل هم أيضا « الأطفال » الذين قال عنهم السيد المسيح « ***من أفواه الاطفال هيأت لى سبحا*** » (مت ٢١ : ٦) ؟!

الوحدانية التى بشر بها إخناتون فى مصر القديمة (١)

ويؤكد الإفريقيون اليوم أنّ مختلف جماعاتهم العرقية (الأتنية) كانت ، وما زالت تؤمن بوجود إله واحد ، خالق وضابط كل الحقيقة المخلوقة ، يشار إليه بأسماء مختلفة ، لأنّ الإفريقى فى محاولاته للتعبير عن من هو الإله يستخدم صورا مأخوذة من الطبيعة ومن رموزها . وتشترك الأسماء التى أُطلقت على الإله فى أمرين : أن الخلق صادر عنه وحده . وأنه هو غير مخلوق . ومن بين هذه الأسماء: (٢)

– أُلدومارى : عند قبائل يوروبا فى غربى نيجيريا ، ومعناه « الواحد الذى فيه الكمال ، أو الجلال الأبدى ، والذى يعتمد عليه الإنسان » . وله عندهم اسم آخر ، أُوريس ، أى المصدر الأوحد للوجود.

– إلْم ، عند النوبيين ، ويعنى « الفاطر المبدع الذى لم يفطره أحد » ، ويتفق هذا مع جزء من ترنيمة مصرية قديمة (١٤٠٠ ق.م) كتبها الأخوان سوتى وحور .

(١) ويصر كتّاب غربيون وإفريقيون على أن العبادات والأفكار الدينية المصرية وجدت طريقها إلى غربى إفريقيا ، فى وقت مبكّر يعود إلى عصر الأسرات . ويدعى كتّاب فى غانا أن أصولهم «الأكان» قدموا من مصر خلال العصر الوسيط . وبالمثل ينسب «يوروبا» نيجيريا أصلهم إلى المصريين القدماء .

(٢) من بين الاسمـــاء التى أعطيت للإله المصـرى القـديم : « رع آتوم » بمعنى الكامل المتكامل ، الذى هو كل شئ فى الوجود . « بتاح أو فتاح » ، ويعنى الصانع أو الفتاح أو الخلاّق . وما زال المصريون يستفتحون بقولهم « يافتاح ياعليم » . و« آمون » ويعنى الواحد الخفى الذى لاتدركه الأبصار ، منزه عن الكثرة والتحديد والإحاطة . وهناك ترنيمة فى التسبيح له تقول : أيها الموجود الذى لاموجود له ، أيها الواحد الأحد ، الذى يطوى الأبد ، سبحانك يا بارئ البرايا كافة . وآمون أو آمن يتردد فى ختام كل صلاة «آمين» وصدقت الحكمة الهندوسية : الحق واحد تدعوه الأجيال باسماء مختلفة .

– مويى ، عند قبائل تومبوكا ،فى مالاوى ، ومعناه «واهب كل الأشياء» .

– كاجنجو ، فى يوغنده ، ويعنى « سيد الحياة » .

– روشوبورا فيوز ، عند قبائل باروندى فى بوروندى ، ويعنى « المالك الذى لا يدهشه شئ » .

– نياكالاجا ، عند اللو ، فى كينيا ، أى « قديم الأيام » .

– واك ، كبير الآلهة عند الجالا (إثيوبيا) ، وهو رب السموات ، الذى يعيش فى السحاب ، وهوالذى جمع الأشياء المنظورة وغير المنظورة .

– تسوسا ، عند شعب زالا ، فى إثيوبيا ، ويعنى « سيد العالم » .

– لفى ، عند شعب مندى ، فى سيراليون ، ومعناه « الخالق الأعلى ، الذى فى الأعالى » .

– تتاكوا فراموا ، عند قبائل أكان فى غانا ، ومعناه « الكائن الآن كما كان فى القدم » .

– كاجنجو ، عند شعب بجاندا ، فى يوغنده ، ويعنى « سيد الحياة » .

– أدوما أنكوشا ، عند الأكان (غانا) ، أى « الذى صنع العالم بيديه مثل أى حرفى أو فنان » .

– إياجالا ، عند شعب نجومبى ، فى زائير ، ويعنى « البادئ » .

– زجوينكيلى ، عند شعب سوكوما ، فى تنزانيا ، ومعناه « مالك كل شئ » .

– التلشيون فى جنوب كردفان (السودان) يدعون إلههم «موسلى أو ماسلا» ، وهو الكائن الأعظم خالق الشمس والقمر والسماء والأرض وكل شئ بينهما . خالد لايموت ولا يمكن رؤيته ، وليس له مكان يأوى إليه ، مصدر الخير والشر اللذين قد يصيبهم .

وفى العائلة الإفريقية للأديان يوجد إله لكل فريق أو شعب ، يليق به الحمد ، وتتحتم الثقة به ، وتجب عبادته ، باعتبارها ضرورة حيوية . فشعب أقامبو فى جنوب إفريقيا ، يتكلمون عن الإله بالاستعارات ، وينظرون إليه كمانح الحياة فى الكون والإنسان ، والذى يحافظ عليها . بينما يعتقد شعب لوجبارا ، فى يوغنده أن الإله يعطى روحا حارسة لكل إنسان ، كما يمنحه هويته وشخصيته بحقوقها عند الميلاد . ويؤكد شعب بانياروانذا ، فى رواندا ، أن البيئة التى يحميها الإله لا تضرها الريح مهما تعاظمت .

وتتعدد وجهات نظر الإفريقيين فيما يتعلق بطبيعة هذا الإله الخالق . فهو مؤنث عند شعب إيجوس ، فى نيجيريا، ويدعونه تاماراو؛ وأيضا عند نوبى السودان إذ يدعونه « ماسالا» أى الأم الكبرى . بينما تراه شعوب عديدة مذكرًا وتعتبره الأب الأكبر.كما أنه ذو طبيعة مزدوجة ، أى ذكر وأنثى، عند آخرين [1] . والاعتقاد الخاص بهذا الكائن الأعلى الخالق تصور زنجى إفريقى صرف ، كان

(١)تقول الفلسفات الآسيوية إن الذكر والأنثى إن هما إلا وجهان لمبدأ واحد . فانقسام الحياة إلى أجناس حدث فى وقت لاحق . وبيولوجيا ، الأميبا ليست ذكرا أو أنثى . فالخلايا الأولى كانت مجرد خلايا . وقد انقسمت وصارت اثنتين بعملية تكاثر لاجنسية . ولهذا فمن غير المعقول (من السخف) الكلام عن الإله أنه من هذا الجنس أو ذاك . فالقوة الإلهية كانت سابقة على هذا التقسيم الجنسى .

وتقول الأسطورة الإندونيسية إن السلف فى البدء لم يتميزوا على أساس الجنس (مذكر وأنثى) . ولم تكن هناك مواليد أو أموات . ثم جرى احتفال راقص كبير ، سقط أثناءه واحد من المشتركين ، وداسته الأقدام حتى مات ، وتقطع إلى قطع كثيرة ، ودفنت القطع . وفى اللحظة التى حدث فيها الموت انفصل الجنس ، وصار هناك ذكر وأنثى . وصار الموت يتوازن بالإنجاب ، والإنجاب بالموت. بينما نبت من قطع الجسد المدفونة نباتات لطعام الإنسان .

موجودا من البدء فى مناطق إفريقيا الجنوبية ، وفى المناطق الاستوائية الداخلية ، ولادخل للمبشرين أو الإرساليات فيه . فهو الكاهن الأعلى ، أعظم القوى على الإطلاق ، الذى يملك القوة والحياة فى ذاته ، ومنه تنطلق الحياة والقوة نحو المخلوق .

وهناك من يمثل الدين الإفريقى بمثلث ، قمته الإله رأس كل قوة ، وعلى ضلعيه توجد القوى الأدنى منه وهى الآلهة والأسلاف ، وفى القاعدة توجد القوى الأدنى ، وهى الأرواح والجن والشياطين ، والتى يهتم بها السحر والطب التقليدى . أما الإنسان فهو فى وسط المثلث ، وعليه أن يعيش فى وفاق مع كل هذه القوى التى تؤثر فى حياته وأسرته وعمله ، عن طريق خلق علاقة متوازنة معها جميعا .

والعجيب أنه لا يوجد إلا معابد قليلة لهذا الكائن الأعلى [1] ، فى حين توجد معابد للآلهة الأدنى وللأسلاف . ويفسر الإفريقيون هذه الظاهرة بقولهم إنّ الإله أعظم من أن يحتويه مكان . وهذا يماثل ما قاله بولس الرسول « .. لا ***يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيادى*** » (أع ١٧ : ١٤) . وهم عموما لا يرون ضرورة حصر عبادة الله فى مكان أو أماكن معينة ، كما أنه لايوجد تمثيل لشخص الله ، فى محفورات أو تصويرات أو تماثيل ، فى معظم أنحاء إفريقيا السوداء . كما لا توجد له كهنة خاصة به . ومع أنّ الأساطير قد تشير إليه على أنه إنسان وله جسد ، أو له زوجة وأسرة ، فالكثير من أقوال وأمثال الأفارقة تشير إليه على إنه مجرد Abstract ، أوصيغة فلسفية ميتافيزيقية ، وهو علة كل

(١) تتميز قبائل الأشانتى ، فى غربى إفريقيا ، والكيكويو فى شرقها ، بأنها الوحيدة التى أقامت « للكائن الأعلى » المعابد والمذابح ، وعيّنت له الكهنة .

الأشياء ، يعرف ويرى كل شئ ، ويعمل ما يشاء . وهو العدل يكافئ الصالح ويعاقب الطالح . وهو محكمة الاستئناف العليا التى يستطيع أن يلجأ اليها أفقر وأحقر الناس . وهو الرحمة ، الأب والأم للإنسان والحيوان . ويرى بعض العلماء أن الفكر الإفريقى الخاص بطبيعة الله ، من جهة حقيقته ووحدته وصلاحه ، أقرب إلى الموقف العبرانى منه إلى اليونانى . فكما يؤمن العبرانيون أن « ***الرب فى هيكل قدسه الرب فى السماء كرسيه . عيناه تنظران أجفانه تمتحن بنى آدم..*** » (مز ١١ : ٤) ، هكذا آمن الأفارقة ، فهو بعيد فى السماء ومع ذلك فهو موجود وسطهم وقريب منهم . ويعتقد بعضهم أن السماء هى الله ، وهم يرفعون أيديهم نحو السماء ويتكلمون معه . ومن المأثور عن شعوب « إيسوكو وأرهوبو » ، فى دلتا نهر النيجر ، أنهم يزرعون شجرة طويلة فى فناء بيت العائلة ، سموها أوريس Orise ، ومن خلالها يوجهون رسائلهم إلى خالقهم ، وليس تحتها أو عليها رموز ما ، إذ هى ببساطة نوع من الاتصال التليفونى مع الله ، فرأس العائلة يتكلم من خلالها كل صباح .

ولا يوجد كائنات أعلى متعددة فى الديانات الإفريقية ، عكس ما حاول بعض العلماء أو المؤرخين الإيحاء به . ***فالكائن الأعلى واحد . هو الواحد ، وليس من يماثله . وإن كان الطريق إليه يتم من خلال كائنات مقدسة متعددة ، أوجدها هو كى تساعده فى إدارة نظام الخليقة . بعضها تجسيد لقوى الطبيعة ، وبعضها الآخر أبطال سلفية ممجّدة . أما لماذا يلجأون إليها ، وليس لله وحده ، فلأنهم يرون أنه لا ينبغى تجاهل أى قوة بإمكانها التأثير على حياتهم ، بما فى ذلك الأرواح الشريرة*** . فهم فى تعاملهم مع الجهات الرسمية ، على الأرض مثلا، إنما يتعاملون معها جميعا ، لا يمكنهم أن يغفلوا أحدا منها . وعند قبائل

(مندى) Mende بسيراليون أسطورة تتعلق بهذا الأمر :

ففى البداية لم يكن يصلى الناس ، لكنهم كانوا يأتون إلى الإله بشكاوى صغيرة . وفكر الإله فى طريقة يجعل بها الناس يعرفون إرادته ، فخلق جبلا، وأعطاه قدرة الكلام إلى الناس . وأعطى الناس القدرة على أن يحلموا . وفى ليلة رأى رجل عجوز فى حلمه الجبل قادما إليه فى صورة إنسان ، يطلب منه أن يذهب إلى زعيم القرية ليخبره أن يحضر طعاما إلى الجبل لأنه يريد أن يأكل . وذهب العجوز إلى الزعيم وأخبره بأمر الحلم . فاتفق أهل القرية على تقديم الطعام للجبل . ولكنهم قالوا للعجوز أن يطلب من الجبل مساعدتهم على اصطياد الحيوانات لتجهيز الطعام . فمضى العجوز مع أولاده والتقط ٢٠ حجرة فى طريقه . وعند بطن الجبل وضع قطع الحجر ، وطلب من الجبل أن يرتبها بحيث يبين عدد الحيوانات التى يريدها إن كان يرغب فعلا فى الطعام . وفى الصباح التالى ، عندما عاد العجوز ، وجد قطع الحجر موضوعة بترتيب خاص ، تسعة تواجه الجبل أى التى تهرب ، وعشرة تواجه العجوز أى التى تذبح ، وواحدة فى الوسط تبقى حية ليقدمها العجوز ذبيحة للجبل . وذهب الناس للصيد ونفذوا رغبات الجبل . وجمعوا من نسائهم الأرز والملح وزيت النخيل وحملوها مع اللحوم إلى الجبل ، وذُبح الحيوان الحى أمام الجبل . وأخيرا أخذ العجوز الحالم حبة جوز الكولا وكسرها نصفين أمام الجبل علامة على الصداقة، وطلب من الجبل أن يظهر إن كان قد قبل الطعام وقدّره . ثم قذف النصفين إلى أعلى ، ولما سقطا على الأرض كان الجزء الأبيض إلى أعلى علامة على القبول، وكررها أربع مرات وكانت النتيجة واحدة . وهكذا تعلم الناس أن يصلوا عند الجبال والصخور وعند الأشجار والأنهار أيضا .

والصلوات هى أوسع صور العبادة انتشاراً بين الشعوب الإفريقية التقليدية. وهى قد تكون يومية أو فى المناسبات ومصحوبة بتقديم الذبائح من الحيوانات (١) أو الطيور ، أو التقدمات مما لا يذبح ، أو لاتكون مصحوبة . ويشكّل الغناء والرقص والتصفيق جزءاً هاماً من عبادة معظم الشعوب الإفريقية . والطبلة هى الأكثر شيوعا ، وهناك أيضا الصنوج والنفير ، والأجراس والصفارات والأبواق ، وحديثا الجيتار .

ولا يشعر الناس أنهم مقيدون بمكان محدد ، أو رسمى ، للصلاة ، لأنهم يتوجهون إلى الإله فى أى مكان ، وفى أى وقت . ومع ذلك فهناك معابد ، ومذابح ، ومزارات ، وأغراس ، وغيرها من الأماكن المقدسة لدى بعض الشعوب ، يترددون عليها لرفع الصلوات وتقديم الذبائح خاصة فى المناسبات العامة . وهناك من يصلون تحت الشجر الكبير مثل شعب ماسونجو ، فى إثيوبيا ،وغيره . وأبناء شعب اليوروبا ، فى نيجيريا ، ليس لديهم معابد ، بل يتعبدون للإله فى الخلاء . ويرسم المتعبد دائرة بالرماد أو الطباشير ، مركزها رمز الأبدية ، يسكب عنده الماء ، كما يضع ثمرة «جوزة» من ثمار الكولا على قطعة قطن . ثم يقسّم «الجوزة» ، ويمسك بنصفيها على راحته ، ويبسط يديه ويصلى للإله ، ويقدم له « الجوزة » بأن يلقيها على الدائرة ، وقد يشفع ذلك بتقديم طائر أبيض كذبيحة . وفى مدينة Ile-Ife كاهن يقدم هذه الصلاة كل صباح نيابة عن الشعب .

(١) من الشعوب التى كانت تقدم ذبائح بشرية : أكامبا (طفل يدفن حيا) ، بارى ، وادو (رجل وامرأة لملك الموت) ، جاندا (تسعة رجال وتسع نساء لإلهة الماء ، شونا (طفل، ذكر عادة ، عمره عشر سنوات يحرق حيا) ، يوروبا (لإلهة الحديد) .

ومن عادة شعب « لوزى » ، قبل بذر البذار فى الحقول ، أن يجتمع عند شروق الشمس ، حول رئيسه الذى يقيم مذبحا من العصى والطين ، ويضع عليها صحنا ، يلقى فيه رب كل عائلة بعض البذور ، والفؤوس . ثم يركع الرئيس أمام المذبح ، مواجها الشرق ، ويضم يديه معاً ، ينحنى ، ثم يتطلع إلى أعلى ويبسط يديه ، ويتجه نحو اليمين فاليسار . ويكرر الوقوف والسجود ، ويكرر الشعب حركاته . وفى النهاية يصلى الرئيس نيابة عن الشعب . ويخاطب الإله باعتباره خالق كل الأشياء . ويكرر الاعتراف بأن الناس لاحول لهم ولاقوة ، ولكنه هو القادر . ويطلب منه أن يبارك ما قدموه ، ويبارك الشعب حتى يتمكن بفضل قوته من أن يجيد البذار والزرع . ثم يبوق بالبوق ، ويردد الشعب التحية الملكية ، وينحنى مرات كثيرة ويصفق . وهكذا يتأهل للزراعة .

وهناك صلوات صباحية ، مثل صلاة عجائز « الأبالويا » . فهن يستيقظن كل صباح ، ويتجهن صوب الشرق ، ويركعن ، ويصلين للإله ، «ويبصقن» سائلين أن يدع اليوم يشرق حسنا ، وأن « يبصق » دواءه على الناس كى يتمكنوا من السير حسنا . ولهن صلاة صباحية أخرى تقول :

أيتها الشمس
وأنت تشرقين فى الشرق بقيادة الإله
إغسلى كل الشرور التى فكرت فيها أثناء الليل
باركينى ، حتى لا يقتلنى أعدائى ، أو يقتلوا عائلتى
أرشدينى أثناء عملى الشاق
وأعطينى اليوم كل الحظوظ .

وشعب نشاجًا يجتمع للصلاة فى يوم السوق . ويقدم ذبائحه عند الظهر

عادة . ويتجه صوب جبل كلمنجارو الشاهق الذى تتوجه الثلوج ، وحيث يعيش عند بطنه ، ويردد هذه الصلاة :

نحن نعرفك ، أيها الإله ، الحافظ الرئيسى
نحمدك ، ونصلى إليك ، وننطرح أمامك
أيها الرئيس ، تقبّل هذا الثور الذى لاسمك
أشفه لمن وهبته ولأولاده
أبذر معنا بذرة الذرية
حتى نتوالد مثل النحل
الآن ، أيها الرئيس ، الحافظ ، بارك كل مالنا

ووجود الكهنة مألوف بين بضعة شعوب إفريقية . بعضهم يتم تدريبهم جيدا . ويسود اعتقاد أن الكهنة يدعوْن من الإله . وأن الكهنوت يبدأ بدعوة الإله لرجل فى حلم ليقدم الذبائح . وفى العادة لا يسمح للكهنة باحتساء الخمر وعليهم أن يتحفظوا فى علاقاتهم الجنسية ، ويمتنعوا عنها قبل وبعد الخدمة لبضعة أيام . وإلى جانب الكاهن يوجد النبى أو الرائى ووسيط الوحى ، « وجالب المطر » ، الذى يقوم بمهمته بالتشاور مع الإله ، من خلال الصلاة ، وتقديم الذبائح . واحتفال « جلب المطر » (الإستسقاء) يعتبر أهم الطقوس الدينية عند بعض الشعوب مثل شعب « مادى » .

منشأ الموت

هناك أساطير متعددة عن « قدوم » أو دخول الموت إلى العالم . فالتصور الإفريقى يرى أن الموت أمر غير طبيعى ، أى أنه لم يكن موجودا فى البداية .

ويُنسب منشأه إلى غلطة ارتكبها فى الغالب حيوان ، هو الكلب أو الحرباء ، أو الإنسان نفسه .

وتقول أسطورة قبائل « كونو » ، فى سيراليون إنه فى الأيام القديمة كان يوجد الرجل الأول والمرأة الأولى والطفل الذى ولد لهما . وقد أخبرهم الكائن الأعلى أنهم لن يموتوا ، فحين يتقدمون فى العمر سيكون لهم جلد جديد . وحزم «الإله» جلودهم الجديدة فى حزمة وسلمها للكلب ليوصلها إليهم . وفى طريقه مر الكلب ببعض الحيوانات يحتفلون بأكل الأرز والقرع العسلى . ولما دعوه انضم إليهم ليأكل . ولما سألوه عما بالحزمة أخبرهم بالحقيقة . سمعه الثعبان فتسلل وسرق حزمة الجلود ، واقتسمها مع غيره من الثعابين . ومضى الكلب واعترف للرجل والمرأة بسرقة الجلود . وتوجها مباشرة إلى الإله ، ولكن الوقت كان قد فات . احتفظ الثعبان بالجلد ومات الإنسان .

أما « الدنكا » فيقولون إن الناس يموتون لأنه لا يوجد مكان كاف لهم جميعا . فالخالق بعد ما خلق الإنسان الأول وأطفاله ، قال لهم إنهم سيموتون ولكنهم سيعودون بعد ١٥ يوما . إعترض الرجل الأول ولم يوافق بحجة أنه لو عاد وأطفاله لن يجدوا مكانا لبناء سكن لهم ، أو أرضا يزرعونها .

وأسطورة بورتندى تؤكد أن الموت فى البدء لم يكن معروفا . كان «الإله» وقتها يقيم على الأرض ، وكان يطارد الموت كلما ظهر . وفى إحدى المطاردات، قابل الموت إمرأة ورجاها أن تخبئه ، ووعدها أن يخبئها هى وعائلتها . ففتحت المرأة فمها ودخل فيه واختبأ . ولما لحق بها الإله سألها إن كانت رأت الموت . فأنكرت . ولكن الإله الذى يرى كل شئ عرف ما حدث . وقال للمرأة

إن الموت سيلحقها وكل من لها ما دامت خبأته وكذبت . ودخل الموت منذ ذلك الوقت .

ولقبائل « إيلا » بزامبيا قصة مختلفة ، تقول إن الإله طلب من الرجل الأول والمرأة الأولى أن يختارا حقيبة من إثنتين ، تحتوى إحداهما الحياة والأخرى الموت . واختار الغبيان الحقيبة التى لها نور لامع وكان الموت فيها . وبعد أيام قليلة مات واحد من أولادهما . على أن الإله أعطى الوالدين فرصة أخرى . وعندما التمسا منه إعادة طفلهما إلى الحياة ، وعدهما بذلك إذا امتنعا عن الطعام ثلاثة أيام . ولكنهما جاعا جدا ولم يتحملا الصيام ، وتناولا بعض الطعام. وهكذا دخل الموت إلى الجنس البشرى .

وفى مالاجاش تقول الأسطورة إنه كانت للإله بنت إسمها الأرض ، وكانت تلعب وتصنع شخوصا من الطين . ويوما رأى الإله هذه الشخوص أو « المانيكانات » فأبدى إهتمامه بها ؛ ونفخ فيها فدبت فيها الحياة ، وطلب من الأرض أن تدعوها « فيلو » أى الأحياء . وتكاثر الناس ، وزرعوا الأرض فازدهرت وأغتنت . ويوما رأى الإله هذا فاندهش ، وربما غار مما رأى . فطلب من الأرض أن تعطيه نصف الناس . ولكنها تضرعت له لأنها لا تستطيع أن تنفصل عنهم رغم أن كل شئ هو ملك له . فغضب الإله وهدد بأن يسحب نفخة الحياة التى نفخها فيهم ، ونفذ تهديده .

وأسطورة قبائل بوجندا تدور حول الرجل الأول « كينتو » وزوجته السماوية « نامبى » . فبينما كانا يغادران السماء أنذرهما جولو (الإله) أن يسرعا لأن الموت يريد أن يذهب معهما . ونصحهما أنهما إذا كانا قد نسيا شيئا

فلا ينبغى أن يعودا لأجله . وانطلقا إلى الأرض ومعهما بقرة ومعزة وشاة وطائر وشتلة زرع . فى الطريق قالت « نامبى » إنها نسيت الحبوب للطائر وعليها أن تعود لإحضارها . حاول « كينتو » أن يثنيها ويذكّرها بوصية « جولو » ، ولكنها أصرت ومضت لإحضارها . وفى عودتها حاولت أن تمضى خلسة فى طريقها ، ولكن أخاها « الموت » تتبعها . وغضب « كينتو » لمجئ الموت . ولما بلغا الأرض زرعت الزوجة حديقة ، وعاشت سيدة مع زوجها ، وأنجبت أولادا . وفى يوم طلب الموت من « كينتو » أن يعطيه أحد أبنائه ليعمل عنده طباخا ، فرفض قائلا إن « جولو » سيغضب لو عرف أن أحد أبنائه طباخ للموت . وكرر الموت طلبه وهدد بقتل الإبن . وفعلا مرض الصبى ومات . وحدث الشئ ذاته لبقية الأولاد . ولما ذهب « كينتو » إلى « جولو » يشتكى ، ذكره بوصيته وعدم تنفيذ إمرأته لها .

ويقول شيلوك أعالى النيل فى السودان ، إنه فى البدء عاش الناس فى أرض الله ، ولكنهم أكلوا فاكهة فسقطوا مرضى ، ولهذا طردهم الله من أرضه . وهذه الأسطورة مع قربها من قصة التوراة عن سقوط الإنسان ، فهى إفريقية الأصل وقديمة العهد .

وتروى أسطورة البامبوتى ، فى الكونغو ، أنه عندما خلق الإله الإنسان الأول ، أعطى له ولأولاده أمرا واحدا « يمكنكم أن تأكلوا من كل شجر الغابة ، ما عدا شجرة التاهو » . وعلّم الإنسان أولاده الكثيرين وصية الإله . ورجع فيما بعد إلى الإله فى السماء . فى يوم اشتهت إمرأة حامل ثمرة « التاهو » ، وطلبت من زوجها أن يحضرها لها ،ولكنه رفض . فلما ألحت عليه خرج يفتش عنها فى الغابة فى الخفاء . ولما وجدها قطفها ، وقشرها بسرعة ، وأخفى القشر وسط

الأعشاب حتى لا يكتشفه أحد . ولكن القمر رآه وأخبر الإله كيف أن الشعب عصاه وأكل من الثمرة الممنوعة . فغضب الإله وأرسل إليه الموت عقابا .

وتقول رواية شعب « بانيارواندا » فى رواندا ، إن الإله أمر الناس أن يمكثوا فى بيوتهم حتى لا يتمكن الموت ، المتجسد فى حيوان ، من الحصول على مخبأ له بينما الإله يطارده . لكن إمرأة ، كانت تعمل فى بستان الموز ، عطفت عليه وخبأته تحت الجونلة حين استعطفها لتحميه . ولما رأى الإله ما حدث، عاقب الناس بأن جعلهم يحفظون الموت وسطهم .

وواضح أنه العنصر المشترك فى هذه الأساطير الإفريقية وغيرها أن الموت دخل إلى عالم الإنسان بسبب عدم طاعته أو إخلاله بتعليمات خالقه . وهذه الرؤية تتفق مع عقيدة الديانات الكتابية الكبرى .

الحياة بعد الموت [1]

تنطوى الديانات الإفريقية على اعتقاد قوى فى الحياة بعد الموت .

---

(١) آمن المصرى القديم بوجود عالم آخر يتصف بالخلود ، مقابل العالم الأرضى الزائل . فكان الاعتقاد فى الخلود أس الديانة المصرية ولبها . ولايوجد شعب قديم أو حديث – كما يقول سيد عويس – بين شعوب العالم ، احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت ، المكانة العظيمة التى احتلتها فى الشعب المصرى . ولقد بدأ الاعتقاد ساذجا بوجود عالم سفلى للأموات يبقون فيه ،أو بوجودهم على شكل « أطياف » فى عالم تحت الأرض . وكان سبب الموت ، فى نظرهم ، هو مفارقة القوة التى يمنحها له «رع» عند ميلاده ، واسمها « كا » والتى كان فيها سر حياته . وحتى بداية الأسرة الخامسة كان الخلود قاصراً على الملوك باعتبارهم آلهة ، يملكون الطبيعة الخالدة . وبعد ظهورعقيدة الإله أوزيريس ، إله العالم الآخر ، صار الخلود من حق الجميع ، لأن من يؤمن به ينال الـ «با» ، أو الطبيعة الإلهية ، ويصير خالدا مثل أوزيريس .

فالشعوب الإفريقية ، دون استثناء ، تؤمن أن الموت لا يقضى على الحياة ، وأن المتوفى يواصلون وجودهم فى العالم الآخر ، وإن اختلفت حول طول مدة تواجدهم . فبعضها يعتقد أن الإنسان يواصل وجوده طالما تذكره الذين يعرفونه على الأرض ، أى ما يعادل أربعة أو خمسة أجيال ، بعدها ينتهى إلى النسيان . على أن الأبطال ، ومؤسسى العشائر ، والشخصيات الشهيرة من الرجال والنساء تستمر ذكراهم مدة أطول . ويعتقد بعض الشعوب أن « الأموات / الأحياء » يعيشون خارج نطاق الذاكرة الإنسانية ، ويندمجون فى مجموعة أرواح بعضها كانت بشرية ، والبعض الآخر من أصول مختلفة . كما يعتقد أن عالم الأرواح أشبه بأرض الأحلام ، أو بقرى روحية يعيش فيها الموتى / الأحياء ، وتشرق فيه الشمس دائما ، وإن كانت فئة تتصور أنها أرض مظلمة موحشة .

ويبالغ البعض فيعتقد أن الفرد بعد موته تظل روحه باقية فيه ، ومن ثم يحمل الأحياء إلى الجثة ، ويحاولون تحريكها من مكانها وإطعامها .

ويظل الاعتقاد السائد بين الشعوب الإفريقية هو أن الأرواح على اتصال مستمر بأقربائهم الأحياء ، فالأسلاف مازالوا أحياء ، وهم مرتبطون بأراضى قبائلهم ، ويقومون بزيارة ذويهم خاصة بعد منتصف الليل . ويمكن استشارتهم فى أمور الحياة اليومية عن طريق وسيط بشرى . وهم بإمكانهم التأثير على حياتهم ، سواء بالخير أو الشر ، لهذا يسترضونهم بإجراء طقوس خاصة وتقديم الذبائح . أما الأسلاف من الزعماء أو القادة فيمتد تأثيرهم إلى مصير أمم بأسرها .

وفى إطار هذا الاعتقاد تختلف بعض التفاصيل الخاصة بطبيعة أرواح هؤلاء الأسلاف ، وأماكن تواجدها ، وسبل الاتصال بها والتعامل ، ألقابها وقدراتها .

وذلك من قبيلة إلى أخرى . فقبيلة البودجا ، فى زيمبابوى ، تعتقد أن الإنسان حين يموت تتحول نفسه إلى روح ، وتحيا حياة جماعية مع زمرة الأرواح . ويضيف إلى ذلك قبائل اللوزى والبيلديمو ، فى زامبيا ، أن الإنسان بموته يحظى بمركز أكثر قوة فى مجتمع الأحياء ، خاصة إذا كان من أصل ملكى . ولأنهم يعتقدون أن الملوك والأمراء أنصاف آلهة ، فهؤلاء بعد موتهم يصبحون أكثر قوة وقدرة على حماية شعوبهم ، إذ يقفون معهم ضد أعدائهم ، ويعطونهم المطر فى حينه . أما قبائل بمبا وأمبو ، فى زامبيا أيضا ، فتدفن مع الموتى متعلقاتهم المهمة لتكون قريبة منهم إذا ما احتاجوا إليها فى العالم الآخر ، وقد يدفنون مع الميت ديكا ليصيح له كل صباح ، أو كلبا للرفقة . ويدفن غيرها من القبائل الطعام والشراب والأسلحة والأدوات التى تجهز الميت للرحلة ، والتى تساعده على الاستقرار ، عند بداية حياته فى العالم الآخر .

ويعتقد الباتشاوا ، فى الكونغو ، أن نفس الإنسان شئ مرئى صغير صغر إنسان العين حيث يمكن رؤيتهما . وعند الموت تنكسر العين وتغادر النفس الجسد . وإن كان غيرهم يعتقد أن النفس تغادر الجسد من الأنف ، ويحملها النحل أو الذباب إلى الإله . ويقول النوير إن الإله (يسترد) الحياة بواسطة وكلاء مثل الحوادث الطبيعية ، والرماح ، والحيوانات المفترسة ، والأرواح وغيرها . وهو أيضا يأخذ أنفس الموتى من خلال البرق ، كى تسكن معه ، وتكون بمثابة حماية لأقاربها . وعندما تموت فتاة لم تتزوج ، عند شعب لو Luo الكينى ، اعتبروها من الحظ السئ ، وتدفن خارج منطقة السكن ، حيث لا مكان لها فى نطاق بيتها . وإذا كانت عذراء قضت عجوز بكارتها قبل دفنها ، حتى لا تعود

روحها بسبب مشاكل في بيتها .

وفي غانا ، تعتقد قبائل « جا » أن لكل إنسان نفسا وروحا ، والروح هي التي تبقى عليه حياً . وحين تفارقه يموت وتتحول نفسه إلى شبح ، أو « سيسا » يمضي ليحيا في عالم الأشباح . أما بربكا السودان فيؤمنون أن داخل كل إنسان يوجد « أتيب » بمعنى نفس أو روح . وعندما يموت تقفز الأتيب من جسده ، وتبقى بجوار البيت أو المقبرة لا تبرحها إلا بعد تأدية طقوس معينة لها . فتغادر المكان وتنضم إلى مدينة الأرواح والتي يسمونها جوك Gok . وتعتقد قبائل « بايا » في موزمبيق وملاوي وتنزانيا ، أن كل إنسان له « ليسوكا » وهي ما تعادل النفس ، لها تأثير مدمر على الأحياء إذا لم يقربوا التقدمات اللازمة ، حسب طقوسهم ، للإبقاء على صلات حميمة معها .

ويؤمن الشجا Chagga ، في تنزانيا ، أن الرحلة إلى العالم الآخر طويلة ومرهقة . إذ تسافر النفس عبر منطقة صحراوية ، حيث الشمس محرقة ، في رحلة ثمانية أيام . وفي اليوم التاسع تصل عند مدخل مقر إقامة الروح الأكبر . ولا يسمح لها الحارس بالدخول حتى يكون جلدها قد لمع « نور » الدخول . ويجرى إعداد النفس لهذه الرحلة الشاقة بدهن الجثة بشحم الحيوان، وسكب اللبن والشحم في فمها ، ولفها في جلد لحماية النفس من حرارة الشمس . ويضحى ثورا يعجل لجد الميت ، ويرجونه أن يساعد القادم الجديد . أما شعب لوداجا ، في غانا ، فيعتقد أن أرض الراحلين تقع في الغرب ، ويفصلها نهر الموت. وبعد الموت مباشرة ، تعيش النفس وتتجول فوق قمم الأشجار لفترة . وبعد

ما تتم مراسم الدفن النهائية تبدأ النفس رحلتها . وفي الطريق تقابلها المرأة ذات الثدي الواحد ، والتي تعرف أيضاً « بطفل الإله » ، كي تساعدها . وتنتقل عبر النهر لقاء بعض الودع يقدمه الأصدقاء أثناء الجنازة . والعبور مشقة تتوقف على نوع الحياة التي عاشها الميت . فالصالح يعبر بسهولة . أما الطالح فيسقط من المركب ، ويظل يسبح ثلاث سنوات في عناء جائعا. أما اللصوص والمدينون والسحرة وأمثالهم فينتظرون عند النهر ، حتى يموت الناس الذين أساءوا إليهم ، ويصلوا إلى ضفة النهر ، ويتم تعويضهم !

وعند شعب لوداجا ، في غانا ، أسطورة مماثلة . فالإنسان ، بعد الموت مباشرة ، يتحول إلى شبح يتجول لفترة ، عائشا أعلى الأشجار ، ومحتفظا بحقوقه فيما كان له من الأملاك والمركز والنساء . وأخيرا يتحول الشبح إلى روح ، ويتنازل عن كل حقوقه ماعدا ما يرتبط بأبنائه . ومن ثم تسافر الروح إلى أرض المتنقلين . وما أن تصل حتى تخضعها الأرواح الأكبر سنا للمشقات . وتتوقف شدتها على نوعية حياة الإنسان على الأرض . فالصالح يحيا سعيدا وفي راحة كبيرة . أما الطالح فيعاني المشقات . ولكن في النهاية يطلقه الإله حراً . وتصبح حياته أسهل. وهم يشيرون إلى العالم الآخر « بأرض قطع الأخشاب » كناية عن المتاعب التي على المتنقلين الجدد معاناتها .

ولا يؤمن الإفريقيون بقيامة الأموات على نحو إيمان المسيحيين بها . وهم عموما لا يتوقعون أي شكل من أشكال القيامة ، الفردية أو الجماعية ، بعد الموت. فليس لدى الإنسان الإفريقي رجاء أو وعد في أن يقوم مرة أخرى . فقد فقد هذه العطية في فترة القطرة الأولى ، وليس لديه وسيلة لاستعادتها . ولعل

هذا ينسجم مع قناعته التامة بأن أمواته ليسوا أمواتا ، بل هم أحياء [1] ، وأن لهم أدوارا محددة يقومون بها فى مجتمع الأحياء ، يستفيد منها هؤلاء الأحياء بالدرجة الأولى ، فى مواجهة الحياة بمشاكلها ومتطلباتها ، وهى الحياة التى تحتل جل اهتمامهم .

---

(١) تربط فلسفة الإفريقى بين الحياة والموت معا . وهو لا ينظر إلى الموت بخوف ، أو يعتبره مصيبة . فهو أمر محتوم أو ضرورى ، ينظر إليه باحترام مثلما ينظر إلى الولادة والحياة . وهو يؤمن أن فى أعماق الإنسان يوجد « إنسان آخر » لاتراه العين ، ويقابل الروح عندنا . وهو يفرق بين الـ «بوزيما» وهى وحدة بيولوجية بين الجسد والظل (ظله) ، والـ «ماجارا» وهو شئ روحى يمتزج بالبوزيما ، ويتميز به الإنسان عن الحيوان . فعندما يموت الإنسان تنتهى فيه البوزيما ، أما الماجارا فهى لاتموت بل تبقى . ومع أن الإنسان لا «يعيش» بعد الموت ، إلا أنه يظل «باقيا» فى كل شئ ، فى كل مكان ، أى يبقى كقوى روحية ، ويبقى على اتصال مع سلالته الذين خرجوا من صلبه ، إذ يدع «قوة الحياة» فيه تعمل فى هذه السلالة . فالحى عنده الرغبة الداخلية القوية للبقاء إلى الأبد . ولكن لما كان الموت لامفر منه فهو يورث سلالته بقاءه . وهذا هو الخلود . فإذا لم تكن له سلالة من صلبه مات «تماما» . ولاصلة لهذا الفكر بتناسخ الأرواح ، لأن الأمر هنا لايتعدى مجرد «قوة» وقدرة على استمرارية الحياة يمنحها الأسلاف لسلالاتهم . وليس هنا انتقال للروح فى دائرة مستمرة من جسد إلى آخر كما تقول البوذية مثلا .

والماجارا ، التى هى الصلة الوثيقة بين الموت والحياة ، هى أيضا من خصائص الفكر الإفريقى . والإفريقى يصف إفريقيا بالأرض التى يعيش فيها أقرباؤه من الرجال والملوك الموتى . ويقول الشاعر السنغالى بيرجوا ديوب :

هؤلاء الذيـــن ماتـــــوا لن يذهـــبوا أبـــدا
إنهـــم هنــــاك فـــى الظلال الكثيـــفة
إن الموتـــــى ليســـــوا فـــى باطـــن الأرض
إنهـــم فــــى الأشجـــار التى تهـــتز
فـــى الميـــاه التـــى تجرى ، والتى تسكن
فـــى الكـــوخ ، فـــى وسط الجماهـــير
إن الموتـــــى ليســــوا موتـــــــى !

والأسرة فى تصور الإفريقى ، تضم الأحياء ، والذين لم يولدوا بعد ، والأعداد الغفيرة من الذين رحلوا . وهناك إتصال مستمر بين الأحياء والأموات. فأرواح الأسلاف تستشار دائما فى الأمور المهمة . وحكمتها وخبرتها السابقة تفيد الأحياء . وهى أيضا حلقات الاتصال بالإله . فلأنه روح أسمى وأعلى لا يجب الاتصال به مباشرة ، بل عن طريق هذه الأرواح التى هى أقرب إليه فى «العمر» والخبرة واللغة ! وهى أيضا قادرة على التخاطب بلغة الروح وبلغة البشر . ثم لأنها عاشت على الأرض ، واختبرت أحوالها المختلفة فبإمكانها أن تخاطب الإله عن خبرة، وتعبر عن حاجة الأحياء بوضوح . ولهذا ، فكل الصلوات والطلبات والذبائح التى يقدمها الإفريقى إلى الإله إنما يقدمها عن طريق هذه الأرواح . فشعب الدنكا يبدأون صلواتهم بقولهم « أيها الإله والأسلاف » وشعب كوراما يلقبون المتقلين « أذن الإله » ، وشفاعتهم ووساطتهم لا حدود لها ، وكثيرا ما يستخدمهم الإله ذاته فى نقل رسائل إلى الأحياء .

وهذا التواصل المستمر بين الأحياء والأموات يفرض على الإفريقيين أن يشركوا الأرواح فى طعامهم وشرابهم ، وفى التدخين أيضا . وهذه المشاركة قد تأخذ طابعا بسيطا عفويا ، مثل إلقاء كسرة خبز أو نقطة بيرة على الأرض ، كهدية للأرواح قبل تناول الطعام أو الشراب . وقد تتم بصورة مراسم طقسية ، تتضمن سكب النبيذ أو الزيت على الأرض ، أو تقديم الطعام أو الذبائح الحيوانية، فى مناطق معينة وفى مناسبات خاصة . ولا يعتبر الإفريقيون هذه التصرفات نوعا من العبادة ، كما قد يتراءى لغير الإفريقيين ، ولكنها رموز للمشاركة وللشركة وللذكرى ، وتعبير عن الاحترام والتقدير .

خلق الأرض [1]

تناولت الأساطير قصة خلق الأرض ، والإنسان الأول ، وكيف ترك الله العالم وابتعد عنه بسبب خطية الإنسان . والأساطير الإفريقية قد جرى تناقلها بالرواية لغياب فن الكتابة ، وبهذا الأسلوب حفظت حتى تم تسجيلها . ومعظم الأساطير تروى كيف تكوّن شئ ما ، أو جاء إلى الوجود ، كما تتحدث عن القوى الخارقة ، وعن الآلهة ، وعن الأبطال والجدود . وهى فى الغالب قصص انتجها خيال الإنسان الخصب ، ومعظمها يعبر عن معتقدات جادة خاصة بالإنسان والله والأبدية ، وإن بدا بعضها صبيانيا . ومع أنه لا يفترض أخذها حرفيا، فالواجب أن تؤخذ بجدية من أجل فهم فلسفة وتفكير القدماء ، واكتشاف القيم التى تمسكت بها مجتمعاتهم ، والوقوف على صور من أعماق الطبيعة البشرية وأسرارها . ويعتبر جون فانسينا من أهم الذين وضعوا أسس دراسة

(١) صدر عن مدينة «أون» المقدسة ، فى مصر القديمة ، أقدم سفر «للتكوين» يفسر الوجود ونشأته : فى البدء كان «نون» وجودا وحيدا فى الكون . وكان «نون» محيطا أزليا مظلما، ومنه خرج إله الشمس «رع أتوم» بقدرته الذاتية دون معين ، لأنه كان هو كل شئ فى الوجود .. أوجد العالم من نفسه وذاته . ومن هذه الذات الإلهية جاء الهواء والندى اللازمين لوجود الكون وحياة الكائنات . وبالتقائهما تكوّن التراب ، أو الأرض «جب» التى فتقها الهواء الى طبقتين ، رفع أحدهما لتكون سماءً «نوت» ، وهى التى تمثل بإمرأة منحنية فوق الأرض . ونشأت نتيجة للتفاعل بين عناصر الكون أربعة آلهة من البشر هم : أوزير ، وإيزى ، وست ، ونفتيس، مهمتهم إنجاب الذرية ، لتعمير الأرض بالبشرية .

أما «منف» المدينة المقدسة (المنافسة لأون) ، فقد نسبت خلق الوجود وما احتواه إلى «بتاح» الذى أوجد نفسه بنفسه ،وأبدع الكون ومعبوداته وناسه وحيوانه وديدانه ، عن قصد منه ورغبة ، وذلك بفكره . فكان سبيله إلى الخلق هو الفكر والكلمة . فكانت كل الأشياء فى علم الخالق «بتاح» قبل أن يخلقها. وبعد الخلق استراح .

هذه الأساطير والذى عرف بالهستوريوجرافى Historiography

وعن خلق الأرض يقول شعب يوروبا (بنيجيريا) ، إن الأرض كانت فى البدء مستنقعات ومغمورة بالماء ، خربة وخالية . وكانت الآلهة تنزل إليها على خيوط العنكبوت للعب أحيانا . ولم يكن هناك إنسان لعدم وجود أرض يابسة له. ويوما ما دعا الكائن الأعلى ، «الأورون » ، الإله الكبير وقال له إنه يريد أن يخلق أرضا ثابتة وأعطاه صدفة (محارة) بها تراب ، وحمامة ودجاجة . فأفرغ التراب من الصدفة فى بقعة صغيرة ، ووضع الحمامة والدجاجة على التراب ، فاخذا ينكشان التراب حتى تغطت معظم المستنقعات وتكونت اليابسة . وعندما عاد الإله الكبير ليقدم تقريرا للكائن الأعلى ، أرسل الكائن الأعلى حرباية للتفتيش على العمل . وبعد المعاينة الأولى بلغت أن الأرض واسعة ولكنها ليست جافة بكفاية . ثم أُرسلت ثانية للتفتيش فعادت لتؤكد أن الأرض أصبحت جافة وواسعة. وسمّى المكان الذى بدأ منه الخلق «أيف» أى واسع ، وفيما بعد أضيفت إليه كلمة Ilé أى بيت ، لتشير إلى أنه البيت الذى منه نشأت كل المساكن الأرضية . ومنذ ذلك الوقت صارت Ilé-Ife أقدس مدينة عند شعب اليوروبا . وقد تمت خلقة الأرض فى أربعة أيام ، وخصص اليوم الخامس لعبادة الإله الكبير . ثم أرسل الكائن الأعلى الخالق الإله الكبير إلى الأرض ثانية ليزرع شجرا يعطى للناس غذاءً وثروةً ، وأعطاه نواة شجرة زيت النخيل ، فزرعها وزرع ثلاث شجرات عادية أخرى ، ثم سقط المطر ليرويها . وتم خلق أوائل الناس فى السماء ، ثم أنزلوا إلى الأرض . وقد أُسند جزء من الخلق للإله الكبير ، فكان يصنعهم من تراب الأرض ويشكّل ملامحهم الجسدية ، ولكن منْح الحياة لهذه الأجساد كان من اختصاص الكائن الأعلى الخالق .

وفى أسطورة الخلق عند شعوب «الدوجون» ، فى حوض النيجر ، نجد الإله هو الذى خلق الأرض كإمرأة ، وتزوجها البشر ، وبذرته «كائنة» فى الماء والنار والدماء والكلمة .

وللحية أو الثعبان مكان مهم فى القصص الخاصة بخلق الأرض . فهناك أسطورة تقول إنه فى البدء وجد الثعبان مياها آسنة على الأرض ، ففتح ممرات لمجارى المياه ، وقنوات للأنهار ، وهكذا حصل العالم على الحياة . وعندما حمل الثعبان الإله الخالق فى طول العالم وعرضه ، ظهرت الجبال فى كل مكان توقفا فيه . وفى رواية أخرى ، إن الخالق جعل الثعبان يلف جسمه ويضع ذيله فى فمه، ليكون بمثابة حلقة ليسند الأرض حتى لا تغوص بأحمالها فى المحيط . ويحدث أنه عندما يغير الثعبان وضعه من وقت لآخر تقع الزلازل . وقد أمر الخالق القرود البحرية لتطعمه بقضبان من الحديد ، وكان الخوف أنه لو توقفت القرود عن إطعامه فسيضطر الثعبان أن يأكل ذيله ، وحينئذ تكون نهاية العالم .

أما شعب الفون فيقول إنه حينما خُلق العالم ، ضم الثعبان الأرض معا بلفات أو تكورات جسده ، وأعطى للناس مكانا يعيشون فيه . وهو ما زال يدّعم العالم ، ولا يجب أن يفك لفته حتى لا ينهار كل شئ. ويقال إن هناك ٣٥٠٠ لفة حول الأرض من فوق ومثلها حولها من تحت . وفى رواية أخرى أن الثعبان أقام أربعة أعمدة فى الجهات الأربع الأصلية ليرفع السماء ، ولف جسمه حول الأعمدة ليبقيها منتصبة . أما الألوان الثلاثة الأساسية ، الأسود والأبيض والأحمر، فهى الملابس التى يرتديها الثعبان فى الليل والنهار والغسق ، وهى ملتفة حول الأعمدة السماوية .

وهناك ثمرة تشبه القرع العسلى فى تكوره أو استدارته ، وقشرتها قوية، تسمى «كالاباش» . وفى داهومى يعتقدون أن الكون كرة مستديرة مثل كالاباش، وأن الأفق هو خط التقاء حافتى نصفى الكالاباش . أما الأرض فمنبسطة عائمة فى الكرة الواسعة ، مثلما تعوم الكالاباش الصغيرة فى أخرى كبيرة . والكرة مملوءة ماءً ، فالماء يحيط بالأرض من فوق ومن تحت . أما الشمس والقمر والنجوم فتتحرك فى نصف الكرة (الكالاباش) الأعلى. وعندما خلق الإله كل شئ ، كان همه الأول هو جمع الأرض معا ، وتثبيت تخوم الماء ، وقد لف ثعبان مقدس جسمه حول الأرض لضمها معاً وحفظها راسخة . ويحمل الثعبان الإله هنا وهناك ، مثبتا النظام ومدعما جميع الأشياء بحركته الأساسية. فالثعبان فى الأساطير رمز للحركة الدائبة . فهو مغمور فى المياه تحت الأرض ، ويسكن فى المحيط ، وهكذا يمثل القوة الأعظم فى الحركة التى لا تتوقف . وطياته ليست ثابتة بل تدور حول الأرض وتدفع الأجرام السماوية إلى الحركة.

وترتبط **الأرض** بالعقائد الدينية الإفريقية إرتباطا وثيقا. والطقوس المتصلة بها تلمس نواحى عدة فى الثقافة الإفريقية . فالأرض ، بالنسبة للإفريقى ليست مكان سكن أو تربة لانتاج الطعام وحسب ، بل إنها واحدة من القيم الدينية ، والصلة بينها وبين الإنسان صلة عميقة صوفية الطابع، تلعب فيها عقيدة الأسلاف دورا بارزا ، والأسلاف الراقدون فى بطنها هم محور هذه الصلة التى لا تنفصم . وحين يهاجر الإفريقى إلى إقليم غير إقليمه ، يقوم بتقديم القرابين للآلهة التى تسيطر على الإقليم الجديد ، كائنا من كانوا ، ويقدس ذكرى السكان الأقدمين الذين كانوا يعيشون قبله على الأرض الجديدة ، ويعترف بهم أسلافا له ، ويتقرب إليهم بالقرابين والذبائح . وهذا ما فعله الإفريقيون الذين أُخذوا عبيدا إلى أمريكا . إذ كانوا يقدمون الذبائح للأرض والنهر ، حيثما

يحلّون، باسم الهنود الحمر والأمريكيين الذين رقدوا ، سواءً الذين عرفوهم أو سبقوهم فى امتلاك الأرض .

ويعلق « جومو كينياتا » ، زعيم كينيا السابق ، على هذه العلاقة بتأكيده أن الأرض عند « الكيكيو » هى أم القبيلة ، ترابها يطعم الأطفال عبر الحياة ، وبعد الممات تبقيهم فى رضاعتها أرواحا خالدة لاتفنى . والاتصال بالأسلاف ، ذخيرة القبيلة ، لا يمكن أن يتم إلا عن طريق الأرض حيث يرقدون من قديم الزمن . ولهذا فالأرض أقدس من أى شئ فوقها أو فى جوفها .[1]

وتقدم قبيلة سوسو ، فى غينيا ، مبدأ فريدا يتعلق بملكية الأرض ، ما زالت تمارسه ، ومضمونه أنه « لايملك فرد من الأفراد إلا ما يصنعه بيديه ، والأرض ليست من صنع أحد ولها مكانة أخرى . فما صنعها إنسان ، أو جماعة من الناس حتى حين بدأت الأشياء تتشكل فى الكون . الأرض صانعة نفسها . لا يملكها أحد ، ولا تنتقل من يد إلى يد ، الأرض تملك نفسها » !

الإنسان الأول

تتنوع الأساطير الخاصة بالإنسان الأول . فشعوب إفريقيا لها أساطيرها وتقاليدها الخاصة بأسلافها الأولين ، أو بالإنسان الأول . ووفقا للكثير من قصص

(١) ويتفق الهنود الحمر فى أمريكا ، مع هذا الفكر . ففى عام ١٨٥٢ م طلبت حكومة الولايات المتحدة شراء أراضى فى ولاية وشنطن ، فى الشمال الغربى، لتوطين المهاجرين . فرد عليها الزعيم « سياتل Seattle » : كل بقعة فى أرضنا مقدسة . نحن جزء من الأرض، وهى جزء منا . جمالها وروائحها العطرة منا ولنا . الأنهار إخوتنا . الأرض أمنا ، فهكذا نعلم أولادنا. إلهنا هو إلهكم ، والأرض ثمينة عنده ، والإضرار بها احتقار للخالق!

الخلق الإفريقية ، فقد جاء خلق الإنسان بعد ما تم خلق كل الأشياء . وتذكر أسطورة شعب « ناندى » ، فى كينيا ، أن الإله خلق طفلا ذكرا، وبحث له عمن يعيش معه . فجعله ينام ، وأخذ واحداً من ضلوعه ، وصنع منه بنتاً ، كبرت وأنجبت أطفالا . ولكن عملية الإنجاب أغضبت الإله ، فقال للزوجين «إذهبا ، لقد أعطيتكما الصحة والموت» .

ويقول « الفون » ، فى داهومى ، إن الإله ، بعدما رتّب الكون فى نظام ، وخلق الحيوان والنبات ، صنع المخلوقات البشرية من الطين والماء . ويضيف «الشيلوك» ، فى السودان ، أن الطين كان من ألوان متعددة . الأمر الذى يفسر اختلاف ألوان بشرتهم . وقد أعطاهم الإله أولا أرجلا للمشى والجرى ، ثم أيدياً لزرع الحبوب ، ثم عيونا ليروا بها الحبوب ، ثم أفواهاً ليأكلوها . وبعد ذلك أعطاهم ألسنة للكلام والغناء ، وأخيراً آذاناً كى يستمتعوا بصوت الموسيقى والرقص وكلام كبار السن . وهكذا صارالإنسان إنسانا كاملاً .

أما « نوير » السودان فيقولون إن خلق الإنسان الأول تم فى الجانب الغربى من بلادهم ، عند شجرة تمرهندى معينة[1] .وقد خرج الناس من حفرة أسفل جزع هذه الشجرة . وفى رواية أخرى أنهم تساقطوا من فروعها تساقط الفاكهة الناضجة . ويقولون أيضا إن الله زودهم بالماشية والدخن والسمك لأجل إعالتهم ،كما أعطاهم قوى شعائرية . وفى إحدى المناسبات خيّر الإله الناس بين الماشية والبنادق ، فاختار النوير والدنكا الماشية ، أما العرب والأوروبيون فاختاروا البنادق .

(١) احترقت عام ١٩١٨

وتذكر أسطورة « كاوندا » ، فى زامبيا ، أن الإله أرسل ثلاثة أوعية للزوج الأول . فعصى حامل الأوعية أوامر الإله ، وفتح الأوعية . وكانت إحداها تحتوى على الشر والمرض والموت ، وهكذا انتشرت ثلاثتها فى العالم . وكان الإله قد وضع فى الوعائين الآخرين استعدادات لمواجهة هذا الموقف ، إذ ملأهما بأعشاب الأدوية ، بمثابة عطية منه لشعبه حتى لا يفنى .

وتعتقد الزولو ، فى جنوب إفريقيا أن الإنسان الأول – رجل وامرأة – خرجا من عود بوص فى النهر . وكذلك تقول قبائل تونجا ، فى موزمبيق ، إنهما خرجا من عود بوص إنفجر فجأة . بينما يعتقد « الهريرة » ، فى أنجولا ، أن جدودهم أتوا من شجرة معينة يقولون إنها ما زالت موجودة فى إقليم الفلد بالجنوب الإفريقى .

وللأشانتى فى غانا قصة تشير إلى أنهم خرجوا من حفرة فى الأرض . ففى ليلة الإثنين فتحت دودة ممرا إلى أعلى فى باطن الأرض ، خرج منه سبعة رجال وبعض النسوة وكلب وفهد . ولما خافوا هدأهم زعيمهم بوضع يديه على كل منهم . وعندما بدأوا فى بناء بيوت يوم الأربعاء قتل زعيمهم . وخرج الكلب يتجول فوجد نارا وأحضرها ، وطبخوا وأكلوا . وما زالت توجد فى الغابة حتى اليوم أوعية لتقديم القرابين فى احتفالات سنوية لذكرى هؤلاء الأسلاف .

ويقول شعب لوبا ، فى كينيا ، إنه حين خلق الإله الشمس تساءل عمن تضئ له ، ولهذا صنع الرجل الأول ودعاه « موامبو » . ولأنه يستطيع أن يتكلم ويرى احتاج إلى رفيق ، فصنع الإله المرأة الأولى وسماها « سيلا » . ولما احتاجا شيئا يشربانه جعل الإله الماء تنزل من السماء ، فملأت الحفر والوديان لتكون

بحيرات وأنهارا . وعلمهما الإله عن اللحوم التى يمكنهما أكلها ، فبعضها مسموح والبعض الآخر محرم . وأعطاهما الإله صغار بقرة فزعت وهربت ، وربياها على قرية نمل ، وهناك من الناس من يظنون أن الماشية جاءت أصلا من قرية نمل .

ومن قصص الأقزام أنه فى البدء خُلق ثلاثة ، رجل زنجى ، وقزم وفتاة . وفى يوم قال الزنجى للقزم إن أخته تنزف دائما ، وحاول معها كل علاج ولم يفلح . ولكن لأن الإله سبق وعرّف القزم معنى هذه الظاهرة البيولوجية ، وعده أن يشفيها . فأخذها وانجبت له أطفالا . ثم أعاد المرأة إلى أخيها وعلمه سر الإنجاب الذى يشفى مرض الأنثى . وأنجب الزنجى أطفالا .

وفى مالاجاش تقول الأسطورة إنه فى يوم كان رجل يصطاد سمكا ، شعر بثقل السنارة ولما سحبها بحرص فاذا بها إمرأة . خاف وترك السنارة يريد الهروب. فنادته المرأة وقالت له ألا يهرب لأنها تريد أن تتزوجه . إشترطت عليه ألا ينظر إلى ما تحت إبطها ، فوعدها وتزوجا وأنجبت له أطفالا . ولكنه كسر وعده وهى نائمة، فشعرت بذلك وهجرته .

ومن مالاجاش أيضا يقال إن الخالق فى البدء صنع رجلين وإمرأتين، وكانوا يعيشون على الأرض ، لايعرفون عن بعضم البعض شيئا . الرجل الأول حفر إمرأة من الخشب بالحجم الطبيعى ، وأحبها لدرجة أنه كان يكلمها طوال الوقت ، ويضعها فى الخلاء لينظر إليها وهو يعمل . وفى أحد الأيام كان الرجل الثانى يتجول ، وجاء إلى تمثال المرأة الخشبى فانبهر بجماله، ولكن عريها أزعجه فغطاها بقماش جميل وحلى . وأخيرا جاءت المرأة تندب وحدتها ، وعندما رأت

الصلصال سقطت على ركبتيها وطلبت من الخالق أن يهبها حياة ، ووعد الخالق أن يجيب طلبها لو أخذتها معها إلى سريرها . فأخذتها واحتضنتها طول الليل ، وفى الصباح دبت فيها الحياة . عندئذ طالب بها كل من الرجلين . وأفتى الإله أنها بنت الرجل الأول لهذا تحل للثانى زوجة . وتزوج الرجل الأول المرأة الأولى وأنجبا أطفالا .

وعند شعب بمكارى ، فى مناطق إفريقيا الغربية ، قصة للخلق والسقوط ، فيها ملامح من قصة سفر التكوين ، فقد خلق « إيتوميبوط » الإنسان ودعاه إنسانا . ثم صنع بقر الوحش ودعاه بقر الوحش . وصنع ثعبانا ودعاه ثعبانا . وقال لهم « أوتوميبوط » : الأرض لم يتم دكها بعد ، ينبغى دكها حتى تصير مستوية حيث يجلسوا . وأعطاهم « أوتوميبوط » بقولا من كل نوع ، وطلب منهم أن يزرعوها . ويوما ما قال الثعبان « ينبغى لنا نحن أيضا أن نأكل هذه الثمار . لماذا نظل جوعى ؟ » . وقال بقر الوحش « ولكننا لا نعرف شيئا عن هذه الثمار » . عندئذ أخذ الإنسان وزوجته بعض الثمار وأكلاها . ونزل « أوتوميبوط » من السماء وسأل « من أكل الثمار ؟ » . فأجابا « نحن أكلناها » . وسأل أوتوميبوط من قال لكما إنه بإمكانكما أكلها ؟ » . فأجابا « الثعبان أخبرنا » .

ومن الأساطير المعروفة جيدا فى أنحاء عديدة من القارة ، تلك التى تقول إن الإله ترك العالم . فمن المتفق عليه أن الإله ، فى الأزمنة الأولى ، كان يعيش فى العالم ، ولكن بسبب خطأ إنسانى غضب وغادر الأرض إلى السماء . وهناك فكرة عن عصر ذهبى فى الماضى حين كان الإله وأسلاف الإنسان أكثر قربا وتقاربا ، وهى تقترب من الصورة فى سفر التكوين ، وإن كان الإنسان هو الذى طرد من عدن .

ويقول شعب « Mende » فى سيراليون ، إن الإله خلق كل شئ ، السماء والأرض ، والحيوان ، ثم خلق الرجال والنساء أخيرا . ووعدهم أن يحصلوا على أى شئ يطلبونه منه . وهكذا فكلما طلبوا شيئا أعطاه لهم مباشرة . ولكن الناس استمروا فى الطلب بصورة متكررة ، حتى بات اسم الإله مرادفا لـ «خذها»، وهى الكلمة التى اعتاد أن يرددها حين يطلبون منه طلباتهم . وقد تعب الإله من هذا كثيرا ، ولهذا قرر أن يجهز لذاته مسكنا فوق الناس وبعيدا عنهم جدا . وعندما نام الناس مضى فى هدوء إلى مسكنه الجديد . ولما استيقظ الناس لم يجدوه ، ولكنهم إكتشفوا فيما بعد ، حينما نظروا إلى أعلى ، أنه منتشر فى كل الاتجاهات وقالوا إنه عظيم ، ولقبوه « بالعالى » .

وعلى الساحل الغربى ، من ساحل العاج وحتى نيجيريا ، تسود أساطير مماثلة عن مغادرة الإله للعالم بسبب خطأ الإنسان . ففى الأيام القديمة كانت السماء قريبة جدا من الأرض لدرجة أن الأطفال كانوا يمسحون أيديهم الملوثة بالدهن فيها ، كما كانت النسوة تقتطعن منها أجزاء حين يحتجن إلى شئ يضفنه وهن يجهزن العشاء . ومرة كانت إحدى النسوة تدق الذرة فى جرن ضخم بعصا طويلة سميكة لتطحنها ، وارتفعت العصا فجأة وضربت الكائن الأعلى فى عينه ، فغضب غضبا شديدا ومضى بعيدا إلى أعلى حيث هو الآن .

وفى الشرق أيضا توجد أساطير مماثلة . فأهل النوبة السودانية يقولون إنه فى البدء كانت السماء منخفضة جدا وقريبة من الأرض ، لدرجة أن الناس لم يكونوا يستطيعون تحريك أيديهم إلى أعلى . وعانت النساء من ذلك لأنهن كن يجدن صعوبة فى تحريك الملاعق وهن يعددن العصيدة . كانت أيديهن أحيانا تضغط وتلمس القدور وتحترق ، ومرة غضبت إمرأة غضبا شديدا ، وضربت الملعقة بشدة

إلى أعلى فمرقت من خلال السماء . فغضبت السماء وتراجعت بعيدا إلى أعلى، إلى المكان الذى ظلت فيه حتى الآن .

وتقول قصة القزم إن الإله ، فى البداية ، كان يعيش على الأرض مع أطفاله ، وهم ولدان وبنت . ولم يكن أحد يراه إطلاقا لأنه طلب منهم ذلك . وكان يطلب من إبنته أن تضع كل يوم حطبا ووعاء ماء عند باب مسكنه وتتركها . واختبأت مرة فرأت ذراعاً طويلة مزينة بأساور تمتد لتأخذ الوعاء والحطب . فعرف أنها رأته ، فجمع أولاده وقال لهم إنه سيتركهم ويعيش بعيدا عنهم بسبب عصيان البنت . وترك لهم أدوات تنفعهم . وطلب من البنت أن تتزوج أخويها ، فتزوجت ، ومات طفلها ، وهكذا دخل الموت إلى الناس .

أعمال السحر والتطبيب

توضح الدراسات أن الجماعات البدائية ربطت بين عالم الخيال وعالم الواقع . وهى وإن كانت تستمد تخيلاتها من الواقع ، فهى فى الوقت ذاته تسقط على الواقع من خيالها وتضفى عليه منه . فهى تصورت آلهتها شخوصا يعيشون ويتصرفون ويتزوجون وينجبون كالحال فى عالم الواقع . ولكنها ، وفى نفس الوقت ، إعتقدت أنها تعيش بعيدا عنها فى عالم الخيال أو عالم ما وراء الطبيعة . وهى بالمثل إعتقدت إعتقادا راسخا أن بإمكانها أن تستمد من عالم الخيال قوى مختلفة تساعدها على التأثير بشكل معين على أفعالها أو متطلباتها فى عالم الواقع . والسحر ، حسب إعتقادها ، ما هو إلا تلك القوة أو القوى التى تستمدها من عالم الخيال أو عالم ما وراء الطبيعة ، وتستغلها لصالحها فى عالمها الواقعى ، كما تلوذ بها كى تساعدها على التغلب على عجزها فى فهم طلاسم الحياة وأسرار الطبيعة ، باعتبارها أمورا فوق إدراكها .

فالزارع ، مثلا ، يعرف متى يبدأ الزراعة ، وله إلمام بخواص التربة ، وخصوبتها وبالظروف المناخية المناسبة لزراعاته ، ولكنه يجهل أسباب فشل المحاصيل ، أو حدوث القحط ، وسر التذبذب فى مواعيد سقوط الأمطار وكميته، ومصادر الآفات الضارة بمحصوله . وهذه الأخطار التى تفاجئه على غير انتظار تمثل مصدرا كبيرا لهواجسه ، بل ولمخاوفه ، وحتى لايترك نفسه تحت رحمتها يرى ضرورة القيام بطقوس سحرية ، قبل كل مرحلة من مراحل الزراعة ، ليأمن شرها ويقى زراعاته من أضرارها . وينطبق هذا على كل أنشطة الإنسان البدائى . فهو يعزو إلى السحر القدرة على التخلص من شرور الحياة وأخطار الطبيعة، والأضرار التى قد يتسبب فيها الناس عن حقد أو حسد ، كما يستخدمه فى إيذاء خصومه أو أعدائه .

فأعمال السحر ، إذن، تتلخص فى استخدام قوى خارقة فى العالم غير المنظور ، سواءً أكانت للأرواح أو البشر أو الحيوان أو النبات ، أو أنفس بشرية أخرى ، للقيام بأعمال خيّرة أو ضارة فِى العالم المنظور . ويشار إلى السحر على أنه مجموعة كلمات تقال ، أو أفعال تؤدّى من أجل السيطرة على هذه القوى الخارقة ، أو من أجل تطويعها لإرادة الإنسان . والهدف الأساسى هو درء الخطر والشر ، أو إزالة مسببات الكوارث والأمراض وغيرها ، أو استمطار الخير واستجلاب المنافع. وتمثل أعمال السحر ، فى بعض صورها ، امتدادا لعبادات الإنسان البدائى. ودراسة الدين والسحر لها أهميتها فى تحليل العلاقة بين هذا الإنسان والكون وطاقاته .

وتقع مسئولية الطقوس المصاحبة لهذه القوى الحيوية ، ممارسةً وسيطرةً وفهماً ، على عضو واحد فى العشيرة وهو الكاهن ، أو الطبيب الساحر الذى

يدعوه الغرب Witch doctor . ويتوقع منه أن يتنبأ بأفعال الأرواح الخيرة ، والأخرى الشريرة ، ويسيطر عليها ، وأن يعرف النباتات والمعادن النافعة فى علاج الأمراض ، ويحرص على المحافظة على الطقس والتقاليد اللذين هما فى غاية الأهمية لصالح القبيلة وخيرها . بل إن هناك أناسا مدربين جيداً فى صورة جمعيات سرية ، يساعدونه على الحفاظ على التقاليد والسلطة ،وتعليم شباب القبيلة الأساسيات فى معركة البقاء ، ومساعدتهم على فهم عالم الروح واحترامه وطاعته .

ولعل أول محاولة للإنسان الفطرى لاستعمال قوة السحر ، كانت تلك الصور التى رسمها لحيوانات الصيد . فالفنان القديم رأى فى تصويره لحيوان بعينه قوة سحرية تؤثر على الحيوان ، وتجعله فريسة سهلة للقنص . أى أن الإنسان البدائى ربط بين الحيوان وصورته . وقد بقيت الصورة ، لأى مخلوق كان ، تلعب دورها السحرى طوال حياة الإنسان الفطرى ، ولازمته طوال فترة العصر الحجرى الحديث . ومازالت إلى يومنا الحاضر ، وإن تلونت بأفكار وأساليب متعددة. وأقربها محاولة « الساحر » الحصول على « أثر » أى شئ ما من متعلقات الشخص الذى يريد أن يعمل به أو له « عملا » ضاراً كان أو نافعا .

وهناك من كان يعتقد أن الكائن الأعلى هو الذى أرسل السحرة إلى العالم كمنظمين أو مشرفين على السلوك الإنسانى . وعند شعب «اليوروبا» ، فى نيجيريا ، أسطورة توضح هذا المفهوم ، وتقول إن الكائن الأعلى ، أو «أولودوماري» دعا بعض سكان العالم الروحى « السفلى » ، وسألهم كيف يطعمون أنفسهم لو أرسلهم إلى الأرض . أجاب الأول إنه ببساطة يمسك أى إنسان فى متناول اليد ويقتله أو يقتلها لتكون طعاما له . أما الثانى فقال إنه يبحث عن إثنين يتشاجران،

ويقف فى ظل أحدهما ، ويقتل الثانى وجميع أفراد عائلته ، فيلقى الضحايا تبعة القتل وسوء حظهم على الشخص الذى تشاجروا معه . فأرسل «الإله» الروح الثانى هذا إلى الأرض . ومنذ ذلك الوقت صارت شئون الناس أكثر تعقيداً، حيث أن كل فعل ، سواء كان متعمدا أو غير متعمد ، له نتائج غير منظورة ولا يمكن التنبؤ بها .

وتمثل طائفة السحرة جماعة خاصة لها مكانتها . وقد ساد الاعتقاد أن أشخاصا معينين ، وخاصة النساء [(١)] ، يملكون قوى لتغيير أنفسهم إلى أشكال أخرى ، عندما يفترسون أجساد أو أرواح أعدائهم ، أو حتى أقربائهم أحيانا .

والسحرة أو العرافون أنواع ومستويات . ويأتى فى المقدمة المللوكيون ، من ذوى الخبرة والقيادة . والذين يولدون سحرة ، من أمهات ساحرات ، لهم فرصة أكبر فى أن يكونوا من زمرة المللوكيين ، الذين يديرون «مجمع» السحرة ويجندون السحرة الجدد ويدربونهم . ويأتى بعدهم العرافون wizards ، من الذكور والإناث، وممارساتهم تجمع بين الروحانيات spiritualism والإنسانيات ، وينسب إليهم بعض التصرفات الهوجاء . وتضم الطبقة الثالثة العشبيين herbalists ، أى الذين يستخدمون النبات والأشجار والحيوان ، مثل البوم - وهى الحيوات الأدنى

(١) تعتقد شعوب اليوروبا (نيجيريا) أن قوى ما وراء الطبيعة نوعان : القوى الخيرة وتتمثل فى الآلهة والسلف ؛ والقوى الشريرة، والتى من خلالها يعاقب الإله الإنسان ، وتتمثل فى الآجى Aje أى الساحرات ، والأججون ajogun أو المقاتلون ضد الإنسان . فالآجى نساء تملكن قوات شريرة خارقة للطبيعة ، وهدفهن تدمير الإنسان وعمل يديه . وهن قادرات على التغيير إلى طيور فى الليل ، ولهذا يعرفن بالإنسان الطائر ، ويعتقد اليوروبا أنهن يحصلن على قوتهن من إله يوروبا الأعلى مباشرة ، وهذا هو سبب عجز الناس عن التغلب على شرهن .

– فى أعمالهم . ويتوقف مفعول العلاج النهائى ، الذى يستعملونه فى التطبيب وغيره ، على التعاون الروحى بين الدواء والمريض ، ولهذا ينظر إليهم على أنهم بعضهم من السحرة ، رغم أن بعضهم يعتبرون أنفسهم صيادلة يجمعون أوراق النبات والأعشاب المناسبة لعلاج المرضى . ثم يأتى المشعوذ أو المعزّم magician ، وهو الذى لديه القدرة على استدعاء الأرواح ، بما فيها السحرة الأحياء والأموات ، فى مكان عام ، عن طريق التعزيم أو الرقية ،ويطلب منهم معروفا أو عمل « كرامة » معينة .

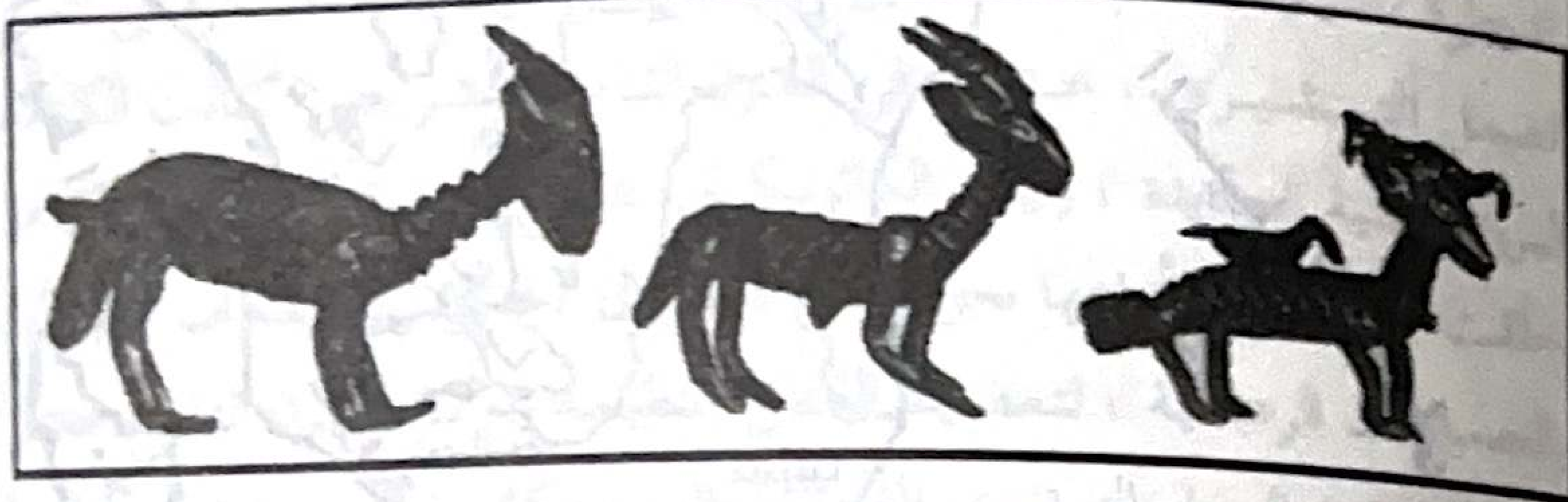
ويقوم الطبيب الساحر ، أو جماعة السحرة ، فى احتفالاتهم ، بالرقص والغناء ، ويقرعون الطبول ، ويدقون الأجراس . ويجيبون على أسئلة الحاضرين .

والسحر، فى رأى بعض العلماء ، مرحلة من مراحل ثلاث مرت بها كل المجتمعات. وهى بالترتيب السحر فالدين فالعلم . فكان السحر يسيطر على حياة الإنسان الأول ويسيِّرها. والسحر ، كالعلم ، يعتبر أحداث الطبيعة تقع تبعا لقوانين ثابتة لا تتغير ، وبدون تدخل أية عوامل بشرية . ويقوم السحر على قانونين ، هما قانون التشابه (أى أن الشبيه يؤثر على شبيهه) . وقانون الاتصال التليبائى telepathic والروحى . ويسعى الساحر إلى معرفة قوانين الطبيعة لاعتقاده أنها تساعده على تسخيرها لتحقيق ما يرغب فيه من أهداف . إلا أن قوانين السحر ذاتها ليست واقعية لما يغلب عليها من خيال . أما السحر ذاته فهو، عند تلك الشعوب، ضرورى لجميع الأنشطة كالزراعة والصيد وغيرهما ، ولحماية الأطفال ، والحفاظ على العلاقات الاجتماعية كالزواج والحب والصداقة . ولإبطال عمل السحر المضاد الذى يتسبب فى المصائب والكوارث . ومازال السحر والعرافة يسيطران على حياة معظم الإفريقيين. ومازالت الأحجبة ،

ورؤوس القرود والطيور الميتة ، والشُّرب تباع فى الأسواق بكثرة .

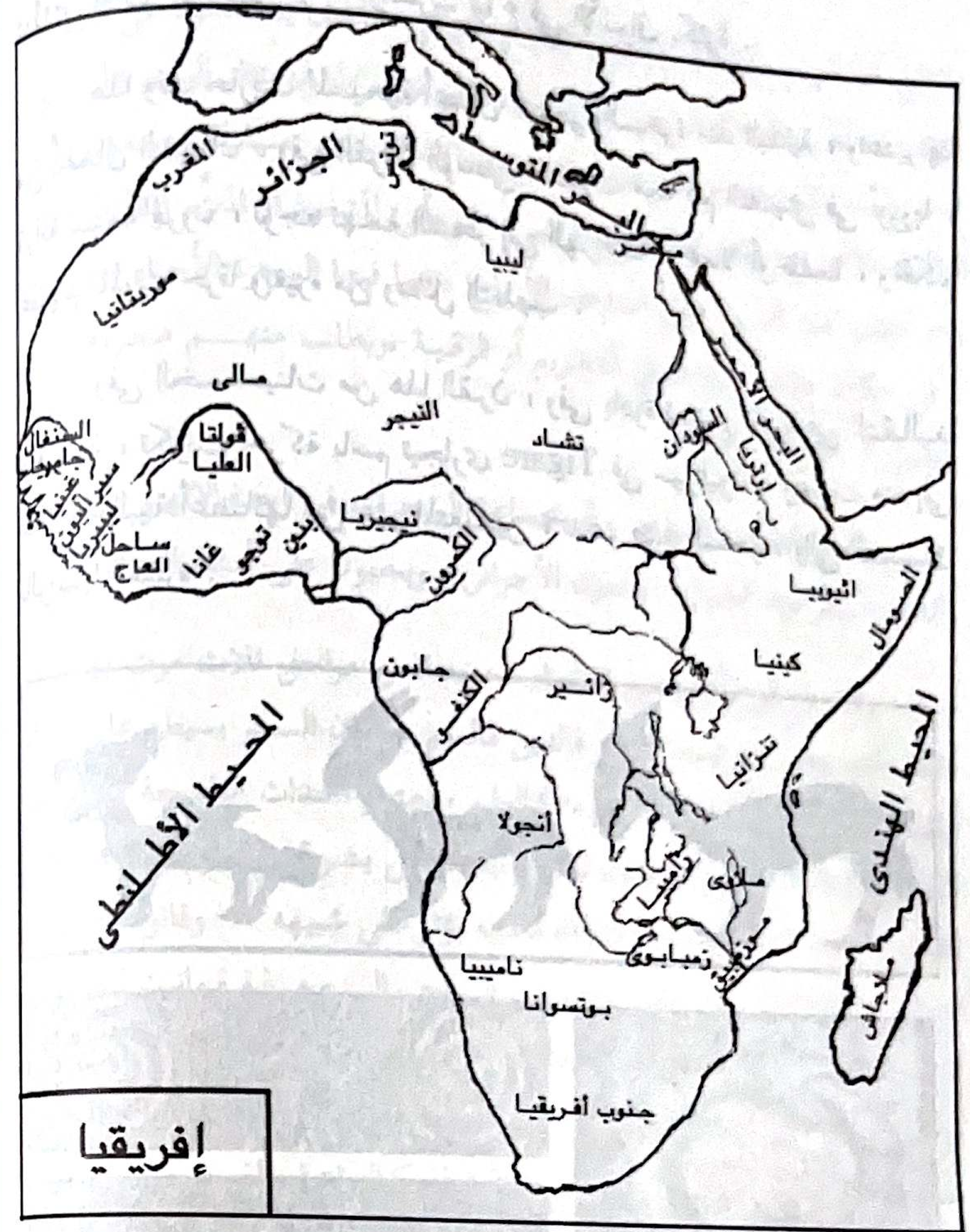
هذا وقد حاربت المسيحية أعمال السحر والسحرة منذ البداية ، واعتبرتها من أعمال الشيطان . وفى القرون الوسطى استمرت محاكم التفتيش فى أوروبا ، قرابة سبعة قرون ، توجه تهمة السحر إلى الهراطقة ، عدلا أو ظلما ، وتحكم عليهم بالموت حرقا وبغيره من وسائل التعذيب .

وفى الخمسينات من هذا القرن ، وفى بادرة تعتبر نادرة فى التقاليد الإفريقية ، تكونت حركة باسم تيجارى Tigare فى سيراليون ، وعبرت منه إلى غانا ، غالبية أعضائها من غير المتعلمين ، تدعو ضد السحر ، والى التمسك بالوصايا العشرة .









خريطة إفريقيا

الفصل الثالث

المسيحية في إفريقيا

(جنوب الصحراء)

جاءت حركة الاكتشافات الجغرافية فى إفريقيا ، والتى بدأت فعلا فى القرن الخامس عشر ، إيذانا ببدء العمل التبشيرى فى تلك القارة التى كانت مجهولة بالنسبة للأوروبيين . وبديهى أن يكون لتقدم وسائل المواصلات ، وانتشار التجارة ، نتيجة لما تم كشفه من طرق وبلاد وأسواق جديدة ، أثره فى اتساع العمل التبشيرى ، خاصة فى القرن الثامن عشر حين كانت الكنائس البروتستانتية الجديدة ، وأيضا الكاثوليكية ، تتمتع بنهضة كبيرة فى بلادها ، خلقت حماسا بين أتباعها نحو العمل التبشيرى ، فتكونت الجمعيات والهيئات ، والجماعات الرهبانية ، لتعضيد العمل وتنظيمه . وكان القرن التاسع عشر ، بحق، هو قرن العمل التبشيرى الغربى العظيم ، وكان يؤكد فى تعليمه على أن الخلاص هو فى المسيح وحده ، وأنه لا أمل للنجاة خارج هذا الفلك الأبدى .

وكانت تجارة الرقيق ، والعمل على إلغائها ، من العوامل التى كان لها تأثير كبير فى إثارة الحركة التبشيرية . وكان لفنجستون رائدا فى محاولاته تأليب الرأى العام الإنسانى ضد بشاعة الرق . واستطاع أن يخلق وعيا عالميا للعمل على القضاء عليه ، وذلك من خلال محاضراته وعظاته عام١٨٥٧ ، التى كان يحض فيها على التبشير فى إفريقيا ، وفتح أبوابها للعلم والمعرفة . فقامت بنتيجتها

الجمعيات التبشيرية بدور فعال فى الدعوة لتحريم الرق ، وهو ما تحقق فى أوائل القرن التاسع عشر . كما قامت بالعناية بالعبيد الذين يضطر تجار الرقيق إلى إطلاق سراحهم ، والعمل على حمايتهم من الوقوع فى الشراك مرة أخرى . ومن الطبيعى أنها نشطت فى نشر المسيحية وتعاليمها لتقيم بذلك سياجا ضد الرق وضد عودته .

ولقد بدأ المرسلون البروتستانت نشاطهم فى غربى إفريقيا أولا . وكان ذلك فى أوائل القرن التاسع عشر . فالأنجليكان والميثودست إتجهوا إلى سيراليون عام١٨٠٧ ، كما بدأوا العمل فى منطقة النيجر ، وإن كان مرض الملاريا قد عطلهم . فاستعانوا بالوطنيين بعد تدريبهم فى معهد خاص بسيراليون ، أنشأته جميعة المبشرين الكنسيين عام ١٨٢٧ ، لتدريب الإكليروس . وقد تحول هذا المعهد عام ١٨٧٥ إلى كلية فورابى ، لتخريج شباب يحملون درجات علمية من جامعة درهام (إنجلترا) . وتنامى العمل فى سيراليون ونشطت الإرساليات بما فى ذلك الكنيسة المعمدانية ، وجمعية لندن التبشيرية ، خلال الثمانين سنة التالية ، فافتتحت مراكز للعبيد المحررين ، وأقامت المزارع النموذجية .

أما بعثة الوسليان فقد بدأت عملها عام ١٨٣٩ وسط قبائل الفانتى فى كيب كوست وكوماسى وغيرهما ، وفى منطقة ساحل الذهب (غانا) . ثم إتجهت شرقا ووسعت نطاق نشاطها حتى وصلت توجو . بينما استقرت بعثة البريسبتريان أوف بازل السويسرية فى منطقة ساحل الذهب (١٨٥٥) ، وأخذت تنشئ مراكز لها فى الداخل . ثم إتجه نشاطها إلى نهر الفولتا حيث أنشأت مراكز جديدة يضم كل واحد منها مدرسة للبنين وأخرى للبنات . أما علماؤها فقد انصرفوا إلى ترجمة الإنجيل إلى اللغات الوطنية. كما أن بعثة

بريمن الألمانية بدأت عملها شرقى الفولتا (١٨٤٧) ، ثم أنشأت مراكز لها فى مناطق متعددة من ساحل الذهب ، واتجهت منها إلى داهومى . ولم ينتصف القرن إلا وكانت إرساليات مختلف المذاهب تعمل فى غربى وشرقى نيجيريا .

وكما كان لدعوة لفنجستون صداها القوى ، كذلك كان موته مجهولا فى سبيل إرساليته. إذ تألفت جمعيات تبشيرية متعددة للعمل فى المناطق التى اكتشفها إمتداداً لعمله وتكريما لذكراه . من بينها إرسالية الجامعات التبشيرية إلى وسط إفريقيا التى أنشأت أولى مراكزها عند نهر الزمبيزى (١٨٦١) . ثم امتد نشاطها إلى نياسالاند (ملاوى) . وجمعية الكنيسة التبشيرية التى توجهت إلى منطقة بحيرة تنجانيقا ثم إلى يوغنده . وجمعية لندن التى عاودت نشاطها ووجهته إلى روديسيا الجنوبية (زيمبابوى) (١٨٩٥) . كما عاود الكاثوليك نشاطهم فتألفت جمعية الآباء البيض (١٨٦٨) وبدأت عملها فى شرق إفريقيا، ثم فى روديسيا الشمالية (زامبيا) .

ونزل البرتغاليون فى حوض الكونغو ، فى غربى إفريقيا ، ومعهم رهبان يسوعيون . واعتنق الملك المسيحية ، وشجع شعبه على اعتناقها. وفى أنجولا ، كانت البعثات التبشيرية البرتغالية هى أكثر المؤسسات نشاطا . وكان أكثر الجماعات خدمة هم الآباء الكابوشان . ولكن نشاطهم أخذ يضعف ، حتى اختفى ، أو كاد ، فى بداية القرن التاسع عشر . أما اليسوعيون ففضلوا مزاولة نشاطهم فى المدن الساحلية . وكان ميدانهم المفضّل هو التعليم ، فاهتموا به أكثر من التبشير . وكان لهم دور رئيسى آخر ، وهو دور الوسيط بين الإفريقيين وظالميهم من رجال الإدارة . وقد إمتدح لفنجستون جهدهم حين زار تلك المنطقة .

ثم جاءت البعثات الكاثوليكية إلى ليبيريا سنة ١٨٤١ . وامتد عملها إلى المنطقة بين داهومى والنيجر ، وإلى ساحل الذهب (غانا) حيث أقاموا مراكز تبشيرية تضم وحدات علاجية . على أن المرسلين الكاثوليك قد ركزوا نشاطهم بصورة أوسع على شرقى إفريقيا ، فى تنجانيقا (تنزانيا) وكينيا وبوجندا (بأوغنده) . والأخيرة يشار إليها عادة باسم لؤلؤة الكاثوليكية الإفريقية ، لأن ثلث سكانها تقريبا يتبعون كنيسة روما .

وكان البرتغاليون أوائل من بشروا فى الساحل الغربى ، إذ أنشأوا مراكز للتبشير فى ساحل الذهب ومصب نهر الكنغو ، واعتنق الملك المسيحية عام ١٤٩١ . وأسسوا عام ١٦١٠ أسقفية فى مستعمرة أنجولا ، انحصر نشاطها فى الساحل. وكانوا أيضا أوائل من نزلوا من الكاثوليك فى شرقى إفريقيا . فقد جاءوا فى بداية القرن السادس عشر ، إلى منطقة نهر الزمبيزى (مملكة مالانجا). وفى أعقابهم جاء اليسوعيون الدومينكان ، الذين بدأوا نشاطهم فى سنة ١٦٣١ ، وحصلوا على حق إقامة الكنائس والتبشير بالمسيحية . وفى الموزمبيق نشطت بعثاتهم من الدومينكان فى مجال التعليم . وانتشرت مدارسهم إلى أقصى الداخل، وساعدهم الأوغسطين والكابوشان . ولكن الرهبان ، للأسف ، أخذوا ينصرفون إلى امتلاك الأرض وزراعتها واستثمارها لأنفسهم ، مما أضاع هيبتهم ومكانتهم وسط الإفريقيين .

ومما يجدر ذكره أنهم حلوا بجزيرة زنجبار ، فى أواخر القرن الخامس عشر ، حيث عمل الآباء الكاثوليك ، المعروفون باسم الآباء الأوغسطينيين البرتغاليين . ومع أنهم أجبروا على ترك الجزيرة فى أواخر القرن السابع عشر ، فقد عادوا إليها فى سنة ١٨٦٠ وبدأوا نشاطهم التبشيرى والعلاجى ، وتقديم

الخدمات الاجتماعية للرقيق . وانتقلت بعثتهم إلى الداخل ، حيث اهتمت بإعالة العبيد المحررين وتعليمهم زراعة الأرض ، وتدريبهم على الحرف اليدوية ، وأقامت مركزاً لهذه الغاية فى باجوموبو ، كان بمثابة الأم للعديد من المراكز التبشيرية التى إفتتحوها فى شرقى إفريقيا . وقد تخرج فى هذه المراكز الكثير من الصناع ، وتزوجوا ، وبالوقت تكونت عدة قرى مسيحية ، انتشرت على بعد عشرات الأميال من المركز الرئيسى . وكان هذا هو دأب البعثات التبشيرية الكاثوليكية أى خلق مجتمعات مسيحية مغلقة . كما كانت سياستها عدم التسرع فى قبول الوطنيين فى المسيحية . بل كانت لديها توجيهات تفرض التريث لمدة تصل إلى أربع سنوات ، يتدرب خلالها المؤمن الجديد على الحياة المسيحية الصحيحة .

وانتشر المبشرون الكاثوليك من الفرنسيين فى أنحاء متعددة من شرقى إفريقيا . وأقاموا المراكز التبشيرية فى تنجانيقا ، وعلى سواحل بحيرة فيكتوريا الشرقية والجنوبية ، وبعض مناطق كينيا . بينما عملت الجمعيات الإيطالية فى كينيا ، حيث كانت لها خمس محطات فى الأقاليم الشمالية من نيروبى ، تقدم نفس النمط من التدريب والتعليم[1] . وفى سنة ١٨٧٩ وصلت إلى بوجندا أول بعثة تبشيرية كاثوليكية ، من الجمعية الكاثوليكية للتبشير فى إفريقيا . وقد أدى قدومها إلى قيام صراع مذهبى مرير مع المبشرين الأنجليكان الذين سبقوهم إلى بوجندا .

(١) وقد بدأوا العمل فى جنوب السودان فى منتصف القرن الماضى ، وترجموا أجزاء من الكتاب المقدس إلى لغات الدنكا والبارى والمور . ويعتبر دانيل كمبونى عميد التبشير الكاثوليكى فى السودان .

وكانت أولى الجمعيات التبشيرية البروتستانتية التى وصلت إلى شرقى إفريقيا هى جمعية لندن التبشيرية البريطانية (C.M.S). ووصل مندوبها كراف Kraff ، وهو ألمانى الأصل إلى ممبسا سنة ١٨٤٤ . ولعل أهم عمل قام به هو ترجمة العهد الجديد إلى اللغة السواحيلية بعدما تعلمها . وتلا ذلك وصول المبشرين من جمعية كنيسة الميثودست المتحدة الحرة . ومن الإرساليات الجامعية إلى وسط إفريقيا عن طريق زنجبار . ومما يذكر عن رئيس مركزها ، الأب فانلر Fanler ، أنه بنى كنيسة فى زنجبار فى سنة ١٨٧٧ ، فى المكان الذى كان سوقا للرقيق ، وبنى المذبح فى موضع العمود الذى كان يجلد عليه الرقيق .

وكان ستانلى أول المبشرين الإنجليز الذين وصلوا إلى بوجندا (١٨٧٥) ، إذ أرسلته جمعية لندن التبشيرية إلى هناك لاهتمامها بالعمل التبشيرى فى شرقى إفريقيا (١) . وبناء على طلب ستانلى أرسلت الجمعية مجموعة من المبشرين والمعلمين كانت مهمتها ، حسب التعليمات التى أعطيت لها ، أن تنقل إلى الإفريقيين رسالة الخلاص الذى يسوع المسيح ، وتعلمهم شئون التجارة والفنون والعلوم ، وتعمل على إحلال التجارة المشروعة مكان تجارة الرقيق . ونجحت فى إنشاء عدة مراكز تبشيرية ، كما تمكن أحد أعضائها ، ماكاى ، من ترجمة إنجيل القديس متى إلى اللغة الوطنية ، فى خلال أشهر معدودة من وصوله . كما أنه أنشأ ، بعد بضعة سنوات ، مجلسا للكنيسة من بعض الوطنيين المسيحيين ، الذين لهم القيادة ، حتى يتمكن المجلس من الإستمرار فى العمل لو

---

(١) وقد فتحت مراكز وأسست مدارس لها فى السودان ، وخاصة جنوبه ، بعد نهاية الحركة المهدية .

اضطر الأوروبيون إلى ترك البلاد . وكان هذا بمثابة أول خطوة نحو تأسيس كنيسة وطنية فى أوغنده . وكانت النتيجة الطبيعية لنمو الكنيسة فى بوجندا أن أصبح البوجندى نفسه مبشرا ، فخرج من وطنه ليبشر فى البلاد المجاورة.

وقد توافد المرسلون الأمريكان على القارة فى القرن التاسع عشر أيضا ، ولكن فى جماعات قليلة . ثم أخذت أعدادهم تتزايد قرب أواخر القرن وأوائل القرن العشرين . واجتذبتهم إفريقيا الإستوائية التى أثبتت أنها حقل خصيب . ويشكل المرسلون الأمريكان، فى الوقت الراهن ، نصف مجموع العاملين فى تلك المناطق ، والتى تشمل الجابون وتوجو وسيراليون ونيجيريا والكونجو . وفى الكونجو إقتحمت إرسالياتهم ميادين جديدة فى الخدمة ، فإرسالية الكنيسة المعمدانية ، مثلا ، أنشأت مستعمرة للبرص فى إقليمه (الكونجو) الأدنى عام ١٩٣٨ .

ويقدر كندال عدد المبشرين ، فى أوائل عهد الإرساليات ، أى نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ، بما يتراوح بين ثلاثين وأربعين ألفا من الكاثوليك والبروتستانت . وعددهم ، فى الوقت الراهن ، قد يزيد على ذلك قليلا . وفى رأيه أن الدافع الأساسى لحيوية العمل التبشيرى وزخمه البالغ ، هو الحب والرحمة النابعان من قلب أثقله الشعور بالذنب، الذى نجم عن انتشار الرق وتجارته التى تورط فيها الرجل الأبيض .

ومهما تكن وجاهة هذا الرأى فلا ينبغى التقليل من وازع المبشرين الإنسانى الصادر عن إيمانهم العميق بمسيحيتهم . فجاءوا يحملونها بمحتواها من الحب والنعمة إلى غيرهم لتكون لهم حياة أفضل . وقد نذروا أنفسهم لقيم هى فى أعينهم خير القيم ، وسعوا إلى نشرها ، لتيقنهم من النفع الذى يعود

على من يقبلون بها .

فالذين أتوا بالمسيحية حملوا معهم الكثير من الجديد فى العلوم والطب والمهارات المختلفة ، وكانوا يؤمنون أن الثقافة الغربية أقدر على تحسين الحياة بوسائلها العلمية ، وأقدر على توفير قدر من الرخاء للشعوب . ودلل إقبال الطلاب والطالبات من الأفارقة على المدارس الأوروبية على عمق هذا الأثر ، وعلى أنها لبّت فعلا بعض احتياجات إفريقيا . وأثبت إندفاعهم نحو التدريب المهنى ، على وجه الخصوص ، أنهم أدركوا أن السبيل إلى جنى ثمار التغيير الزاحف على المجتمع ، هو التدرب على الحِرَف بأنواعها المتعددة .

والحماس الذى عملت به الإرساليات ومدارسها فى مجالات حيوية كالطب والصحة والوقاية والزراعة والقانون والإدارة ، أيقظت ولا شك طموح الإفريقى ، ووسعت آفاق خياله وأحلامه . كما سهم نشر الديمقراطية وصفات المبادرة والقيادة، بواسطة بعض المذاهب التبشيرية ، على تكوين قيادات إفريقيــة واعيــة .

والإفريقيون الذين تخرجوا فى مدارسهم كانوا رسل تعليم أكثر من كونهم رسل دين ، لأنهم إكتشفوا واقتنعوا بمنافع التعليم فى الثقافة الوافدة عليهم ، إذ كانت تفتح أبواب العمل والمناصب أمامهم ، فاتجهوا إلى تعميم هذه المنافع بين أبناء جنسهم . بل إنها ساعدتهم على تعميق مفاهيمهم القومية، وعززتهم الوطنية ، وهو أمر ربما لم يكن فى حساب مبشريهم أو معلميهم . فمضوا يغرسون روح النضال ، وفكر الحرية والاستقلال ، فكانت هى البذور التى نبتت ونمت ، وجاءت ثمارها بعد الحروب العالمية الثانية ، حين ظهرت الكيانات الإفريقية فى أمم ودول وطنية مستقلة .

ومن اللافت أن أكثر الناس نقدا وتجريحا للبعثات التبشيرية فى الماضى ، أصبحوا اليوم يعددون مآثرها ، لا فى ميدان التغيير الذى ذهبوا أساسا من أجله ، بل فى ميادين أخرى تتصل بتنمية الإنسان الإفريقى ، واستثمار الطاقات وتعمير الأرض . وهناك أيضا من يتحدثون عن فضلهم فى تمدين القبائل الغليظة الخشنة العيش ، وتهيئة الفرص أمامهم للانفتاح على التطور الحضارى فى الغرب.

صحيح أن بعض النجاحات التى حققتها الثقافة الوافدة فى إفريقيا كان جزئيا ، وأحيانا سطحيا . ولكن من هو الساذج الذى يظن أن فريقا من الناس يتقبل ببساطة وسهولة أية ثقافة غريبة عنه ، وبكل جوهرها ومظاهرها ؟ إن صور الثقافة الوافدة ، التى تبدو وكأنها تمكنت من البقاء كما هى فى البيئة الجديدة لو خضعت للدرس والتحليل ، لاتضح أنه قد أعيد تشكيلها لتنسجم مع القديم الموروث . قد يجئ اللقاء الثقافى بين حضارات بالقوة العارية ، أو بالقسر ، أو بالحوار. ومهما كانت الصورة التى يأتى بها ، فما يحدث عادة هو حوار صامت بين الثقافات ، ومن خلاله يجرى التكيّف ، بطيئا عادة ، وأحيانا سريعا . وهكذا تمتزج الثقافات . وعندئذ يستحيل إعادة ساعة التغيير إلى الوراء ، فهى لا تتوقف، ولا ترتد ، ويصعب أن تعود النماذج الأولى إلى ما كانت عليه .

والمبشرون الذين نجحوا فعلا فى رسالتهم فى إفريقيا ، كما يقول يوجين نيدا E.A. Nida ، هم الذين وعوا هذه الحقائق السوسيولوجية ، وكانوا على علم بحقائق الأنثروبولوجيا ، فادركوا وتفهموا حاجات الإنسان الإفريقى التى تنبع من بيئته التى ينتمى إليها على كوكبنا . كما وعوا أن طرقه التى يتّبعها فى تفكيره ومعيشته ، هى القنوات التى من خلالها يشبع هذه الحاجات الجسدية والنفسية

والروحية ، الأمر الذى يؤكد الارتباط القائم بين الإنسان ومحيطه الذى يعز عليه أن ينفصل عنه ، أو يعيش بمعزل عنه. فهؤلاء المبشرون الواعون جاءوا ليذيعوا كلمة الله ، وفى ذات الوقت لم يحلموا أبداً فى تحطيم الثقافات التى يعيش فيها الناس . ولم يقللوا من شأنها أو يستخفوا بها ، بل رأوا فيها مرحلة تطور مألوف فى حياة الإنسان حيثما كان . لم يندفعوا وراء الرغبة فى التغيير ، بل أخذوا جانب التريث فى محاولات إزاحة ما يرون إزاحته ، أو تغيير ما لا يتفق وثقافتهم .

وفى هذا الصدد يؤثر عن أحد الأساقفة الغربيين قوله تعليقا على معتقد الإفريقيين فى الكائن الأعلى أو الله : « علينا أن نواصل معهم ما يعتقدون ، ونقدم لهم أيضا السيد الرب الذى سبق وعرفوه فعلا » . وللأسقف لوكاس ، فى تنزانيا ، موقف مماثل ، فيقول « حينما توضح للإفريقى الذكى أن الدقيق والكأس الخاصين بذبائحهم التقليدية إنما كانا بمثابة الطريق التى جهزه الله بها ليتقبل تقدمة الدقيق الحقيقى والكأس الحقيقى (الجسد والدم الأقدسين) ، وأن شجرة « تورو » تقابل شجرة الجلجثة ، كان يتأثر إلى حد الصمت، ومن ثم يذهب إلى الكنيسة ، ويقدم الشكر لله .

ويبدو أن أعداداً كبيرة من المبشرين لم تأخذ بهذه الأمور فى اعتبارها . فلم تكن ترى التبشير ، أو تدخل الكنيسة فى أمور دنيا الناس ، ظاهرة من ظواهر اللقاء الثقافى ، حيث ينبغى إعطاؤها الوقت الكافى للتفهم والتكيف ، بل تراه عملا يدخل فى صميم عملية التغيير العاجل . وأن القواعد الأدبية التى يعمل على إعادة بنائها ، وهو يدعو لرسالة المسيح ، لا تمت إلى ثقافة بعينها ، بل هى فى الواقع مصدر الإلهام ومنبعه لكل ثقافة . وعلى هذا الأساس قسر المبشرون

رسالتهم على أنها العمل على أن تقوم المسيحية مقام التقاليد القديمة فى الحياة الدينية فى الحال . وأن تحل أعرافهم محل كل ما نشأ عليه الإفريقى . فكان جهدهم منصبا على نماذج ثقافة كاملة ، نمت وتأصلت فى محيط غير محيط الإفريقيين ، قد تلبى حاجات الرجل الأبيض ، ولكنها لن تكون كذلك للإفريقى الذى لم يألفها . وقد فتح هذا اللون من التفكير الباب للسلبيات التى نسبت إلى البعثات التبشيرية .

فالمبشر الأوروبى جاء إلى مجتمع وهو يسعى – فى المقام الأول – إلى تغييره بالصدمة ، رغم أنه يجهل أوضاعه جهلا تاما . فإفريقيا بالنسبة له كانت بمثابة خريطة خاوية، خالية من أية بيانات ، وكان عليه أن يجمع المعلومات عنها بنفسه ، وهو يجوس أدغالها ويتنقل فى أرجائها ، بل إنه متهم بأنه جاءها وهو يحمل عنها أفكارا مسبقة ، خاطئة ومتحيزة ، وعنصرية غالبا . وكما قال الرئيس كينياتا ، جاء وهو يعتقد أنه سيتعامل مع « أقوام ممتلئين شرا » ، أو غارقين فى وثنيتهم وشقائهم وشغفهم بسفك الدماء . مع أن « هنتر » يؤكد أن علماء الأجناس والاجتماع وجدوا فى المجتمعات الإفريقية ما يناقض هذا كله . فهى كانت تعيش فى مجموعات قبلية ، لكل منها زعيمها ، وكانت لها تقاليدها التى تحول دون اعتداء قبيلة على قبيلة أخرى ، وتسعى إلى العيش فى سلام مع جيرانها . وكان هناك ارتباط وتواصل بين القربى والعائلات ، وعمق فى الحياة الإنسانية عن طريق التقاليد الموروثة المرعية. وفلسفة الأسرة الممتدة عميقة الجذور.

وكانت للقبائل نظمها القضائية الخاصة . وقد جرت دراسة للنظام القضائى المتبع فى إحداها ، وهى قبيلة باروتس فى شمال روديسيا (زامبيا) ، واتضح من الدراسة أن الفكر القضائى الذى تقوم عليه الأحكام ، والإجراءات

التى يتخذها القضاة للوصول إلى الأحكام ، تجعل هذا النظام صالحا لمقارنته بما هو فى أوروبا وأمريكا . فهو وإن إختلف فى الشكل ، لا يختلف من حيث جوهر العدل وسير العدالة .

وكان التعليم التقليدى له أصوله وأساليبه . كان هناك المعلم الذى يدرب أطفاله على سبل كسب العيش ، كما كان ينشئه على الأخلاق والصفات التى تنبع من أرضه ، وتنظم العلاقات الإنسانية والأسرية فى مجتمعه . وكان يعلمه وسائل التعبير عن ثقافته ، وهى الرسم والنحت والرقص والموسيقى والشعر والقصص . وكان هناك التعليم بالتدريب ، حيث يرافق الصبى معلمه ويلازمه . وقد يكون المعلم أباه يعلمه حرفته أو فنه ، فتنتقل المهارة أو الصنعة كأنها إرث تعرف به الأسرة . وكانت الأساطير مدرسة يتعلم فيها الصغار مبادئ الخلق والتعامل . وكانت لها جلسات تضم الصغار والكبار لتدريب ذاكرة الشباب وتقويم مفاهيمهم . أما طقوس القبيلة فكانت مدارس للولد والبنت إذ يتعلمان عن طريقها دروسا فى الحياة ، فى مراحل معينة من حياة كل منهما ، خاصة عند سن البلوغ . فحياة الفرد ، عند معظم الإفريقيين ، تشبه بمجموعة أنفس ، إذ تنتقل خلال عدة مراحل ثابتة بواسطة «شعائر المرور» أو الاجتياز . وتجئ المرحلة الأخيرة بعد الموت ، عندما يصبح الفرد واحدا من الأسلاف .

أما من جهة الدين ، فقد إتضح فى الفصل السابق كيف كانت للمبشر أفكار خاطئة ومشوهة عنه . فالمأثور عن مؤسس جمعيات الآباء البيض تصوره أن ديانات زنوج إفريقيا ما هى إلا مجموعة خزعبلات وأعمال سحرية ، ليس فيها مضمون عن خلود النفس ، وأفكارها عن الآلهة باهتة جدا . وكان هناك من يقول إن الشيطان هو الذى علّم الإفريقى تعدد الآلهة . وكان على المبشرين

أن يمحوا من ذهنه أى أثر للدين القديم ، وللعادات القديمة ، وللتراث القديم أيا كان نوعه . وبهذا التفويض المفتوح ، إندفع أغلبهم يسفّه معتقدات الإفريقيين ، ولم يفوّت فرصة يحقّر فيها طقوسهم ، سواء فى اللقاءات الفردية والأسرية ، أو الاجتماعات العامة ، أو فى فصول المدارس ، رغم إكتشافه مدى تعلق الإفريقيين بها وتقديسهم لها . ولقد دفع هذا المسلك طلبة مدارس الإرساليات إلى تركها والالتحاق بالمدارس الحكومية ، حيثما وجدت ، هربا من إهانة مشاعرهم ، ومواجهة التجريح المستمر لثقافاتهم وأنماط حياتهم (١) ، ذلك لأن المدارس الحكومية لم تتورط فى النهج الذى تورط فيه المبشرون فى المدارس التى يديرونهـــا . وفى كينيا بالذات ضاقت قبائل « الكيكيو » بممارسات الإرساليات فى مدارسها وكنائسها ، فخرجت من كنائس البيض ، وأنشأت كنائس ومدارس خاصة بها .

ويعاب على المبشر الغربى ، فى إفريقيا ، أنه لم يحظ بقسط من اللباقة والحساسية التى إتسم بها رسل المسيح فى كرازتهم ، والتى يجد نفحات منها فى سفر أعمال الرسل ، وفى إعلانات القديس بولس الرسول (١ كو ٩ : ١٩ - ٢٢) . ولم يلتفت إلى قول الرسول فى الرسالة إلى العبرانيين إن « **الله كلم الاباء .. قديما بأنواع وطرق كثيرة** » (عـب ١ : ١) . ولاشك أنه كلم الإفريقيين قديما ،

(١) ولايغيب عن البال ، فى هذا المقام ، أن المبشرين الغربيين الذين جاءوا إلى مصر ، فى القرن الماضى ، تورطوا هم أيضا فى تجريح الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ، ومهاجمة عقيدتها وطقوسها ، رغم عراقتها وانتسابها الرسولى ، وشهادتها المجيدة . وقد بلغ بهم الحد أن استعدوا أبناءها عليها ، وانتزعوهم من رعايتها ، وأدخلوا عوامل التشرذم والتعصب المذهبى إلى داخل الأسر القبطية ذاتها .

فاهتدوا إلى الاعتقاد فى كائن أعلى « هو خالق الجميع » . وفى هذا يقول توما الأكوينى إن الله يعمل بصورة خلاصية فى طقوس الوثنيين . ومما قاله القديس الشهيد جستان : قبل مجئ المسيح كان لدى الناس بذور «الكلمة – اللوجوس» وهكذا أمكنهم الوصول إلى جزئيات من الحق . وعليه فهؤلاء الوثنيون ، وقد عاشوا بالعقل ، كانوا بصورة ما مسيحيين قبل المسيحية . وهذا ما يؤكده اليوم علماء اللاهوت الإفريقيون ، وأيضا الغربيون الذين قاموا بدراسة المعتقدات الإفريقية ، والممارسات والسلوكيات الدينية ، بوعى وموضوعية ، وبعيدا عن عقدة التفوق الثقافى أو العرقى . فهم يرون أن الديانات الإفريقية هى التى أعدت الطريق إلى تقبل المسيحية وانتشارها بين شعوب القارة . وهذا ما يقال فى مصر بالنسبة لمعتقدات ولاهوتيات الفراعنة .

والمؤكد أن المبشر الغربى كان يجهل عقل ووجدان الإنسان الإفريقى ، وكان يعتقد أنه يقوم بدور المنقذ له : ينقذه من همجيته ، ويمدّنه ، إلى جانب خلاص روحه بتنصيره . فكان يهتم بالآثار الثقافية والحضارية المصاحبة لتقبله للمسيحية . كان الملْبس إحداها . ففى السجلات ما يشير إلى أن بعض المبشرين الأوائل كانوا يصرون على الذين يتقدمون للتناول أن يلبسوا الملابس الأوروبية. كما انتشر وسط البعثات التبشيرية ما سمى « بإنجيل القميص النظيف » الذى كانت إفريقيا بأمسّ الحاجة إليه، واعتبر رمزا للفضائل كلها. فهو من جهة يعرى القيم الإفريقية القديمة البالية ، ويحث الإفريقى من جهة أخرى على تجاوزها إلى اللباس الجديد، والمنزل المريح، والأخذ بأسباب النظافة العامة ، والطرق الصحية . لم يكن «المسيح» وحده ، الذى كان على الإفريقى أن يلبسه من أجل خلاصه ، بل رموز الحضارة الغربية أيضا التى لا محل فيها لقطعة القماش التى

تستر العورة وحسب ! ولو تنبه المبشر للعمق اللاهوتى فى التجسد الإلهى ، إذ أخذ السيد المسيح جسد الإنسان ، الذى أصلا من تراب ، لاتخذ لنفسه ما للأفريقى من لباس وطعام وهوان ، فى روح التواضع وسر الحب ، كى يأتى به إلى المسيح المخلص والمنقذ .

ولعل أخطر السلبيات التى تُنسب إلى المبشر ، ماكان منها ذو طابع سياسى ، فهو متهم بأنه كان أداة من أدوات الغزو والتوسع الغربى . وهو اتهام يحسن عدم الأخذ به على علاته ، لا دفاعا عن المبشر ، أو الرجل الأبيض عموما، أو عن أخطائه ، بل تأكيدا للموضوعية والنزاهة عند إصدار الأحكام المطلقة . فمع التسليم بأن هناك فريقا من المبشرين تورط فعلا فى التعاون مع السلطات الاستعمارية وتحقيق أهدافها ، لأسباب سياسية أو انتهازية ، فليس من العدل تعميم الحكم على الجميع ، فهناك ظروف وتصرفات لا حيلة للمبشر الملتزم فى تجنبها. فهو مثلا لم يكن باستطاعته أن ينعزل عن الحكام، لحاجته إلى مساعدتهم للحصول على تسهيلات للخدمات والأنشطة التى يقوم بها فى منطقة إرساليته ، بل كان عليه أن يلجأ إليهم ويتردد عليهم فى طلب العون لمخدوميه من الإفريقيين أنفسهم ، أو لرفع الظلم عنهم، أو لحمايته وحماية مؤسساته من المتطفلين . وكان من شأن هذا الارتباط أو الاتصال المستمر أن يثير شكوك الإفريقى أو يضعف من ثقته فيه ، خاصة وأنه كان يعانى الأمرين من السلطات الاستعمارية ، وقد عاداها وتحداها من أجل أرضه وقيمه وحريته .

ومن العجيب أن بعض القيادات السياسية فى أوروبا ، فى محاولة لإبراز دور المبشر فى نشر الحضارة الغربية ، كانت تدمغه بالعمالة من حيث لاتدرى ،

فلطالما رددت شعارات مثل : « إن مبشرينا يوسعون من رقعة الإمبراطورية » . أو نشرت كتابات تساوى فيها بين المبشر والتاجر باعتبارهما رائدين للاستعمار . وقد كتب رينيه مونيير ، عالم الاجتماع ، يقول إن المستعمرين الذين جاءوا متأخرين وجدوا فى المبشر ظلا يستريحون تحت جناحه . وكانت بعثاته وسيلة الغزو والاستغلال . أى أن سلطات الاستعمار كانت تستغل المبشرين ، أو تستفيد من جهودهم فى بسط سلطانها .

ومهما يكن الأمر ، فكل هذه السلبيات وغيرها ، قد خضعت للدرس والتحليل ، من قبل الكنائس الغربية فى أوروبا وأمريكا ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية . واتسمت هذه الدراسات بالموضوعية ، وبالأمانة مع النفس . فلم تحاول التقليل من شأنها . أو تمييع أسبابها ، أو موازنتها بالإيجابيات العظيمة التى كانت وما زالت للعمل التبشيرى فى إفريقيا . بل إنها دعت بعض أوساطها إلى مواجهة أمينة مع الذات ، وإلى توبة صادقة عما سلف ، من بعض مظاهر الأنانية ، أو الغرور والعنجهية ، والعنصرية أحيانا ، والتى لا تتفق وإنجيل المسيح ، ومحبة المسيح . وهى اليوم تصر على أن تعمل خلف الإفريقى ، وتحت رئاسته ، ربما لتمحو آثار حقبة ماضية من هيمنة المبشر الأبيض ، وإصراره على الرئاسة والسلطة المطلقة .



الفصل الرابع

الكنائس الوطنية الإفريقية

المقصود بالكنائس الوطنية

الكنائس الوطنية هى التى إنبثقت من الكنائس الأم التى أقامتها البعثات الدينية التى جاءت إلى القارة ، جنوبى الصحراء ، خاصة فى فترة المد التبشيرى ، حوالى منتصف القرن الماضى ، وقد تأفرقت قياداتها وإداراتها . ومن المأثور أن قيادات غربية بارزة تنبهت ونبهت إلى أهمية أن يأخذ الإفريقى مكانه فى قيادة كنيسته ، فعلى الجانب الكاثوليكى ، كان هناك الكردينال « لافيجرى » ، رائد العمل التبشيرى للكنيسة الكاثوليكية فى القارة السمراء ، إذ أنه نادى من البداية بأن تكون إفريقيا للإفريقيين(١) . وعلى جانب الكنائس البروتستانتية ، شدد «لفنجستون» على دور الإفريقى فى نشر المسيحية فى قارته ، مؤكدا أن مستقبل الكرازة المسيحية واتساعها ، رهن بأن يقوم الإفريقيون أنفسهم بالتبشير ، ونشر دعوة الخلاص . ولفنجستون هذا هو المبشر ذو الجاذبية المسيحية الفريدة الذى أحب الإفريقيين حبا جما ، وأحبوه بدورهم . وقد صنع بعض أتباعه أسطورة فى الحب والوفاء ، حين أصروا على حمل جثمانه من مجاهل الداخل إلى الساحل ، مسافةً تزيد على ١٥٠٠ ميلا ، فى رحلة شاقة استغرقت تسعة شهور .

(١) وكان هذا أيضا رأى دانيل كمبونى ، القاصد الرسولى ، الذى عمل فى السودان (١٨٥٧-١٨٥٩) . وقد فتح مركزا فى القاهرة (١٨٦٧) لتدريب الأفارقة على العمل التبشيرى . وأهتم بفتح المدارس فى القاهرة والخرطوم (١٨٧٣) لتعليم الوطنيين .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] في بداياتها ، فقد مرت بعدة مراحل متتالية . ففي البداية مرت بمرحلة [illegible] من [illegible] بالوحي الجديد ، [illegible] الشريعة في هذه المرحلة [illegible] الكتاب المقدس ، [illegible] من الكتب الدينية وكتب [illegible] إلى [illegible] على [illegible] بالمسيح ، الأفكار الجديدة [illegible] والتعذيب [illegible] ، [illegible] الأعمال الجديدة .

ثم دخلت الكنيسة في مرحلة [illegible] ، والأفكار والتعاليم الجديدة بعد [illegible] من [illegible] السابقة ، وخاصة تلك التي لا تتفق [illegible] المسيح ، [illegible] إلى ممارسة [illegible] والسلوك حسب تعاليم المسيح [illegible] الشريعة في هذه المرحلة [illegible] من قوة صالحة ، [illegible] بالنقل ، [illegible] المسيح .

وفي المرحلة الثالثة دخلت الكنيسة الإفريقية [illegible] والمسئولية ، وذلك حين [illegible] من إيمانها الجديد . فمن جهة [illegible] أمام العناصر الإفريقية [illegible] التي رفضت [illegible] ، [illegible] ، تقاوم الكنيسة [illegible] بكل [illegible] من أسلحة القوة ، ومن جهة أخرى رفضت الانضمام إلى [illegible] . التي [illegible] في المسيح بعد قبوله ، أو بالأحرى الإيمان [illegible] ، أو الانضمام إلى [illegible] لأسباب سياسية أو شخصية . [illegible] في مواقفها هذا الكثير من [illegible] والاضطهاد . وهكذا [illegible] كنيسة المسيح إلى [illegible] [illegible] إفريقية ، [illegible] . ثم [illegible] أو عقليًا .

[illegible] المرحلة الخامسة في تاريخ الكنيسة

فى إفريقيا إفريقية إسما وفعلا ، وتتمتع باستقلالها وسيادتها الكاملين . وساندها زعماء الكنائس الممثلة ببعثات فى القارة ، نحو تحقيق هذا الهدف ، وإن كان تحقيقه الفعلى قد تم فى فترات اختلفت من مذهب إلى مذهب ، كما اختلف النمط الذى تحقق عليه ، وفقا للسياسات والنظم العامة للكنائس الأم . فالكنائس الأنجليكانية والبروتستانتية تشكلت لها مجالس من العلمانيين الوطنيين لإدارة شئونها ، كما تسارعت عملية الأفرقة فيها ، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى ، حين اضطرت إلى الاعتماد على مواردها الذاتية من المال والرجال ، وتزايدت بذلك مشاركة ومسئولية الوطنيين . ولقد حث أساقفة الكنيسة الأنجليكانية ، مثلا ، على دعم المجالس الكنسية الوطنية واستقلالها ، والعمل على تنميتها ، ونقل المسئولية إلى أعضائها للقيام بتنظيم كنائسهم وتبشير مواطنيهم ، بحيث تكتفى الكنائس الأم بمناقشتهم ، بل وباستشارتهم قبل أية خطوة تخطوها . ومن المعروف أن القوانين الرسمية لجمعية لندن التبشيرية ، تنص على أنه ينبغى أن يكون لكل جنس مكان فى نظام الكنيسة الجامعة ، فلا يظل المسيحيون فى إفريقيا وآسيا خاضعين للكنائس الأوروبية ، بل يجب أن يكون لهم دستورهم الخاص ، ونظامهم الكنسى الخاص .

أما الكنائس الكاثوليكية فلم تُشكَّل لها مجالس من العلمانيين الوطنيين لإدارة شئونها ، ذلك لأن تقاليد الكنيسة تحصر كل أمورها ، الروحية والزمنية ، فى يد الإكليروس وحدهم . ومعنى هذا أن النمط الاستقلالى ، فى الكنائس الإفريقية غير الكاثوليكية ، لم يكن موجودا فى الكاثوليكية ، كما أن عملية الأفرقة ذاتها كانت أبطأ . على أن الأمور تغيرت بحلول العقد السادس من هذا القرن ، بعد مجلس الفاتيكان الثانى (١٩٥٩) ، ونتيجة للتغيرات العامة التى

طرأت على سياسة كنيسة روما نحو الكنائس الوطنية التابعة لها ، إذ بدأت تسمح لها بالاستقلال فى أمورها الإدارية جميعها ، على أن تحتفظ بارتباطها ببابا روما ، وبأسس العقيدة الكاثوليكية . وأخذت إرساليات كاثوليكية كثيرة تسرع فى عملية الأفرقة . ومن بين التسهيلات التى قدمتها ، مثلا ، التخلى عن شرط المؤهلات الدراسية التى كان على الإكليروس الوطنى الحصول عليها ، والتى كانت تمثل عقبة كبيرة فى طريق توفير العدد الكافى من الكهنة الوطنيين . وشرط المؤهلات هذا يمثل جزءاً ثابتا من سياسة روما ، التى تطلب أن يكون للإكليروس الوطنى فى أى مكان فى العالم ، نفس المؤهلات التى للأوروبى ، لأن الإكليروس الكاثوليكى ، لتبعيته المباشرة لكنيسة روما أينما كان ، ولخضوعه لرئاسة البابا ، يحق له الخدمة فى أى مكان فى الكنيسة الكاثوليكية فى العالم ، بصرف النظر عن جنسيته وجنسه ، بل إن الطريق مفتوح أمامه ليجلس على عرش بطرس ، كما هو الحال مع البابا يوحنا بولس الثانى البولندى الأصل . وإن كان الاختيار الأغلب هو من بين الكرادلة اللاتين .

ومن بين الكنائس القليلة التى لم تتحمس لاتجاهات الأفرقة ، بل قاومتها ، الكنيسة المصلحة الهولندية فى جنوب إفريقيا ، التى تدعم سياسة الأبارتهيد ، أو التفرقة العنصرية ، والتى لم تهتم بإعداد قيادات دينية إفريقية ، أو تأهيلها لتحتل مكان الرعاية والتدبير . وهى كنيسة فقدت مصداقيتها الإنجيلية ، وتخلفت كثيرا وطويلا عن ركب الحب المسيحى والعطاء بلا حدود ، بل تخلت عن دعوتها التى تقوم على أنه **« ليس يهودى ولا يونانى . ليس عبد ولا حر . ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعا واحد فى المسيح يسوع »** (غل ٣ : ٢٨) .

فى إفريقيا إفريقية إسما وفعلا ، وتتمتع باستقلالها وسيادتها الكاملين . وساندها زعماء الكنائس المشتلة ببعثات فى القارة ، نحو تحقيق هذا الهدف ، وإن كان تحقيقه الفعلى قد تم فى فترات اختلفت من مذهب إلى مذهب ، كما اختلف النمط الذى تحقق عليه ، وفقا للسياسات والنظم العامة للكنائس الأم . فالكنائس الأنجليكانية والبروتستانتية تشكلت لها مجالس من العلمانيين الوطنيين لإدارة شئونها ، كما تسارعت عملية الأفرقة فيها ، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى ، حين اضطرت إلى الاعتماد على مواردها الذاتية من المال والرجال ، وتزايدت بذلك مشاركة ومسئولية الوطنيين . ولقد حث أساقفة الكنيسة الأنجليكانية ، مثلا ، على دعم المجالس الكنسية الوطنية واستقلالها ، والعمل على تنميتها ، ونقل المسئولية إلى أعضائها للقيام بتنظيم كنائسهم وتبشير مواطنيهم ، بحيث تكتفى الكنائس الأم بمناقشتهم ، بل وباستشارتهم قبل أية خطوة تخطوها . ومن المعروف أن القوانين الرسمية لجمعية لندن التبشيرية ، تنص على أنه ينبغى أن يكون لكل جنس مكان فى نظام الكنيسة الجامعة ، فلا يظل المسيحيون فى إفريقيا وآسيا خاضعين للكنائس الأوروبية ، بل يجب أن يكون لهم دستورهم الخاص ، ونظامهم الكنسى الخاص .

أما الكنائس الكاثوليكية فلم تُشكَّل لها مجالس من العلمانيين الوطنيين لإدارة شئونها ، ذلك لأن تقاليد الكنيسة تحصر كل أمورها ، الروحية والزمنية ، فى يد الإكليروس وحدهم . ومعنى هذا أن النمط الاستقلالى ، فى الكنائس الإفريقية غير الكاثوليكية ، لم يكن موجودا فى الكاثوليكية ، كما أن عملية الأفرقة ذاتها كانت أبطأ . على أن الأمور تغيرت بحلول العقد السادس من هذا القرن ، بعد مجلس الفاتيكان الثانى (١٩٥٩) ، ونتيجة للتغيرات العامة التى

طرأت على سياسة كنيسة روما نحو الكنائس الوطنية التابعة لها ، إذ بدأت تسمح لها بالاستقلال فى أمورها الإدارية جميعها ، على أن تحتفظ بارتباطها ببابا روما ، وبأسس العقيدة الكاثوليكية . وأخذت إرساليات كاثوليكية كثيرة تسرع فى عملية الأفرقة . ومن بين التسهيلات التى قدمتها ، مثلا ، التخلى عن شرط المؤهلات الدراسية التى كان على الإكليروس الوطنى الحصول عليها ، والتى كانت تمثل عقبة كبيرة فى طريق توفير العدد الكافى من الكهنة الوطنيين . وشرط المؤهلات هذا يمثل جزءاً ثابتا من سياسة روما ، التى تطلب أن يكون للإكليروس الوطنى ، فى أى مكان فى العالم ، نفس المؤهلات التى للأوروبى ، لأن الإكليروس الكاثوليكى ، لتبعيته المباشرة لكنيسة روما أينما كان ، ولخضوعه لرئاسة البابا ، يحق له الخدمة فى أى مكان فى الكنيسة الكاثوليكية فى العالم ، بصرف النظر عن جنسيته وجنسه ، بل إن الطريق مفتوح أمامه ليجلس على عرش بطرس ، كما هو الحال مع البابا يوحنا بولس الثانى البولندى الأصل . وإن كان الاختيار الأغلب هو من بين الكرادلة اللاتين .

ومن بين الكنائس القليلة التى لم تتحمس لاتجاهات الأفرقة ، بل قاومتها ، الكنيسة المصلحة الهولندية فى جنوب إفريقيا ، التى تدعم سياسة الأبارتهيد ، أو التفرقة العنصرية ، والتى لم تهتم بإعداد قيادات دينية إفريقية ، أو تأهيلها لتحتل مكان الرعاية والتدبير . وهى كنيسة فقدت مصداقيتها الإنجيلية ، وتخلفت كثيرا وطويلا عن ركب الحب المسيحى والعطاء بلا حدود ، بل تخلت عن دعوتها التى تقوم على أنه « *ليس يهودى ولا يونانى . ليس عبد ولا حر . ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعا واحد فى المسيح يسوع* » (غل ٣ : ٢٨) .

واليوم تقوم حاليًا الكنائس الوطنية ، في كافة الأقطار الإفريقية ، تضم الآلاف من أتباع القبائل ، ويتمثل في مجتمعاتها مختلف المذاهب والاتجاهات الكنسية في كنائسها الأم ، من كاثوليكية وأنجليكانية ، ولوثرية وميثودية ومشيخية ، إلى آخر السلسلة ، يقابلها ـ إلى جانب كنائس مصر وإثيوبيا ـ مجلس كنائس عموم إفريقيا ، التي تتمثل في السبعينات على نحو أكبر الكنيسة الإفريقية والقبلية ، ويضم [illegible] ، ويتلاقى في أنشطته ومجهوداته مع مجلس اتحاد الكنائس العالمي ، ويبلغ عدد الكنائس والمجالس المسيحية القومية الممثلة في المجلس ١٤٢ من ٣٦ دولة إفريقية ، وهدف الكنائس مستمد إلى الهوية بالسلطة ، والتمسك بالكرامة المسيحية ، والرغبة أن يصير [illegible] الكنائس الأم ستكون من مسيحية إفريقية أو تكوين عنصر تحديد لها ، [illegible] هويتها والتمسك بكرسيها .

في ظل الأفريقية من أجل تحقيق [illegible] ، بمتحدثة الوحدة والتوحيد بين في بعض الأقطار الإفريقية ، مثل كينيا ، اتجهت السياسة الكنسية إلى التركيز على إقامة كنائس متحدة للبيض والسود كل على حدة ، وتلك الأسس مختلفة عن إبعاد الكنيسة عن الهوية في أي مظهر من مظاهر العنصرية التي سادت كينيا قبل الاستقلال ، وكانت سائدة حتى منتصف ١٩٩٤ في جنوب إفريقيا ، وقد توحدت الكنيسة المختلفة ، التي تجمع بين جميع الأجناس ، بعد ما سقطت الحواجز المنفصلة بينها . أما الاتحاد الذي تم بين الطوائف البروتستانتية ، العمل تحت قيادة ، أو رئاسة ، الإفريقيين في كنائسهم الوطنية ، الأمر الذي يحقق وحدة الكنائس المختلفة ، ويحقق تركيزها في جسد المسيح .

بالواقع إن الكنائس الغربية ، باستثناء الكنيسة المصلحة الهولندية (١) في جنوب إفريقيا ، قد بذلت جهدها ، طوال عقود عدة من هذا القرن ، لتباعد بينها وبين كل صور العنصرية ، بل وندّدت بها ، وبأساليب ممارستها على كافة الأصعدة ، سواء أكانت دينية أو سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية . وأنشأت أجهزة فيها تقوم على مناهضتها ، وتدعو الحكومات الغربية إلى نبذها ، وإلى معاملة الإفريقيين على قدم المساواة مع الأوروبيين في جميع النواحي .

وكان لظهور الحركة المسكونية المسيحية ، ودعم وتنظيم أقوى في العشرينات من القرن الحالي ، أثره البالغ في دعم الاتجاه إلى قيام الكنائس الوطنية ، وتشديد الحرب ضد التفرقة العنصرية . فقد بدأت تدعو إلى مسيحية مسكونية ، ذات أفق واسع ، باتساع العالم كله ، تتساوى فيها الكنائس جميعها ، الشرقية منها والغربية ، الأوروبية والإفريقية والآسيوية والأمريكية وغيرها . واتخذت خطوات عملية ، تقوم على مفاهيم لاهوتية وإنجيلية ، لمساندة الكنائس الوطنية في العالم الثالث ، وتقوية استقلاليتها ، والعمل على ظهور قيادات كنسية وطنية لها وتمكينها ، بحيث يكون لها أيضا دورها في الحركة المسكونية التي يقودها مجلس الكنائس العالمي . وقد أتت هذه التوجيهات ثمارها ، للدرجة أنه في اجتماعات المجلس ، التي انعقدت دورته في مدراس بالهند ، عام ١٩٣٨ ، كان العنصر الوطني هو الغالب بين صفوف الممثلين والمندوبين .

(١) طرأت تغيرات في مفاهيمها اللاهوتية في الثمانينات ، وأعلنت صفة رسمية عام ١٩٨٦ ، حين أعلن مجمعها أن سياسة «الأبارتهيد» خطيئة . وهي السياسة التي سقطت نهائيا ، منتصف عام ١٩٩٤ ، بعد ما جرت انتخابات نيابية عامة لجميع الأجناس ، نجح فيها حزب المؤتمر الإفريقي ، وصار نلسون مانديلا أول رئيس جمهورية أسود لجنوب إفريقيا متحد الأجناس .

الكنيسة الإفريقية ودورها الوطنى

كانت الكنيسة الوطنية ،وما زالت مؤهلة لتلعب دورا بالغ الأهمية ، فى حياة مجتمعاتها السياسية والاجتماعية ، إلى جانب مسئولياتها الروحية والعقيدية . كان كم القضايا الحساسة ، وتلال المشاكل التى تحاصرها ، تفرض عليها إلتزامات جساما ، وتتطلب منها قوة وشجاعة لمواجهتها فى إطار رسالتها ودعوتها النبوية . لم تكن حركة الكنائس المنفصلة ، وما شابهها من بدع ، أو عدم إستقامة فى الرأى ، إلا واحدة من هذه المواجهات ، التى صمدت أمامها ، بتمسكها الثابت بالأسس الجوهرية للعقيدة المسيحية ، وقانون الإيمان النيقاوى .

كان هناك أيضا الاستعمار وضرورة مقاومته . كما كانت هناك المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، المتمثلة فى القبلية وبعض المفاهيم البالية ، وفى التخلف والفقر ، وضرورة معالجتها . ومنذ البداية ، أخذ علم لاهوتها ، فى الاعتبار ، قضية الخلاص المتكامل أو الشامل ؛ أى تلازم الخلاص الأبدى أو الروحى ، مع خلاص الجسد من المرض والفقر والجهل ونتائجها . وأخذ أيضا فى صلبه فكر التحرر والتحرير ، ليس فقط تحرر الإنسان الداخلى ، بل والخارجى أو السياسى أيضا ، أى من سيطرة المستعمر وتعسفه . وهذه المضامين اللاهوتية كانت مستمدة من واقعها ، من جهة، كما كانت ، من جهة أخرى ، صدى لعلوم اللاهوت فى أمريكا اللاتينية ، التى تواجه ذات المشاكل وتعانى من نفس التخلف .

ولاشك أن الكنيسة الوطنية قد ساعدت على إضعاف الهيكلية القبلية ، لصالح نمو الحركة الوطنية أو القومية . فالكنيسة ، باعتبارها هى ذاتها مدرسة ،

وايضا عن طريق مدارسها التعليمية ، إلى جانب تباين الانتماءات القبلية لأبنائها ، أعطت الإفريقى إنتمائية جديدة ، هى أوسع من قبيلته ، بل ومن جنسه ، فبات ينظر إلى وطنه من خلال إطار يتعدى حدود قبيلته ، مما أدى إلى نمو مفهومه الوطنى أو القومى على مستوى الأمة . كما ساعدته عضويته فى مجالس الكنائس ، والمسئوليات التى أُسندت إليه فى كنيسته ، على الدراية بأساليب الإدارة والحكم ، بحيث أصبح مهيئاً لخلق مجتمع يحكم نفسه بنفسه . فقد توفر له المجال للقيادة ،ولإبداء الرأى ، واحترام الرأى الآخر ، ورأى الأغلبية ، وحرية المناقشة والحوار السليم. وقد تدعمت هذه الاتجاهات البناءة بظهور الجيل الذى تعلم من طفولته فى مدارس الإرساليات ، ثم التحق بالكليات أو الجامعات المحلية مثل جامعة مكريرى فى شرق إفريقيا ، حيث سادت ديموقراطية العلم الذى كان فى متناول الجميع دون تفريق ، فتكونت طبقة جديدة ، ذات حيوية وإمكانيات ، إلتحقت بالمؤسسات وبالإدارات الحكومية ، وصار لها نفوذها ومكانتها .

وهذا الإفريقى الجديد ، الذى ساهمت الكنيسة الوطنية فى تكوينه ، هو نفسه الذى ساعدها على القيام بدورها الإيجابى فى الحركة الوطنية ، فكانت هى المعبّر عن أمانى شعوبها القومية ، والبوتقة التى انصهر فيها القياديون من الوطنيين، وتبلورت فيها شخصياتهم ، كما تعمقت معرفتهم بقدر الإنسان وقدر أوطانهم ، ولعل أكبر دليل على نجاحها أن معظم الشخصيات الوطنية التى تصدت للاستعمار فى قمة قوته ، وقادت حركات التحرير ، كانت شخصيات كنسيه . وقد أجمل « سيتولى » ، الزعيم الجنوبى الإفريقى ، وصف بطولاتها الوطنية بقوله إن الكنيسة الوطنية كانت الملاك الحارس للوطنية .

وبرغم تباين الآراء حول موقف المبشرين الأجانب ، وما تردد عن سلبياتهم ، تؤكد تسجيلات غالبيتهم كيف وقفت بعثاتهم وكنائسهم موقف الصديق للإفريقيين ، ترد عنهم الكثير من مظالم الحكم الاستعمارى ، وتدافع عن حقوقهم ، كحقهم فى حكم أنفسهم ، وتحتضن قضاياهم ، وعلى رأسها مشكلة الأرض وسوء توزيعها ، أو اغتصابها من قبل المستوطنين البيض . فلما قامت الكنائس الوطنية ، وهى التى ترعرعت فى أحضانها ، ورثت مسئولياتها ، واضطلعت بأدوارها ، وأخذت تدافع عن حقوق أبنائها من العمال الذين عانوا من التفرقة والسخرة المقنعة ، وحقوق المواطنين فى الأرض ، خاصة فى شرق ووسط إفريقيا ، حيث سيطرت هذه المشكلة ، إلى جانب حقوق الجميع فى الكرامة والحرية والاستقلال .

وهذا لايمنع ، كما جاء ذكره آنفا ، من وجود جماعات من المبشرين البيض ، باتجاهات استعمارية ، أو بمفاهيم خاطئة حول عدم أهلية الإفريقى للحكم والقيادة ، أو حاجته إلى الحكم الاستعمارى من أجل تطويره وتمدينه ، فوقفت فى وجه الحركات التحريرية ، على أساس أنها سابقة لأوانها ، أو أنها فى غير صالح الإنسان الإفريقى على المدى القصير ، وحاولت تعطيل المسيرة أو تأخيرها ، وتقويض الحلم الإفريقى فى الاستقلال والسيادة . ولكن تيار الكنيسة الوطنية تغلب فى النهاية ، من خلال قياداتها الثورية الواعية ، وتوعيتها لأبنائها بالمفهوم التحريرى الإنجيلى ، ومن خلال دراسة التاريخ الإنسانى ، وتوضيح القيم المسيحية التى تؤكد حرية الإنسان ، وحقه فى الحياة الأفضل .

وعلى الجانب الآخر ، قامت حركات تحريرية ، خارج نطاق الكنيسة ، قادها أناس فاقت طموحاتهم ما كانت تقدمه أو تقوم به كنائسهم ، واعتملت

فى صدورهم الثورة على كل شئ ، دون أى تقيد بالاعتبارات الكنسية أو الروحية . واستهدفوا القيام بدور إفريقى راديكالى ، يتحدون به الرجل الأبيض ، ويحطمون أسطورته ، ويتخلصون من قيوده ووصايته ، ويقضون على الأفكار والآراء الاستعمارية ، التى حرمتهم من مساواتهم بغيرهم من شعوب الأرض . ولعل واحدا من الأسباب التى أوغرت صدورهم ، وحرضتهم على الثورة ، هو الإحباط الذى استولى عليهم ، عندما قصرت الكنائس الأم (الغربية) عن مساعدتهم بقوة وإصرار ، حين تطلعوا إلى التحرر من الاستعمار وسيطرة حكوماته ، الأمر الذى أثار شكوكهم فى نوايا تلك الكنائس ، وفى أهدافها المضمرة ، وحدا بهم إلى الانفصال عنها فى عنف . فقام بعضهم بتأسيس كنائس منفصلة متطرفة فى وطنيتها وأساليبها ، مفضلين ذلك على الانخراط فى الكنائس الوطنية المستقلة ، التى هيأت البعثات التبشيرية قيامها ، لأنها فى رأيهم كانت ربيبة الغرب ، ولم تتحول ، فى تقديرهم ، إلى مؤسسات وطنية تقدمية تتواءم مع طموحاتهم وإمكاناتهم الثورية . ولا يخفى أن بعضهم تأثر بالأفكار اليسارية التى كان لها بريقها فى تلك الأيام .

علم لاهوت التحرير

وجد علم لاهوت التحرير طريقه إلى الظهور فى بدايات المواجهة بين القومية الإفريقية والاستعمار الغربى ، وفى صور التمرد الإفريقى على ألوان المذلة والدونية التى فرضها المستعمرون البيض على أصحاب البلاد . وقد ساهمت عوامل كثيرة على بلورته وتوطيده ، منها انتشار أفكار الحرية والمساواة فى البلدان الإفريقية خاصة فى أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية . فهى الأفكار التى خاض الغرب الحرب على أساسها ، وشاركت فيها إفريقيا بأبنائها ومواردها .

ومنها أنه أثر على صفة التدين الإفريقي، ومنح أسلوبا [illegible]
السياسية والاجتماعية. ومنها تحرر العلاقة التي [illegible] الإفريقي [illegible]
مسيحية الإرساليات، والتي أعطت بعده قوة الإنجيل في إطار [illegible]
واحتياجاته. ومنها ترسيخ لمخرج التطلعات التي تتحقق عنه [illegible]
بالإنسانية. كانت هذه الصورة [illegible] التي أصلت [illegible]
ككل، في العالم الغربي المسيحي، وقبلها الكيانات الصناعية [illegible]
والقضاء من تضخم المصلحة العصرية على حساب الروح الوطني [illegible]
الاتجاهات [illegible]، ويحقق، الفقر، والعنف [illegible] أو السياسي [illegible]
عن ذلك من معطيات قيمة وحضارية.

في ضوء لاهوت التحرير [illegible] من الكنيسة [illegible]
إلى الكتاب المقدس [illegible] أصول التحرير [illegible]
كما يسجل ملامح الحرية [illegible] وكذلك [illegible]
المقدس، ويؤكد على أنه [illegible] أخلاقية [illegible] يمكن [illegible]
في المجتمع الأوسع [illegible] على [illegible] الفعل.

ويدعو لاهوت التحرير إلى تحرير كل الإنسان، وليس تحرير جزء منه [illegible]
مستقل عن بقية كيانه الإنساني. فمع أن التحرير سيشمل التحرر من [illegible]
[illegible] الحياة [illegible] الروح
[illegible] هذا التحرير لا ينحصر في [illegible] النفس البشرية،
[illegible] الحياة [illegible] مع العالم، ولكنه يشمل أيضا
العلاقات بين البشر [illegible] في مختلف التنظيمات الاجتماعية
والاقتصادية والسياسية والثقافية. ولذا كان التحرر الحق هو التحرر من

العالم وعلاقته، أو الخروج منه بصورة أو بأخرى. وإذا هذا النمط من الروحانية
الأخرى المجتمعات من كانت بحوزتهم الثقة في العالم. ولهذا فلاهوت التحرير
يعني بالذين أمسكت بهم مسألة الحياة واكتووا بها، والذين بوسعهم ترك
الخروج من العالم. وهو لهذا يركز على مشكلة الفقر، والذين [illegible]
وهزلوا بسبب الاستغلال والقهر، وسحقوا تحت سيطرة الأقلية المترفة. ويفسر
وجود هذه الأوضاع على أنها نتيجة لخطيئة الأقلية وغياب العدالة، وسيطرة
الأنانية وكيانات لا تتفق وملكوت الله. فهو إذن دعوة للوقوف مع الفقير
والضعيف، وضد كيانات الاستغلال والاحتكار في كل صورها.

وهو يستعين بالقيم الإفريقية التقليدية، والنابعة من التراث والروحانية
الإفريقية، والتي أهمل المبشرون وجودها، أو محوها حفاظا على أساس عدم
صلاحيتها. بينما كان واجبهم أن يستكملوا المثال المسيحي من أن يتجسد في
الروحانية الإفريقية، حتى يكون بإمكانها تلبية احتياجات الإنسان الإفريقي،
وتحقيق خلاصه، أي مثلما أخذ المسيح جسدنا الترابي ليخلص إنسانيتنا.

ومن بين هذه التقاليد والقيم المستمدة والأرواح الحية، باعتبارها
مكونات الإنسان في سعيه نحو رفاهيته ونجاته، وضد أخطاء الشر التي تسعى إلى
إلحاق الضرر به وبأسرته. وهناك «الأسرة الممتدة» بفلسفتها ودعوتها الإنسانية،
وهي قيمة إفريقية عميقة الجذور، تدعم روح التضامن والتعاون الأسري،
فالأسرة بجميع أفرادها وأقربائها تجاهد جهادا معا، من أجل الحياة الأفضل،
التي لا تتحقق إلا بالمشاركة الحقة والمساواة المستمرة. فهي إذن حرب ضد
الفردية، باعتبارها نزعة تجرد الإنسان من الصلة التي تقيه من العزلة. ويدعم
هذه القيمة قيمة أخرى متأصلة في حياة الإفريقي التقليدية وهي المساواة.
والمساواة هنا لا تعني أن الكل متماثلون، بل تعني أن الذي أتيح له أن يملك،

بل يجمع الثروة أو القوة، مستندًا أن عليه توزيع ما يملك، بمساواة [illegible] بين أقرانه وجيرانه، عندما تدعو الضرورة إلى ذلك.

ولاهوت التحرير، في الواقع، أمريكي لاتيني المولد(٢). ويعتمد [illegible] على فلسفة «الفقر والفقير» التي تقول أن الفقر «مفتقر» على [illegible] حية، يحكمه العبودية والتبعية. الأمر الذي مكن المستغلين أن يستغلوا [illegible] مصالح شخصياتهم، كما مكن المستعمرين من أن يستعمروا ويسلبوا الشعوب حريتها. وهو يدعو إلى حق الفرد العادي في «القوة»، أي مشاركة القوى الفاعلة في المجتمع، بحيث يكون له رأي وصوت، وحق في التعبير عن نفسه. وبذلك يتسنى قيام مجتمع عادل متكافئ، متحرر من السيطرة الطبقية. ويؤكد أن هذا هو فحوى دعوة الإنجيل لمن يقرأه بتعمق. والكنيسة لا ينبغي أن ينحصر اهتمامها في الحياة الآتية، أي الحياة الأخرى الأبدية وحسب، بل هي مدعوة أيضًا لأن تهتم بالحياة الحاضرة، وبالإنسان في حاضره، ويحققه في الحياة الحرة الكريمة. كما أن المسيحيين مدعوون للإسهام بقيام العدل الآن، أي في هذا العالم، والقضاء على كل مظاهر الظلم. فهذا بالحق هو خلاصة دعوة السيد إلى الملكوت الجديد.

(٢) يعتبر الأب جوستاف جيتيرز Gustavo Gutierrez، وهو كاهن كاثوليكي من [illegible] أب هذا الفكر. وله كتابه ولمحاته في لاهوت التحرير، وكان يعمل مستشارًا لاتحاد الطلبة في بيرو، ومتخصصًا في جامعة ليما الكاثوليكية، في قسم اللاهوت، وفي قسم العلوم الاجتماعية، حيث كان يدرس الفلسفة الماركسية.

ويشار إلى الأب Bartolome de la Casas الإسباني، الذي عمل في بلاد [illegible] أوائل القرن السادس عشر، بأنه مؤسس هذا الفكر، [illegible] إلى جانب الفقراء والهنود في العالم الجديد.

ولقد مهدت أحداث أمريكا اللاتينية، وأمريكا الوسطى واشتعال الثورات في بعض أقطارها، والعنصرية في إفريقيا وظهور الأيديولوجيات اليسارية، إلى اتجاه ما يسمى «بلاهوت التحرير» نحو نوع من الراديكالية. ففي عام ١٩٦٦ ظهرت تأملات إنجيلية(١)، سرعان ما لقبت «باللاهوت الثوري»، وجرى الترويج لها في أوساط أمريكا اللاتينية وبقية العالم الثالث وخاصة إفريقيا. وكانت تتضمن فصلا عن «علم لاهوت العنف».

«واللاهوت الثوري»، والذي يدعم نفسه بمقالات إنجيلية، وأخرى من العهد القديم، يدعو إلى التزام المسيحي بالثورية في وجه الطغيان، ويقدم له المبررات التاريخية والإنسانية لمثل هذا الالتزام، بل ويحرضه على التصدي لما يسميه «بالإيمان المسيحي الرسمي» أو إيمان المؤسسات التقليدية، الذي يتواطأ مع نظم اجتماعية وسياسية غير عادلة. ويدعو إلى العمل على تغييره أو اقتلاعه. ومن الطبيعي أن يلقى هذا اللون من علم اللاهوت ترحيبا عارما بين المسيحيين المتعلقين بالعمل السياسي في إفريقيا، وفي بقية العالم الثالث. ولكن الكنائس، وخاصة الفاتيكان، أدانته، واعتبرته خروجا عن المفاهيم الإنجيلية الصحيحة، وفصلت الإكليروس الذي تعاطف معه، أو روج له.

علم لاهوت الرجل الأسود

نبتت جذور علم لاهوت الرجل الأسود في ظل المبشر الأبيض، وكرد فعل للتعاليم الدينية الجديدة التي جاء يبشر بها. ولعل ما قاله واحد من القيادات

(١) قيل إنها ألمانية الأصل، ووجدت طريقها إلى أمريكا اللاتينية، واكتسبت شهرة واسعة.

المعروفة فى جنوب إفريقيا ، وهو ستيف بيكو ، إنما يعبّر عن الموقف الإفريقي العام تجاه الوافد الجديد . فالدين الذى أتى به المبشرون ، كما يقول ، كان غريبا بالنسبة لأهل البلاد ، خاصة حين أحاطوهم بقصص جهنم ، وصوروا لهم إلههم على أنه كثير المطالب وشديد الإلحاح ، ويطالب أتباعه بالعبادة تحت تهديد العقاب إذا ما قصروا فيها . ثم أنهم استغلوا ميل الإفريقى الشديد للتدين وأخذوا يلعبون بعواطفه ويرعبونه بالصور المفصلة عن النار الأبدية ، وعن صرير الأسنان ، وعن حتمية الهلاك للرافضين . وزادوا على ذلك رفضهم للدين الإفريقى جملة وتفصيلا ، بدعوى أنه مجموعة خرافات وطقوس وثنية . مع أن الدين الإفريقى ، كما يوضح ستيف بيكو، لايختلف فى جوهره كثيرا عن المسيحية . فالإفريقى يؤمن بإله واحد ، وعنده جمهور قديسيه أيضا ، وهو لم يكن يعبد الله بمعزل عن نواحى حياته ونشاطاته المتعددة ، لأن هذا لا يتفق ومفهومه عن الكون ، أو الكوزموس ، وناموس الحركة فيه ، ومركز الإله وصلته بمخلوقاته . كما أن العبادة عنده ليست مناسبة معينة ، أو حفلة متخصصة تتم مرة كل أسبوع ، فى مكان منعزل أو فى موقع محدد . بل هى كائنة فى كل شئ يؤديه الإفريقيون ، فتتمثل فى حرثهم وزرعهم ، وفى أكلهم وشربهم ، وفى احتفالاتهم ورقصاتهم ، أى فى كل مكونات حياتهم . ولم تكن هناك جهنم فى ديانتهم ، إذ يؤمنون بالخير المتأصل فى الإنسان ، وأن الناس حين يموتون ينضمون إلى جمهور القديسين ، ولهذا فهم يستحقون إحترام وتكريم الأحياء لهم .

والانطباع الذى تكوّن لديهم عن لاهوت المسيحية الغربية ، أنه لاهوت الإذعان والقبول دون احتجاج . وهو أيضا لاهوت الروحانية الفردية لعالم آخر

دون أن يكون له اهتمام بحقائق العالم الحاضر ، سوى تأكيد النظام القائم الذى أوجده الله . وهو لاهوت يطالب السود أن يقبلوا بالعبودية [1] ، وأن يرضوا بالمرتبة التى وضعهم فيها الاستعمار ، كرعايا من الدرجة الثانية أو الثالثة . ويؤيد هذا الانطباع ما نقل عن فريدريك دوجلاس ، أحد قادة الكنيسة الإفريقية الأوائل : « أحب ديانة مخلصنا المبارك . أحب ذلك الدين الذى أتى من السماء، وأحب حكمة الله التى هى أولا نقية ، ثم هى مسالمة ورقيقة ، دون تحيز أو نفاق. أحب ذلك الدين الذى يقوم على المبدأ التالى ، مبدأ حب الله ، وحب الناس . والذى يطالب أتباعه أن يعاملوا الآخرين مثلما يريدون أن يعاملهم الآخرون . ولأننى أحب هذا الدين فأنا أكره دين الاحتفاظ بالعبيد ، وضرب النساء بالسياط واستهانتهن ، والتعتيم على العقل ، وتدمير النفس . ذلك الدين الموجود فى أمريكا، ويريد أن يتغرس فى ربوع إفريقيا . حبى للأول يؤدى بى إلى كراهة الثانى ، وتمسكى به يدفعنى إلى رفض الآخر » .

فعلم لاهوت الرجل الأسود هو لاهوت الرفض ، إذ يرفض أن يقبل بأن الله مجرد اسم آخر للأوضاع التى فرضها المستعمر . وهو على النقيض من ذلك ، يعلّم بأن الله المحب يأخذ جانب المضطهد ، ويدعو الناس إلى المشاركة فى سبيل التحرير ، وإقامة العدل فى العالم . ويقول «لا» لكل أنواع القمع والتجرد من الإنسانية .

وهو فى الواقع صرخة من أعماق الهوان والمذلة ، التى وجد الإفريقى

(1) لقد أصيبت الحضارة الإفريقية بصدمة نفسية عميقة ، بسبب تجارة الرقيق التى استنزفت شعوب القارة وقواها ، وأذلتها إلى أبعد مدى . كان كل مركب يحمل ٥٠٠ فردا ، يصل أحيانا وبه مائة من الأحياء فقط ، ليبدأوا رحلة طويلة من العذاب والهوان .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

تنفيذ وصية السيد المسيح الخاصة بأن نحب جيراننا جميعا كما نحب أنفسنا.
كما أن الحق الإفريقى يطالب بعدم فصل مفهوم الحب عن صور التعبير عنه عمليا . وعلى هذا ، فالحب عندنا يعنى فعل الطاعة الجماعى ، أى من قبل المجتمع البشرى كله ، نحو الله الذى هو معنا إلى الأبد » . أما جزؤه الختامى الخاص بوجهة النظر المستقبلية ، فقد جاء فيه : « نحن نؤمن أن علم اللاهوت الإفريقى ينبغى فهمه فى إطار الحياة الإفريقية وثقافتها ، ومحاولات الشعوب الإفريقية الخلاّقة لإقامة مستقبل جديد ، يختلف عن الماضى الاستعمارى ، وعن الاستعمار الجديد فى الحاضر . إن الموقف الإفريقى يتطلب منهجا لاهوتيا جديدا، يختلف عن علوم اللاهوت الغربية المسيطرة . وعلى علم اللاهوت الإفريقى أن يرفض الأفكار التى صاغها مسبّقا علم اللاهوت الخاص بشمال الأطلنطى ، وأن يعرّف ذاته وفقا لكفاح الشعب ومقاومته لبنيات السيطرة والاستبداد. ومهمتنا كلاهوتيين أن نقدم علم لاهوت ينبع من الشعب الإفريقى، ويمكن تفسيره له . ومثل هذا العلم له خواص ثلاث : أن يكون قادرا على تفسير المحيط الذى يعيش فيه الشعب ، حتى يصبح لاهوتا للحياة الإفريقية وثقافتها ، ويحرره من أى لون من العبودية أو التبعية الثقافية . وأن يكون لاهوتا يدعو إلى التحرير ، لأن القمع والسيطرة ليسا ثقافيا وحسب ، بل اقتصاديا وسياسيا أيضا . ونحن نعترف بوجود أنواع عدة من القمع والاضطهاد . هناك قمع البيض للسود . وهناك أيضا قمع السود للسود . نحن نقف ضد الظلم فى كل صوره ،لأن إنجيل يسوع المسيح يطالبنا بالمشاركة فى الكفاح من أجل تحرير الناس من كل أشكال اللاإنسانية . وأن يكون علم لاهوت يحرر المرأة ويعطيها دورها الصحيح ، ومكانها اللائق فى الكنيسة والخدمة المقدسة » . واختتم البيان بالقول : « من أجل هذا نحن فى حاجة إلى منهج للتحليل الاجتماعى ،

وللتأملات الإنجيلية ، والتزام نشط لأن نكون مع الناس ، فى مجهوداتهم من أجل بناء مجتمع أفضل » [(١)] .

علم لاهوت الأفريكانرز–أو لاهوت الأبارتهيد

الأفريكانرز هم نسل الذين استوطنوا جنوب إفريقيا ، وخاصة من الهولنديين الذين توافدوا على الإقليم إبتداء من عام ١٦٥٢ ، وتزوجوا من مهاجرين آخرين ، قدموا من ألمانيا وفرنسا ، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين . وقد نموا فى مجموعة بشرية لها هويتها الخاصة وسماتها المميزة ، وينتمون عقائديا إلى كنيسة الإصلاح (الكنيسة المصلحة) الهولندية ، التى تقوم على التراث الكلفنى وتعاليمه المتشددة. وزودتهم تعاليم كنيستهم هذه بالقوى الروحية التى واجهوا بها صراعهم الطويل مع قبائل الزولو وغيرها ، وكفاحهم المرير ضد الاستعمار البريطانى ، وفى حروب البوير . وقد تسلموا زمام السلطة السياسية فى إتحاد جنوب إفريقيا عام ١٩٤٨ ، وصارت بيدهم مقاليد الأمور وتقرير مستقبلهم . وتتضح عقدة « الشعب المختار» ، التى استولت عليهم، فى كلمات دكتور دانيال مالان ، أول رئيس لوزرائهم ، والذى كان قبلا قسا بالكنيسة : « إن تاريخنا أعظم وأروع ما تحقق على مدى العصور . إننا الآن نمسك بناصية هذه الأمة ، التى منحت لنا من مهندس الكون . وهدفه أن

---

(١) لاشك أن علم لاهوت الرجل الأسود يواجه اليوم تحديات جديدة ضخمة ،تحت الحكم الوطنى ، لا تقل عما كان منها فى الماضى . فهناك شعوب إفريقيةٍ خاب أملها خيبة عميقة ، بعدما ولىّ الاستعمار ، وسقط « المشجب » الذى كانت تعلّق عليه الخيبات الوطنية . إذ انتشر الظلم والفساد وإهدار الموارد ، ولم تسلم الكنيسة من الحجر عليها وعلى حريتها .

تنهض أمة جديدة بين أمم العالم . إن السنوات المئة الأخيرة من تاريخنا شاهدت معجزة ، وقف من ورائها تصميم وعزيمة لم يعرفا الوهن . وإن المرء ليشعر أن القومية الأفريكانية ليست من عمل إنسان ، بل هى من عمل الله » .

وقامت سياسة الاتحاد ،فيما يتعلق بالعلاقة بين الأجناس ، على التفرقة الكاملة ، بحيث لا تكون هناك مساواة بين البيض والسود ، لا فى الكنيسة ولا فى الدولة . لأن المساواة ، فى رأيهم ، تعنى الانتحار للجنس الأبيض . وطُبقت هذه التفرقة على أساس العزل الكامل بين البيض والسود ، فخصصت للسود معازل بائسة لا يتجاوزونها . ودعمت الكنيسة المصلحة الهولندية هذه السياسة بكل قوة على أساس ما أرتأته من سند إنجيلى حسب تفسيرها .

فهى ابتداءاً من منتصف القرن الماضى تؤسس تعاليمها الخاصة بالتفرقة العنصرية على الكتاب المقدس . والمصدر الأول لها هو القصة الخاصة ببرج بابل ، والواردة فى سفر التكوين (١١ : ١ - ٩) . ومع أن الاجتهادات والتفسيرات ، من قبل اللاهوتيين ، تعددت حول هذه الحادثة الكتابية ، فقد فسرت الكنيسة المصلحة بلبلة الألسن على أنها تنوع روحى إنقسم إليه البشر ، فصاروا على درجات مختلفة ومستويات متباينة من الناحية الروحية ، ومن الوعى الروحى ، ومن القبول الروحى . وأن «البلبلة» ذاتها هى بمثابة حكم دينونة إلهية ، وإن كانت فى الوقت نفسه فعل رحمة إلهية . ويعنى هذا أن الله قصد أن يسعى إليه الرجال والنساء عن طريق هويتهم العنصرية ، لارتباط العنصر بالدرجة أو الرتبة الروحية . وفيما يتعلق بالعهد الجديد وشريعته الخاصة بالوحدة فى المسيح ، أى وحدة الجميع بلا تمييز ، أكدت الكنيسة الهولندية أن هذا لا ينفى حقيقة تنوع الأجناس .

ولا يمكن بحال اعتبار هذا فكراً يتفق وروح الإنجيل ، فهو مجرد اجتهاد عقيدى من قبل الكنيسة فى جنوب إفريقيا ، لدعم سياسة الأبارتهيد أو الفصل العنصرى . وقد بنته على :

(١) علم اللاهوت الكلفنى كما فسرته وفهمته الكنيسة المصلحة الهولندية . ويقوم فى الواقع على تفسير معين ، أخذت به أقلية داخل المذهب الكلفنى . فكلفن حذر من الإفراط فى الثقة بخلاص المرء ، ومستندا إلى قول الرسول بولس « ***إذا من يظن أنه قائم فلينظر أن لا يسقط*** » (١كو ١٠ : ١٢) . ولكن ظهر بين أتباعه من ناقض هذا التعليم ، وكان أبرزهم جاكوب أرمينيوس ، الذى أعلن أن جميع المؤمنين سوف يشملهم الخلاص . ولكن المجمع الكنسى الذى إنعقد فى دوردت (هولندة) عام ١٦١٩ ، إستنكر أفكار أرمينيوس ، وأكّد أن الخلاص لن يشمل إلا جماعة محدودة جدا من المسيحيين تعرف بالشعب المختار. وصار هذا المفهوم المعتقد الراسخ لدى الفلاحين الهولنديين (البوير) ، الذين هاجروا إلى مدينة الكاب ، فى جنوب إفريقيا ، بعد صدور قرار المجمع بسنوات قليلة . وقد ساد الاعتقاد بين هؤلاء المهاجرين أن المختارين هم الذين تمسكوا بالتعاليم الكلفنية التقليدية ، وبالإنجيل وبالأسرة ، فى إشارة إلى أنفسهم. وكان هذا الاعتقاد من العناصر القوية التى دعمت الوهم الذى استولى على الأفريكانرز باعتبارهم الشعب المختار ، وأن لهم دورا ورسالة فى جنوب إفريقيا إختارهم الله لتحقيقها .

(٢) ودعّم هذا الاتجاه فكر آخر خرج به القس أبراهام كويبر ، الذى صار هو الآخر رئيسا للوزراء ، ودعاه « القانون الفطرى للحياة » ، مشيراً إلى القانون أو الناموس الذى أودعه الله فى الإنسان ، بهدف الحفاظ على الشخصية

الأصلية المتصاعدة ، ويوقف تأثير الخطيئة المعرق عليها . وتطور هذا المفهوم بدلالاته ليكون واحدا من المرتكزات القوية التي تقوم عليها سياسة الأبارتهيد ، إذ أكد على أن لكل شعب ذاتيته التي هي عطية من الله ، وهي ذاتية تقوم على خصائص معينة ، وتعطيه هوية متميزة ينفرد بها . وواجب البوير ، والحالة هذه ، أن يحافظوا على تفردهم كأمة ، وواجب حكوماتهم أن تحافظ عليهم كشعب له هويته الخاصة به ، وله ذاتيته التي ينبغي أن تصان من أن تتلوث ، عن طريق اتصاله بأية شعوب أخرى على الأرض . وهكذا ترسب لدى البوير فكر قومي منغلق ومتزمت يقوم على النقاوة العرقية ، ويدّعي أنه يستمد قوته من الله الذي لا يترك أمته المختارة – عن طريق قيادته لها في التاريخ – تضيع وسط شعوب غير متميزة .

(٣) شعار « في العزلة قوتنا » : وهو شعار أطلقه أحد قادة الكلفنية في هولندا G.V. Prinsterer، بهدف توحيد قوى الكلفنية المتفرقة . وصارت له شعبية واسعة من خلال كتابات خليفته إبراهام كويبر Kuyper . ومع أن الشعار لم يكن يتعرض لقضية الاختلاط بين الأجناس ، إلا أن الأفريكانر طبقه على نفسه واستخدمه في الإطار السوسيولوجي السياسي ، وفسر « العزلة » على أنها الانفصال عن بقية الأجناس . وفي نهاية القرن التاسع عشر راجت دعوة قوية عن النقاوة العرقية ، على أساس ما جاء في سفر نحميا « ووجد مكتوبا فيه أن عمونيا وموآبيا لا يدخل في جماعة الله إلى الأبد ... فرزوا كل اللفيف من إسرائيل » (١٣ : ١ – ٣).

(٤) عقلية الحصار أو اللاجر Laager . واللاجر عبارة عن تحويطة تتم بصف العربات التي تجرها الثيران في شكل دائري ، حول من يرغبون في حماية

أنفسهم من هجمات أعدائهم . وبرزت هذه العقلية في القرن التاسع عشر ، كنتيجة لمواقف الإدارة البريطانية من الأفريكانرز ، ولهجمات الشعوب الأصلية ، مثل الهوكسا والزولو ، الذين اعتبروا الأفريكانرز كمصدر خطر على بلادهم . وتعمقت خلال حرب البوير وبعدها ، حين أدرك الأفريكانرز أنهم خدعوا ، وأن مستقبلهم يتوقف على قوة الحصار الذي يضربونه حول أنفسهم . وبعد هزيمتهم على أيدي البريطانيين ، أخذت الكنيسة على عاتقها إعادة تأهيلهم وبنائهم كأمة وشعب . ومنذ ذلك الوقت أصبحت الكنيسة ، وبقاء الأفريكانرز كأمة ، أمرين متلازمين لا تفريق بينهما . وهكذا تبلور دين مدني civil religion أفريكاني ، أخذ على عاتقه تحديد اتجاهات الأمة ، خاصة في قضية الأجناس . وصارت بطولاتهم وأبطالهم موضوع تغنّي الشعراء . وصارت لمعركتهم ضد الزولو (Bloodriver عام ١٩٣٨) ، يوم تاريخي (١٦ / ١٢) ، وتعهدوا أمام الله باعتباره يوم العهد يحتفلون به ويخلدونه .

(٥) المقتربات الرومانسية للفيلسوف الألماني فيخت Fichte (١٧٦٢ – ١٨١٤)، الخاصة بالفرد والأمة والقومية وجدت طريقها إلى جنوب إفريقيا ، عن طريق أبنائها من الطلبة الذين درسوا في ألمانيا في الثلاثينيات . وكان تأثيرها حاسما على توجهات الأفريكانرز ، الذين شعروا بما يتهدد تراثهم الوطني وهويتهم ولغتهم . وقد احتلت فيهم الشعور والخيال والوجدان أكثر من العقل ، فخلقت توجهات عاطفية ، أكثر من كونها عقلانية ، نحو مسائل الوجود والجنس والسياسة . وكان فيرورد H.E. Verwoerd واحدا من هؤلاء الطلبة . وصار بعد عودته إلى بلاده المنظر لفلسفة « التطور المنفصل » للأجناس . واستطاع تمرير قانون تعليم البانتو في البرلمان بالقوة عام ١٩٥٣ ، الذي حقق

الفصل التام بين الأجناس فى التعليم ، كما أنه أعطى مراكز مرموقة فى الدولة لكثيرين من الذين درسوا فى ألمانيا وتأثروا بأفكار التفوق العنصرى .

وابتداءً من منتصف القرن العشرين صار فصل الشعوب عن بعضها ، فى نظر الأفريكانرز ضرورة لا مناص منها . بل إن الرجل الأبيض ، من خارج أمة البوير المتميزة ، لم يكن يقبل فيها إلا إذا اعتنق المبادئ ، وأخذ بالعادات والقيم واللغة التى لهذه الأمة . أما الزواج المختلط فاعتبره الأفريكانز تصرفاً غير أخلاقى ، لسبب هام وهو عدم التأكد من الجماعة التى سينتسب إليها الطفل ، والتى من خلالها سيكتشف ذاته ويحقق إنسانيته الكاملة . ولما كان لقاء الله يتحقق بتأكيد المرء لحضارته وتراثه ، فكيف يتسنى للطفل المختلط عرقيا أن يكتشف الله ؟!

واستطرادا باتت سياسة إقامة البانتوستان ، أى مناطق العزل للسود ، هى السياسة المثلى التى تمكّن كل جماعة أو شعب ، فى جنوب إفريقيا ، من تحقيق هويته الذاتية . إذ عن طريقها سيكون لكل جنس أرضه ووطنه وحكومته ، حتى يمكنه التعبير عن هويته ، متحررا من أى نفوذ غريب . وهى لهذا تعتبر ، فى نظرهم ، سياسة أخلاقية وإنسانية إلى أبعد مدى ، ومستمدة من إرادة الله ومطابقة لها . وهم لا يخفون دهشتهم وتعجبهم من العالم حولهم ، الذى يلومهم ويدين ما يقومون به فى خدمة إلههم. فعلم لاهوت الأفريكانرز جعل المفهوم العبرى للشعب المختار ، صاحب الرسالة الخاصة ، يسيطر عليه . فهو صاحب دعوة إلهية عليا ، عليه أن يتحرك ويجوب جنوب إفريقيا كى يمدنها ، عن طريق التطور المنفصل ، وضم أممها الوثنية للمسيحية والحضارة . بل إن زعماءه وسّعوا دائرة مسئوليته ، أمام الله والتاريخ ، لتشمل الرجل الأبيض فى كل أنحاء العالم ، بحيث باتت جنوب إفريقيا جزيرة الخلاص للجنس الأبيض كله ، وقد تصبح قيامته الجديدة أيضا .

وهذا الفكر ، شأنه شأن علم لاهوت التحرير ، وعلم لاهوت الرجل الأسود ، هو فى نظر المفهوم المسيحى المستقيم بمثابة علم أو مقومات ديانات مدنية ، الهدف منها خدمة قضايا وطنية أو قومية . وحدث فى الستينات أن شعرت كنائس الأفريكانرز ، وخاصة الكنيسة المصلحة الهولندية ، بتعاظم المقاومة المحلية والدولية لأسس فكرها الدينى . فظهر تيار فى سنودسها يطالب بالتغيير والعودة إلى الأركان اللاهوتية السليمة . ومع أنه فشل عام ١٩٨٢ فى التصويت من أجل إزالة بعض قوانين التفرقة العنصرية ، إلا أنه نجح فى تحقيق ذلك عام ١٩٨٦ ، بل وأعلن أن سياسة الأبارتهيد خطية . وكانت هذه بمثابة خطوة واسعة إلى الأمام نحو سقوط التعاليم الخاطئة ، والعودة إلى لاهوت الكنيسة الواحدة الجامعة ، التى تقوم على الحب والفهم والاهتمام نحو الجميع دون تمييز ، وخاصة نحو الضعفاء والأقل حظا .

ثم حدثت تطورات ضخمة ومتسارعة على الساحة السياسية ، خلال عامى ١٩٩٢ و ١٩٩٣ ، بمبادرات من فردريك دى كلارك ، رئيس الجمهورية وحزبه . وجاء خروج نلسون مانديلا من سجنه الطويل ، بمثابة طاقة أمل لانعتاق جنوب إفريقيا من لعنة العنصرية . وأدّت المفاوضات الطويلة بين دى كلارك ومانديلا ، باعتباره رئيس حزب المؤتمر الإفريقى ، إلى تفاهم على برنامج عمل سياسى وتشريعى ، أدى إلى انتخابات نيابية عامة ، عام١٩٩٤ ، على أساس صوت واحد لكل واحد فى البلاد ، دون تمييز عرقى أو لونى ، ثم قيام برلمان متعدد الأجناس ، وحكومة متعددة الأجناس أيضا .

ولقد تنبأ الكاتب عن هذه التطورات فى رسالته للدكتوراه «الكنيسة والتفرقة العنصرية فى إفريقيا» ، والتى نوقشت فى صيف عام ١٩٨٢ . وقد وضعت التنبؤات فى جدول ، على هيئة معادلة ، كما يلى :

نبوءات تحققت

وفيما يتعلق بمستقبل إفريقيا السياسي فنكرر هنا ما ذكرناه سابقا من أن مستقبلها تتحكم فيه عوامل متعددة ومتشابكة ، محلية ودولية ، نلخصها ، في إطار العلوم السياسية ، في المعادلة التالية :

عوامل إيجابية (لصالح النظام)	عوامل سلبية(ضده)	نتائج محتملـــــة
١- موقعها الاستراتيجي على طريق الكاب الذى يعتبر شريان الطاقة للعالم الغربى كما أنها قاعدة للغرب ضد الشيوعية فى تلك المنطقة الحيوية	توسيع قناة السويس بحيث تسمح بمرور ناقلات البترول العملاقة . إكتشاف مصادر جديدة أو بديلة للطاقة . أخطار المقاطعة العربية الإفريقية بما فى ذلك قطع إمدادات البترول عن الغرب بسبب مساندة جنوب إفريقيا. تحول إفريقيا ضد الغرب لنفس السبب .	لما كانت السياسة مرتبطة بالمصالح القومية ،وخاصة بأهدافها الاقتصادية ، فقد يضطر الغرب إلى وقف تأييده للنظام العنصرى إذا لم تعد له مصلحة ينتظرها من وراء ذلك ، أو إذا كان هذا التأييد يؤدى إلى الإضرار بمصالحه. ومن الثابت أن الاتحاد السوفيتي استطاع التسلل إلى إفريقيا بسبب سياسة الغرب العرجاء فى الجنوب الإفريقى.
٢- ثروتها المعدنية الهائلة ، وخاصة اليورانيوم وحاجة الغرب المتزايدة إليه فى الثمانينات وما بعدها . فصناعات الولايات المتحدة مثلا ، تعتمد على المواد الخام المستوردة منها بصورة كبرى ، بل إن بعضها تعتمد عليه بصورة كليه.	هذه مصادر غير متجددة مرشحة للاستنزاف الكامل . قد تدفع الظروف الاقتصادية الحكومة إلى التهافت على المشترين ، مما يضعف من شأن هذه الثروات كعامل ضغط أو مساومة . اكتشاف مصادر جديدة فى مناطق أخرى .	من المؤكد أن يعمل الغرب على الإبقاء على طريقه إلى هذه الثروات مفتوحا ، وعلى منعها من أن تسقط فى قبضة قوى معادية . وهذا يعنى أن جنوب إفريقيا داخلة فى نطاق الأمن القومى الغربى . وستظل هكذا حتى تستنزف هذه المصادر .

عوامل إيجابية (لصالح النظام)	عوامل سلبية(ضده)	نتائج محتملـــــة
٣- قوتها الاقتصادية ، واكتفاؤها الذاتى فى الكثير من المواد الإستراتيجية ، حتى البترول تحاول استخراجه صناعيا من الفحم المتوافر لديها.	المقاطعة الاقتصادية من قبل إفريقيا بالذات التى تعتبر السوق الطبيعية لمنتجاتها . وقد أثبتت هذه المقاطعة تأثيرها الفعال . إعتمادها على الاستثمارات الأجنبية التى تتأثر كثيرا بالأوضاع الداخلية. . إعتمادها الكلى على العمالة الإفريقية فى جميع القطاعات والخدمات وهذه نقطة الضعف الكبرى فى كيانها ، أو كعب «أخيلا» الذى فيه مقتلها . فالمجتمع الأبيض يعتمد فى ازدهاره ورخائه ورفاهيته على الرجل الأسود ، من الخادم فى المنزل ، إلى الصانع فى المصنع ، إلى السائق فى القطار ... الخ	الاضطرابات العمالية ، قد تؤدى إلى شل الاقتصاد ، وإلى فقدان ثقة المستثمر الأجنبى نهائيا وخروجه منها. كما أن العصيان المدنى من قبل طوائف العمال والمستخدمين وغيرهم من شأنه أن يهدد أمن الأقلية البيضاء ويجعل الحياة صعبة بالنسبة لها مما يضطر القادرين منها على الهجرة . وقد يترتب على كل هذا ، ليس فقط خلخلة النظام ، بل وانصراف الغرب عن مساندته والبحث عن البديل .
٤- قوتها العسكرية الضخمة . فلديها جيش مدرب على أحدث الأساليب العسكرية وخاصة السلاح الجوى وترسانة أسلحة ، وإمكانيات لصنع الأسلحة المتطورة بما فى ذلك القنبلة الذرية .	حاجتها المستمرة إلى السلاح المتطور ،واعتمادها على الغرب فى الحصول عليه أو على التكنولوجيا الخاصة بانتاجه. الخوف من الهجرة المضادة التى قد تستنزف رصيدها من الرجال القادرين على حمل السلاح .	سلاحها سيصبح قديما يوما ما. فإذا واصل الغرب مقاطعتها عسكريا فستضعف. فإذا إتسع نطاق حرب العصابات وقويت شكيمة قوات أزانيا ، وأخذت تضرب وتهرب إلى موزمبيق . فتتعقبها القوات العنصرية وتضرب فى عمق

عوامل إيجابية (لصالح النظام)	عوامل سلبية (ضده)	نتائج محتملة
	سقوط الأنظمة الاستعمارية البيضاء فى الأقطار المتاخمة (أنجولا وموزمبيق وزيمبابوى) أفقدها المناطق العازلة وكشف حدودها الطويلة .	موزمبيق (كما حدث فى أوائل فبراير ١٩٨١)، فقد تصبح هجماتها ضد العصابات فى موزمبيق مكلفة بقدر يفوق طاقتها (كما حدث مع سميث فى روديسيا) وحينئذ تتدخل أمريكا وتفرض حكم الأغلبية. ومن الاحتمالات الواردة : ١) نشوب سباق تسلح بين الدولتين العظميين فى المنطقة . ولن ينفع هذا النظام العنصرى على المدى البعيد ، لأن إفريقيا متنحاز إلى المعسكر الشرقى ضد تحيز الغرب للعنصريين. ٢) اتفاق الدولتين العظميين فيما بينهما حول سياستهما فى المنطقة ، ويقوم الغرب بالضغط على جنوب إفريقيا للإصلاح والتغيير ، فيكون هذا بداية النهاية للنظام العنصرى .
٥- نظامها الداخلى متماسك وقوتها البوليسية قوية ورهيبة .	تزايد الشكوك بين البيض حول سلامة نظامهم وشرعيته .	السياسات القمعية عمرها قصير وفشلها ولو مرة يجرها عادة إلى الفشل الذريع .

عوامل إيجابية (لصالح النظام)	عوامل سلبية (ضده)	نتائج محتملة
	تزايد مخاوف رجال الأعمال والصناعة من تعنت الحكومة ومبالغتها فى القمع والقهر ومعاداتها للإصلاح والتغيير. تنامى نشاط الكنيسة ، فى الداخل والخارج ،ضد العنصرية ، بهدف إيقاظ ضمير الرجل الأبيض .	وتوالى أزمات الضمير وأزمات الثقة فى المجتمع قد تقوده إلى بعض مظاهر التفكك . أى أن تماسك الجبهة البيضاء تتهدده عوامل من داخلها قد تقوضه .
٦- عدم تماسك جبهة غير البيض (السود والملونين). وضعف الثقة إلى حد كبير بين جماعاتها . وتنافس الأحزاب ومنظمات التحرير فيما بينها .	قد تتغلب الجماعات غير البيضاء على خلافاتها وتتلاحم معاً ضد النظام العنصرى. وإضراب طلبة المدارس بدأه الملونون وسرعان ما انضم إليهم السود . وقد دخل الآن شهره السابع ومازال مستمرا . وقد يوحد الصراع منظمات التحرير المختلفة . أو قد تتغلب إحداها وتسيطر على الموقف مثل قوات أزانيا (المؤتمر الوطنى الإفريقى) وتوحد السود وراءها .	تماسك جبهة غير البيض ، وجبهة السود بالذات ، يهدد كيان النظام العنصرى . وظهور جبهة سوداء منظمة وقوية ، وفعالة فى صراعها وحربها ، قد تقدم نفسها للغرب كبديل للنظام العنصرى ، وقد يراهن الغرب عليها فى الوقت المناسب .

وهذه المعادلة ، على بساطتها ، تلقى الضوء على كثير من عناصر الموقف فى جنوب إفريقيا ، ولعل أهم ما يمكن استخلاصه منها هو أنها تؤيد الرأى القائل إن جنوب إفريقيا تسير اليوم فى نفس الطريق التى سبق أن سارت فيها روديسيا الجنوبية . أى أن النظام العنصرى فيها يسير نحو طريق مسدود . وأنه سيجئ يوم –مهما طال انتظاره– يجد نفسه فيه وحيداً وعاجزاً . بينما تشتد فى القوى الضاغطة عليه فى الداخل والخارج . كما يشتد فيه ساعد القوى التحريرية الإفريقية ، وبالذات قوة أزانيا . وحينئذ قد يبادر الغرب إلى الاعتراف بالقوة الجديدة الصاعدة، ليبدأ حكم الأغلبية ، أى كما سبق وحدث فى زيمبابوى . فلنصل كى يسرع مجئ ذلك اليوم دون إبطاء ، وأن يحقق الخير للجميع ، للسود والبيض على السواء ، وأن يجئ بأقل تكلفة ممكنة من إزهاق الأرواح وسفك الدماء.

وقد تحقق هذا فعلا فى منتصف عام ١٩٩٤ ، بعد أكثر قليلا من عقد منذ تسجيل هذه التنبؤات .



الفصل الخامس

الكنائس الإنفصالية والحركات الجديدة

موقف الإفريقى من الجديد

تشير الدراسات الأنثروبولجية والسوسيولوجية إلى أن الإفريقى القديم كان يتمتع بقدر كبير من المرونة النفسية والذهنية ، وبقدرة على الالتقاء مع الغير ، مهما اختلفت أفكار وعقيدة هذا الغير عن أفكاره وعقيدته .

ومن المأثور عن القبائل الإفريقية قديما ، أنها كانت تأخذ عن القبائل المجاورة ، سواءً أكانت صديقة أو عدوة ، آلهتها وطقوسها . وكان إذا هاجر فريق منها إلى إقليم مجاور غير إقليمه ، ليستقر فيه ، يقوم بنحر الذبائح وتقديم القرابين للآلهة التى تسيطر على الإقليم الجديد ، كائنة من كانت ، بل ويعترف بأسلاف أهل الإقليم أسلافا له . ولعل هذه المرونة ، من جانبه ، تفسر مدى وأسلوب استجابته لنشاط بعثات التبشير المتعددة فى مناطقه .

وهذه الحيوية والمرونة التى تتميز بها العقائد الإفريقية ، تعود إلى رؤية الإفريقى الخاصة بالكون . فالكون فى ذهنه دائم التغيير . ويخضع لقوى ومؤثرات لا تظل طويلا على حال واحدة ، وللإنسان مكان مركزى فيه إذا شاءت قوى ما وراء الطبيعة شيئا ما لا يرتضيه إتجه نحو تحوير تصوره عنها ، وربما إلى تحديها ومقاومتها إذا هى أبت عليه إرادته . وقد يستبدلها بوحى من خياله . فإيمانه بالإنسان يجعله يتمسك بحقه وحريته فى الحركة .

ورغم أن الإفريقى كان يؤمن بالسحر وطلاسمه ، وبالعلاج والدواء الذى يقدمه له الطبيب الذى يعالجه ، ويعتبرهما هبة الآلهة له ، فقد أقبل على التطعيم ضد الحميات الذى قدمه له الأوروبى ، والذى لا يدخل فيه السحر وطبه ، وذلك حين لمس فاعليته وجدواه ، ومن ثم وضعه مباشرة فى تراثه الدينى، وقال عنه إنه سحر جديد ، له قدرة على كف «الخوف» من الآلهة التى تعاقبه بالأمراض ، مثل الإله «ساقبتا» عند الداهوميين .

وحين قام بحرق منحوتاته ، إستجابة لدعوة المبشرين ، وولت معها الطلاسم والأحجبات المقدسة عنده ، والتى كانت مصدر طمأنينته ، أصر على الحصول على بطاقة العماد التى تمنحها الكنيسة، لأنه رأى فيها بديلا للطلاسم القديمة ، بل تصورها أشد قوة وقدرة ، فوضعها فى حرز وقدّسها .

ولم يكن عجيبا أن يرى الزائر الأجنبى لبيت زعيم طائفة دينية من جماعات الديانات الإفريقية ، صورا وطلاسم إفريقية ، وصورا كاثوليكية ، معلقة على الحائط جنبا إلى جنب ، أو يراه وهو يمارس زعامته الروحية بين أهله صباح الأحد ، ويؤدى معهم الطقوس الروحانية الإفريقية ، ويكون قبل ذلك قد ذهب إلى الكنيسة ليصلى القداس . فإذا سئل عن رأى الكنيسة فى تصرفه هذا ، كان جوابه ببساطة أنه لادخل للكنيسة فى هذا . والحال فى إثيوبيا ، الذين انضموا إلى الكنيسة مثلا، لم يهجروا آلهة أبائهم ، ويرون فى معرفة أكبر عدد ممكن من الآلهة ما يساعدهم على الحصول على عون أكبر.

فالإفريقى قد ثبتت قدرته على قبول الفكر الجديد قبولا كاملا ، أو على تحويره على نحو لا يشوّه معالمه ، مع احتفاظه بمعتقداته القديمة التى يؤمن بها إيمانا عميقا . ولقد اكتشف المبشرون ،مع مضى الوقت، أن الإفريقى إتخذ

المسيحية دينا وحورها لتتفق والطرق الإفريقية فى العيش والسلوك . فهو يقبل الدين الجديد راضيا أو تحت ضغط المستعمر ، ولكنه يأبى ، فى ذات الوقت ، أن يتخلى عن التقاليد القديم الذى يعتز به . ولقد كان هناك بعض عناصر الثقافة المسيحية ، التى بدا وكأنه قبلها ، وأخذها بمظهرها وجوهرها ، لكن إتضح بعد الدراسة والتقصى ، أو الصدفة البحتة ، أن هذه العناصر قد أعيد تشكيلها ، بصورة أو بأخرى ، كى تنسجم مع القديم الموروث . ولقد حدث لمبشر فى غانا حارب تعدد الزوجات بين الوطنيين ، ونجح فى مهمته ، أو هكذا بدا له ، ولكنه اكتشف وهمه حين عرف أن واحدا من أهم تلامذته يعيش مع زوجة واحدة فعلا ، ولكن فى كل ركن من أركان بلدته .

ومن الطبيعى أن يسعى المبشر الغربى إلى جعل المسيحية ، بتعاليمها وتقاليدها وطقوسها ، تقوم مقام التقاليد القديمة . فجاء إلى الإفريقى يعلمه نماذج ثقافة كاملة ، نمت فى محيط بعيد عن بيئته وتراثه ، وطالبه بتقبلها لتحل محل تراثه القديم ، دون تفهم لفلسفته فى الحياة ، أو لاحتياجاته النفسية والاجتماعية التى تنبع من بيئته وتراثه . وهذه سذاجة منه ، حسب رأى علم الاجتماع . فليس من طبائع الأمور أن يتقبل فريق من الناس ، فى تلقائية ، الوافد عليه من الثقافة بجوهره ومظهره ، ويأخذ قيما جديدة جاءته عبر المحيطات والقارات ، رغم إختلافها عما اعتاده وما يعتد به (1) .

(1) وفى هذا الصدد هناك نادرة تستحق الذكر . ففى إحدى كنائس شمال الكنغو دعا المبشر نساء الكنيسة أن يتسربلوا بالملابس المحتشمة . فعلق أحد المتقدمين فى الكنيسة على هذه الدعوة بقوله «لايمكننا أن نطلب من نسائنا أن يحجبن صدورهن . فذلك من شأن العاهرات ، ونساؤنا لسن كذلك» !

إستطاع الإفريقى ، بعد نجاحه فى محاولات المزج بين القديم والجديد فى أمور الدين ، أن يجد سبيلا للتوفيق بين هذا المزج وبين حاجاته الدنيوية . على أن هذا التكيف كانت له دوافع أبعد من مجرد خلق التوازن النفسى والاجتماعى الشخصيين . ومن أهم هذه الدوافع حماية الشخصية الإفريقية ذاتها بما لها من خصائص تاريخية وثقافية وحضارية، ليس فقط فى وجه كبرياء الإنسان الأبيض وغطرسته وإستهانته له ، بل تحديا له ، وإصرارا منه على ألا يبتلع المد الأبيض هذه الشخصية، وذلك بما له من سلطان وهيلمان ، وأدوات تكنولوجية متقدمة . ويبدو أن تفتح العقلية الإفريقية – التى إعتبروها همجية بدائية متخلفة– ساعده على أن يكتشف فى المسيحية الأصيلة فلسفة وقيما متميزة، ولخوفه من أن تطغى أو تكتسح قيمه ، أخذ بفكرة المزج بين الجديد والقديم ، صيانة للقديم ، مع عدم حرمان نفسه مما فى الجديد من نافع ومفيد ، فى الوقت نفسه . أى أن همه الأول فى وجه محاولات تغريبه ، كان الاحتفاظ بثقافة ذات طابع معين ، قاعدتها القديم الموروث ، وخاصة النافع والحيوى والقادر على البقاء منه ، وفوقها الجديد الأوروبى الذى لا يتنافر مع القديم ، وقد يثريه ويدعمه .

وفى سعيه نحو حماية الشخصية الإفريقية ، كان الإفريقى يندفع بوحى من قوميته ووطنيته ، قوميته الإفريقية الأوسع ، ووطنيته الإقليمية بحكم إنتسابه إلى إقليم إفريقى معين . وهذا إتجاه سياسى الطابع ولاشك . ولكن أين ومتى يمكن الفصل بين القيم والتقاليد الدينية لشعب ما ، وبين تطلعاته القومية والسياسية ، خاصة وهو يخوض معركة الهوية وحماية الذات ؟ ولقد استكمل

الإفريقى مشواره بظهور الحركة الزنجية فى أواخر القرن الماضى ، والتى أخذت تنشط وتتبلور فى العقود الأولى من القرن الحالى . ومن خلالها تنادى زنوج إفريقيا ، وزنوج العالم فى كل مكان ، بالدعوة إلى العودة إلى الجذور والمنابع الإفريقية ، والدفاع عن الثقافة الإفريقية ، بما فى ذلك قيمها الدينية والروحية ، وعن أصالتها ، والكشف عن القدر الذى أضافته إلى محيط الثقافة العالمية .

نادت الحركة الزنجية ، التى ضمت روافد متعددة جغرافيا ،بالأصل الواحد والقيم المشتركة ، وشددت على بعث الثقافة الإفريقية بخصوصيتها ، تحديا لمقولة الرجل الأبيض إن إفريقيا «شعوب لا ثقافة لها» ، والتى أطلقها فى حماقة ، متناسيا أنه لا قيامة لشعب لا ثقافة له . وهو لم يتجن عليها فيما يتعلق بعقائدها الدينية وحسب ، بل تهجم أيضا على فنونها وموسيقاها ، وكلاهما امتداد لتقاليدها وطقوسها الدينية .

كان حكم الرجل الأبيض على الفنون الإفريقية ، أنها صبيانية وبربرية متوحشة ، وفى أكثر الأحيان مضحكة . وحاول ترسيب هذه المفاهيم والتصويرات فى عقل الطفل الإفريقى فى مدارسه . كان يردد أمامه أن الإفريقى يعبّر عن نفسه كما يعبر الطفل عن ذاته ، فلا صقل فى تعابيره ، ولا معنى فى حكاياته . ونجم عن ذلك ظهور إتجاه سلبى ، من قبل الفنانين الإفريقيين، فتقاعس الكثيرون منهم عن الإبداع ، وتوقفت أعمالهم الفنية التى كانت تعبر عن وجدان الإفريقى ، لأن الأشكال التقليدية أضحت تخجلهم . مع أن الفن الإفريقى كان يقدم أدبا مقدسا ، بتجسيده للأساطير المقدسة ، وإبراز حكمة الشعب ، وكان بمثابة اللغة المكتوبة الوحيدة فى إفريقيا الاستوائية ، ويستعان به فى ترجمة الحياة فى كل صورها ، والتعبير عن المقومات الدينية ، التى لم تكن

منفصلة عن بقية مناحى الحياة . وكان يعطى معنى روحيا ووظائف رمزية للأدوات المستعملة فى إحتفالات وشعائر الفرد والجماعة ، فى مختلف المناسبات. ويعرض الإنسان فى مختلف مراحل وجوده –الميلاد والحياة والموت– وفى مختلف أنشطته اليومية . يعرضه رجلا وامرأة دائما ، كأنهما توأمان ، ويبرز تلاحمهما واعتمادهما الواحد على الآخر . وكان يضفى جمالا ووقارا على وجهه كأنه أيقونة ، ويستخدم الأقنعة ليعبر بها عن غلبته على الموت ، وعن خلوده . واستعار الأمومة الإفريقية ليظهر سر الحياة وقوتها ، وقد صورها بصراحة فى كل أجزاء الجسد الأنثوى . وكان هذا الفن ، وما زال ، غاية فى التعبير ، وغاية فى التواضع أيضا .

ولما ذهب الشاب الإفريقى إلى أوروبا وجد هذه الأفكار والتقييمات قد سبقته إلى الأوساط الفنية الأوروبية . ووجد أعماله الفنية ، من نحت ورسم ونقش على الخشب ، ومطرزات ، معروضة فى متاحف الأنثروبولوجيا ، وليس فى متاحف الفنون ، باعتبارها مجرد تعبيرات فنية عن ذواتهم . وكاد الإفريقى أن يستسلم لهذا القدر الذى قضى عليه بالدونية والتخلف ، لولا مكنون العزة التى لم تفارقه ، والتى دأبت على حثه على الغوص فى ذاته ، لاكتشاف خواصه وقيمه وتفرده ، مهما حاول الغير التقليل من شأنه ، عن جهل أو عن غرض وهوى . فأخذ يحلل فنونه ، ويستوحى فيها شخصيته الإفريقية وماضيه وتراثه . وجاءه الدعم المعنوى من مصادر كانت قبلا تتنكر له ، وتنكر عليه كينونته . وتزامن ذلك مع اشتداد الحركة الزنجية . وكان هذا بعد الحرب العالمية الأولى ، حين بدأت جماعات من شباب الفنانين فى باريس ، ومنهم النحاتون والرسامون والمصورون والنقاد ، من مختلف الجنسيات ، تهتم بهذا الفن الإفريقى وتنجذب إليه ، بعد ما ضاقت بالأشكال التقليدية فى أوروبا ، وشرعت تبحث عن أشكال

أخرى جديدة ، تجدد بها الفنون الأوروبية ذاتها . وبدأ الفنانون يرون فى الأعمال الإفريقية جوانب من الجمال لم يعهدوها فى الفنون الأوروبية . وكان تأثر هؤلاء الفنانين ، وخاصة أصحاب المدرسة التأثيرية Impressionism ، قويا وسريعا . وبدأت أعمالهم الجديدة تعكس تأثير الفنون الإفريقية عليهم . لم يحدث هذا فجأة ، بل أخذ نصيبه من الوقت . ففى ١٩٠٨ خرج ماتيس بتماثيل ولوحات زنجية من بين أعماله . وضمت أعمال بيكاسو وبراك وديرين أقنعة إفريقية . وفى ١٩١٩ أقام باعة الآثار الفنية معرضا لفن النحت الإفريقى ، وكان هذا بمثابة إعتراف فرنسى بالفن الإفريقى . وقامت فى ألمانيا حركة مماثلة ، ففى ١٩١٢ أخرج بعض الفنانين التشكيليين «كتالوجا» للفنون الإفريقية ، فيه نقش على الخشب من الكمرون ، وصحون زيتية من بنين ، وأقنعة من الجابون . كما نشر أينشتين ،فى ميونخ ، عام ١٩١٥ ، كتابا عن الجمال عند الإفريقى . ولم يمض وقت طويل حتى إتسع نطاق تأثير الفنون الإفريقية على أعمال الفن فى أوروبا وأمريكا . وبدأ النقاد يؤكدون أن الفنون الأوروبية كانت تحتاج لحياة جديدة يبعثها شئ ما فى دمائها ، كى تتجدد وتحيا من جديد ،وجاء هذا الباعث من الفن الإفريقى ، الذى ألهمها وأخرجها من قوالبها المعهودة .

وإلى جانب الثقة التى تجددت لدى الإفريقى فى شخصيته وتراثه ، كان هناك الإيمان الذى انطلق يحثه على العودة إلى الجذور واستلهامها ، باعتبارها هى السبيل إلى الإبداع ، فمضى فى طريقه يبدع مستلهما ماضيه . وصارت له مكانته ، بعد ما كانت ثقافته لا مكان لها بين ثقافات العالم ، بل وقيل عنه فى وقت ما إنه بلا ثقافة . وصار لديه ما يضيفه إلى التراث الإنسانى . وصارت قارته بمقوماتها مصدرا لعوامل التغيير فى أرجائها ، بعد ما كانت مجرد متلقية لثقافات ومؤثرات الآخرين .

ولم تفلت الموسيقى من التحقير، فهي زعيق الوحشيين. أما الزنجي فمبتذل وشبقي. فالموسيقى الإفريقية لم تحظ باهتمام الأوروبي أو احترامه في أول عهده بها، إذ عجز عن فهم أصواتها، واختلطت عليه مصطلحاتها، وبدت له وكأنها لا تخضع لرموز إصطلاحية، فأنغامها معقدة، وتبدو متفرقة لا واصل بينها وخاصة الطبلة. ثم جاء وقت إعادة الاكتشاف، وأخذت الأذن الغربية تألفها. حدث هذا عن طريق «الجاز» في أمريكا، وتأكيد أصوله الزنجية الإفريقية، رغم اعتراضات الرجل الأبيض، ورفضه الاعتراف بأن يكون لإفريقيا أي أثر على جوانب الحياة الأمريكية، سواء أكانت الموسيقى أو غيرها. وقد وطد «الجاز» أقدامه، وأثبت موسيقاه، بأساليبها وأنغامها وألحانها، أنها لن تكون إلا إفريقية. وأخذت مكانها كلغة جديدة في التراث الإنساني. ومع الوقت أخذت طريقها إلى قلوب كثير من الناس في أنحاء العالم. كان مصدرها غرب إفريقيا، خاصة ساحل غينيا وغربي الكنغو. ورغم أنها واحدة من سبعة أنواع من موسيقى القارة، التي تنتمي إلى المناطق الثقافية التي قسمها الأنثروبولوجيون إليها، فقد بقيت المثل للموسيقى الإفريقية في بلاد الغرب، إلى جانب السامبا والرومبا في البرازيل.

ومما يذكر أن بعض البعثات التبشيرية غالت في مقاومتها للموسيقى، وخاصة الطبلة والتطبيل، والرقص. كان المبشر يهدد ويتوعد، وكثيرا ما عاقب الوطنيين بسببها. كان العقاب يأخذ أحيانا صورا شديدة، مثل غلق المدرسة وتشتيت التلاميذ، أو وقف العمل بعيادة الإرسالية، إلى أن يتعهد الأهالي بتنفيذ تعليماته. على أن بعثات أخرى تحاشت اللجوء إلى أساليب المنع والقسر لتغيير العادات الإفريقية، وتركت كنائسها تدعو للصلاة بالطبول وليس بالأجراس، كما كانت تبني كنائسها وتوجهها على النمط الإفريقي.

الكنائس الانفصالية

كانت هذه الكنائس تأكيدا للشخصية الإفريقية، وتجسيدا لنزعة الإفريقيين وقدرتهم على مزج القديم والجديد، التي جاء تفصيلها في مستهل هذا الفصل. فقد أسسوها، ووضعوا أنظمتها لتحل محل دياناتهم التقليدية. ولكنهم ملأوها بالممارسات المرتبطة بعقائدهم الخاصة بالأسلاف. فمزجوا بين الأسلاف وأرواحهم، وبين الوحي والروح القدس، وبين النذور والقرابين والعبادات المسيحية. وأعطوا مكانا مرموقا للطلاسم ورموز الفن الإفريقي، وللطبلة والرقص، والسحر.

وهي، من حيث تكوينها وتوزيعها الجغرافي وتعاليمها، تُصنَّف في ثلاث مجموعات هي: الكنائس الإنفصالية، والكنائس المحلية أو الأهلية indigenous، والحركات التقليدية الجديدة neotraditional.

وتنحصر الدوافع التي حرضت الكنائس الانفصالية على الخروج من كنائس البيض، وإقامة كنائسهم الخاصة بهم، في أربعة. **أولها**، الاحتجاج على ما بدا لهم من تعاون وثيق بين المبشرين والمستعمرين. **وثانيها**، مقاومة سلطان المبشرين المطلق على الذين يعتنقون المسيحية، ومقاومة ضغوطهم وإصرارهم على انتزاعهم من تقاليدهم وتراثهم. **وثالثها**، الاحتجاج على الإدارة الكنسية البيضاء، التي استأثرت بالسلطة، دون أن تعطي أي دور للإفريقي. أما الرابع، وهو الأهم، فهو رغبتهم في وضع رسالة الكنيسة المسيحية في الإطار الإفريقي القديم.

وقد ظهر عدد كبير منها، عند بدء عصر الاستعمار، حصر منها أحد

الباحثين الألمان إحدى وعشرين ، إلى جانب أحد عشر نبيا برسالات مماثلة، شرعت فى الدعوة لنفسها ومذاهبها ، التى تختلف عن المسيحية الأولى. ففى جنوب إفريقيا قامت عدة كنائس منفصلة ، كانت إحداها كنيسة التيمبو ، وقد أسسها زعيم إفريقى ، عام ١٨٨٤ ، بعد ما انفصل عن كنيسة إرسالية الزولو لأن أحد المرسلين انتقده على ماكان يبديه من عواطف قومية نحو شعب قبيلة التمبو . ومن أهم هذه الكنائس «الكنيسة الإثيوبية» التى تأسست بالقرب من جوهانسبرج ، وتميزت باستقلاليتها وعدم انتمائها إلى أية قبيلة بعينها . وكانت مفتوحة لجميع الوافدين من مناطق جنوب إفريقيا إلى جوهانسبرج للعمل فى مناجمها .واقتبس مؤسسها الاسم الذى أطلق عليها مما ورد فى مز ٦٨ :٣١ « كوش (إثيوبيا) تسرع بيدها إلى الله ». وفسره على أنه بشارة بقيام كنيسة قومية إفريقية ، بالإفريقيين وللإفريقيين ، متيمناً كما يبدو بكنيسة إثيوبيا الوطنية. وقد حظيت حركته بتأييد وتشجيع القيادات الدينية والوطنية الإفريقية .

وبعد ما تزايدت هذه الكنائس المستقلة فى جنوب إفريقيا ، عقدت قياداتها اجتماعا عاما فى بريتوريا ، عام١٨٩٦ ، من أجل تنسيق مواقفها. واتفقت فيما بينها على الاتصال بالكنائس المستقلة (الزنجية) فى الولايات المتحدة ، ومن بينها كنيسة الإيبسكوبال (بفلادلفيا) والمثودست ، لعقد تحالف وتعاون معها . وأرسلت وفدا إلى أمريكا لهذا الغرض . ولكن المفاوضات طالت وتشعبت دون جدوى . ويبدو أن الأفارقة لم يجدوا فرقا كبيرا بين المبشر الأمريكى الأبيض أو الأسود ، فلم يتحقق أى وفاق .

وبعد ست سنوات ، أى فى عام ١٩٠٤ ، حلت فى أرض الزولو بعثة من كنيسة زنجية باسم كنيسة صهيون قاعدتها فى ولاية إلينوى بالولايات المتحدة ،

وكانت كنيسة تجديدية Revivalist ، خرجت منها كنائس متعددة بأسماء مختلفة . والتقت البعثة بقيادات كنيسة إثيوبيا . وعكفت الكنيستان على إعادة دراسة العقيدة المسيحية ، والعقائد الإفريقية القديمة ، بهدف صياغة مسيحية إفريقية ، واستحدثوا مزيجا يصعب أحيانا الفصل بين عناصره ، ولا يخرج عما ذكرناه آنفا .

وفى نيجيريا تأسست الكنيسة الأهلية الإفريقية المستقلة ، فى لاجوس عام ١٨٩١ . ويتضح من قرارات جمعيتها التأسيسية المزاج الإفريقى الذى كان سائدا، إذ جاء فيها «يرى هذا الاجتماع ، فى تواضع أمام الله القوى القادر ، أن تنصير إفريقيا واجب يحق أداؤه . ولكن الهيئات الأجنبية العاملة هنا لا يمكنها أن تفهم الموقف ، أو تتعرف على احتياجات الإنسان الإفريقى . فهذه مهمة ينبغى أن تقوم بها كنيسة وطنية إفريقية ، من الإفريقيين أنفسهم ، تبشر أهلها ، وتعمل على تحسين أحوالهم ».

وتوالى تأسيس الكنائس . ففى نياسلاند (مالاوى) ، عام ١٩١٥ ، قام القس « شلمبوس » بحركة تستهدف تأكيد حق الإفريقى فى التعبير عن ذاته ، فى نطاق المسيحية التقليدية . وفى عام ١٩٢١ ،شهد الكنغو البلجيكى (زائير) حركة مماثلة باسم «المرصد» بقيادة القس « كمباجوس » ، وقد عبرت إلى الإقليم من روديسيا (زامبيا) . أما إفريقيا الفرنسية فقد تأخر قيام مثل هذه الكنائس قليلا ، وكان القس « ماتسوانى » من أوائل المجددين، وقد باشر نشاطه عام ١٩٤٠ .

والمزيج اللاهوتى والطقسى الذى استحدثته هذه الكنائس لم يكن معروفاً

أو معلناً ، إذ تعمدت إخفاء الكثير من عباداتها وعقائدها ، واحتفظت بها لأتباعها فقط . وإن كانت البعثات التبشيرية الأجنبية لم تتوان عن مهاجمتها والتنديد بها، فاعتبرتها كنائس مارقة ، وأشاعت الكثير حول طقوسها المظلمة ومباذلها الجماعية . أما بعض الحكومات والسلطات المحلية فاعتبرتها عناصر تخريب تتستر وراء الدين ، وقامت بقمعها .

وشهدت ليبريا ، عام ١٩١٠ ، حركة قوية بقيادة وليم هاريس . إدعى أنه رأى رؤيا يدعوه فيها السيد المسيح للتبشير ، لأحقّية الإفريقى بهذه المهمة . ونجح هاريس فى دعوته التى انتشرت فى كثير من أقطار غرب إفريقيا ، حيث تأسست عدة كنائس لها، وتزايد عدد أتباعها إلى أكثر من مائة ألف .

وفى غانا ، كان القس الإفريقى يخدم الإله «أسغاراما» ، أحد آلهة الأشانتى ، دون أن يجد صداما بين تعاليم المسيحية وبين طقوس قبيلته وآلهتها . إدعى أن السيد المسيح واحد من أبناء الله ، والله كثير العيال ، فهو قوى وليس بالعاجز عن إنجاب أكثر من إبن واحد . وكان يعبد الله فى الكنيسة صباح كل أحد ، بعد أن يكون قد قدّم صلاته على الطقس الإفريقى فى المكان المخصص لذلك .

وفى الجابون ، بغرب إفريقيا ، كانت لقبائل «جانج» قصة طويلة مع محاولات التأقلم مع معتقدات الغير ، فعندما جاء المبشرون والمستعمرون إلى الإقليم، فى أوائل القرن الحالى، ثارت موجة من التحدى تجسدت فى قيام حركة باسم «أمبويتى» عام ١٩١٥ ، كان همها الأول دعم منشآتها الدينية وتأكيد سلطانها . وحين واجهت القبيلة مشكلة فقدان طبها لقدرته على العلاج

والشفاء ، وبدا لها وكأن آلهتها هجرتها ولا تستجيب لها حين تدعوها، لجأت إلى ديانات جيرانها من القبائل ، ولكنها لم تسعفها . وعندئذ اضطرت إلى الالتجاء نحو الرجل الأبيض ، لما لمسته فى أدويته من فاعلية ، وبذلك تعزز سلطان أمبويتى . وكان مزيج عقديتها فريدا : أعطت للإله القديم مكانا وسطا فى طقوس القبيلة ، وبنفس القدر استلهمت ووقرت المسيح والعذراء . ولأنها ، حسب معتقداتها ، تؤمن بعلاقة حميمة خاصة بين المرء وعمه ، تصورت المسيح «إبن أخ» الإله القديم ، وليس إبنه كما يقول المبشرون . أما السيدة العذراء فهى ليست أمه ، بل أخته أو إبنته . وبقية أفكارها تتصف بالتوفيقية مع معتقدات مجتمعها الأبوى النسب وطقوس الأسلاف .

وحدثت تطورات داخل الكنائس الانفصالية المستقلة ذاتها . ومنها ، على سبيل المثال ، ما جرى فى إقليم كاتجو بالكونغو ، فى الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٥٥ . إذ قامت ثلاث حركات تدعو أساسا إلى التخفيف من بعض عاداتها وعباداتها المتأثرة بالقديم ، وتحث على التخلص من أعمال السحر والسحرة . وظلت تعمل بقوة ونجاح حتى اجتاحت الإقليم أوبئة مهلكة ، فعاد السحر ، وعاد السحرة إلى العمل ، وعاد إليهم الأهلون يطلبون الشفاء والحماية من الأمراض . ثم ظهر فى الإقليم عام ١٩٥٤ قس كاثوليكى ، يدعو الشعب ، مرة أخرى ، إلى نبذ الطلاسم والتعاويذ التى يتقون بها شر المرض . وقدم لهم الماء المقدس ، فأقبلوا عليه ، وأتخذوه بديلا للطلاسم والتعاويذ ، وأصبح الماء المقدس سلاحهم ضد السحرة (البالوكى بلغتهم) ، يحملونه فى قوارير حين يسافرون ليقيهم من السوء فى الليل ، ويرشون أماكنهم حيث يستقرون ، ويرشون الحقول ليكثر ثمرها ، ويرشون أفواههم ورماحهم حين يخرجون

للصيد ، ويغمســـون أفـــواه بنادقهـــم فيـــه .

والكنائس الإفريقية لم تكن جميعها إنفصالية ، أى انفصلت أو إنسلخت عن الكنائس التبشيرية . فبعضها تأسس بمبادرات من قيادات إفريقية ، حتى قبل توسع البعثات التبشيرية وامتداد نشاطها . ولذلك يشار إليها بالكنائس المحلية أو الأهلية indigenous ، وهى وإن اختلفت من جهة ظروف نشأتها ، إلا أنها لا تختلف عن الأخريات فى الأفكار أو التوجهات اللاهوتية والعقائدية ، ومنحاها التجديدى . وتصنف فى ثلاث مجموعات تعرف بالنبوية والمسيانية والألفية. وتشتهر من بينها كنيسة «هاريست» فى ساحل العاج ، وكنيسة «كيمبانجويزم» التى أسسها سيمون كيمبانجو فى زائير ، والكنائس الرسولية فى زيمبابوى ، وتلك التى أساسها شومبى ، وحركة الادورا Aladura فى نيجيريا ، وتعرف أيضا بكنيسة السيد أو كنيسة الصلاة المستقلة. وتأسست فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، وتمارس إرسالية الشفاء معتمدة على طقس الماء المبارك . ويقدر عدد أتباع هذه الكنائس بحوالى سبعة ملايين ، موزعة فى : غربى إفريقيا ٩٣٨,٦٠٠ ، وشمالها ١٢٠٠٠ ، وجنوبها ٣,٨٠٠٠٠٠ ، ووسطها ١,٢١٥٠٠٠ ، وشرقها ٩٨٠٠٠٠ .

وفى كينيا ، فى منطقة بحيرة ڤيكتوريا (كيسومو) ، قامت مؤخراً واحدة من الكنائس المستقلة ، باسم الكنيسة القبطية . اتضح أن مؤسسها التقط الاسم من الكينيين الذين سافروا إلى مصر وتعرفوا على الكنيسة القبطية، وحملوا اسمها إلى بلادهم . وقد أعطى لنفسه لقب بطريرك الكنيسة القبطية فى كينيا وكل إفريقيا . وادعى أن عقيدة الكنيسة تقوم على الإيمان بالطبيعة الواحدة . أما العبادة فهى خليط من نظام العبادة الكاثوليكى والعبادة الإفريقية التى تسيطر

عليها الطبلة والزغرودة والرقص التوقيعى ، من سيدات يغطين رؤوسهن بما يشبه غطاء الرأس عند الراهبات القبطيات . ولا شئ يربط بين هذه الكنيسة والمعتقد القبطى الأرثوذكسى غير الاسم الذى استخدمه لما له من رنين ووزن تاريخى .

والدراسات التى تمت فى الخمسينات والستينات حول هذه الكنائس الإفريقية ، منفصلة ومحلية أو أهلية ، نعتتها « بديانة المقهورين » لأن نشأتها جاءت كرد فعل لوجود السيطرة الأجنبية ولأنها كانت تمثل الاحتجاج أو التمرد ضد هذه السلطة ، وضد ما يعانيه الشعب من هوان بسببها . وكانت ترى دعوتها المقدسة تتمثل فى المقاومة السلبية ضد رموز السيطرة السياسية والدينية ، أى أن لب علم لاهوتها يدور حول التمرد عليها ، والرجاء فى أن تنزاح عن كاهل شعوبها . هنا يلتقى الدين مع الأمانى الوطنية . ويصير مصدرا للقوة ، ومصدرا لشرعية استعمالها ، ويجد أتباعه فيه ما لم يكن فى حوزتهم من قبل : القوة ، والهوية ، والهدف المنشود محدداً . وقد صارت الرموز المقدسة التى استحدثها وسيلة لتحقيق أهداف زمنية .

الحركات الدينية الجديدة

المقصود بها الحركات التى قامت فى الفترة من عام ١٩٣٠ وحتى اليوم ، وهى الذروة الثالثة لقيام هذه الحركات ، إذ سبقتها ذروتان ، الأولى فى الثمانينات من القرن الماضى ، والثانية فى الفترة ١٩١٤ - ١٩٢٥ . ويقدر عددها الآن بما يزيد على السبعة آلاف ، صاحب ظهور بعضها الفوران الاجتماعى والمستجدات السياسية والحضرية فى القارة ،خلال العقود الثلاثة الأخيرة. ولايخفى أنّ بعض هذه الحركات بدأ منذ وقت بعيد ، فى مواجهة

النفوذ الأجنبي ولكنه لم يكتسب زخما إلا في الثلاثينات . وبعضها ظل على حاله كما بدا من خمسين سنة .في حين نزل بعضها الآخر تحت الأرض ، ثم ظهر مجددا وهومحتفظ بأساسيات عقيدته ومتطلبات عضويته . أما بعضها الأخير فقد نشأ مع المستجدات من الأحداث والتوجهات في مناطقه ، خاصة بعد الاستقلال الوطني ، كحركة الشرابيم والسرافيم في نيجيريا مثلا .

ومع أن الدوافع التي أدت إلى قيامها هي نفسها التي أدت إلى قيام الكنائس المنفصلة والأهلية بوجه عام ، إلا أن ما استجد من عوامل معاصرة ، سياسية واجتماعية واقتصادية ، شجعت على استمرارها ونموها .

وتاريخيا هناك خمسة أسباب أدت إلى نمو الحركات الكنسية والدينية الإفريقية الجديدة :

١- خيبة أمل المعتنقين المحليين في مقولات المسيحية التقليدية ونتائجها مما أدى إلى نمو الجماعات النبوية ، والمسيانية ، والألفية .

٢- ترجمة الإنجيل إلى اللهجات الإفريقية شجع على إعادة تفسير الكتاب المقدس في الأطر والمناخ الإفريقي، وعلى التجديد الروحي بين الجماعات المسيحية .

٣- الانقسامات والصراعات القائمة بين المذاهب المسيحية ، وفشل هذه المذاهب في تلبية الاحتياجات المحلية ، مما أدى إلى قيام الكنائس المنفصلة والأهلية ، وغيرها من الحركات الدينية التي استلهمت تطلعات ومتطلبات شعوبها .

٤- ما تسب إلى الطب الغربي من عجز في مواجهة المشاكل الشخصية،

والاضطرابات النفسية ،والأوبئة ، والنكبات الطبيعية . الأمر الذي حفز الحركات الدينية الجديدة على الاهتمام مجددا بالشفاء الروحاني وأعمال السحر ، والطب التقليدي .

٥- الاعتقاد الذي ساد عن فشل مسيحية الإرساليات في إزالة الفواصل الاجتماعية والثقافية، أو في خلق ودعم الشعور الجماعي العام ، مما أدى إلى ظهور مجموعات طائفية صغيرة ذات ارتباطات أوثق ، وصلات زمالة أقوى .

وسوسيولوجيا ، يعود نمو وازدهار هذه الحركات الدينية الجديدة الى التحديات التي واجهتها المجتمعات من جراء العصرنة modernization ، والتحضّر المتسارع urbanization وماصاحبه من نزوح من الريف ، والتحولات نحو الزمنية secularization ، أو العلمنة . والعوامل المؤثرة في إحداث هذه التحولات وفدت من الخارج ، كالسيطرة الاستعمارية وعمليات التغريب اللذين أديا إلى إضعاف السلطات التقليدية والمعتقدات الدينية . وانتشار كيانات وفعّاليات الدولة الصناعية الحديثة . وتسارع خطوات التمدن كثيرا ما تخلق فجوة بين القديم والحديث ، تهدد بتخلخل المجتمع . فإذا حدث هذا ، أشفق المجتمع على ذاته من التمزق ، وانحاز إلى القديم المألوف بقوة ، في حركة تراجعية إلى الأسس العتيقة المألوفة ، وهو ما يسميه دعاة التحديث «الرجعية والسلفية» .

أما اللاهوت التحريري فكان بمثابة رد راديكالي لتلك التحديات ، ومن خلاله يعتبرلاهوتيون كاثوليك وبروتستانت الكتاب المقدس كتابا ثوريا ، وقد أعادوا صياغة «المقدس» وتحديده في مجموعة مبادئ أخلاقية ، تساند التحرير السياسي والاجتماعي ، وقيام العدل ، وتسعى إلى القضاء على مظاهر عدم

السلالة. وقد تفوقت على الحركات الألفية بأنها سوف تبني هذه الأعماق التي
بالطاقات الدينية.

وقد تبنت الحركات الدينية الجديدة، من جانبها، عدة استراتيجيات ثقافية
وسيكولوجية، في سبيل تحقيقها، كآليات ذات معنى للتكيف مع
وكاستراتيجيات تضمن لها البقاء والاستمرارية، وتحقيق الأهداف، تتلخص
في:

١- التقليدية الجديدة، وتقوم على الاحتفاظ بأسطورة ماضي مثالي مع
إعادة تشكيل تقليد ديني له سلطته وجاذبيته.

٢- بعث القيم أو الحيوية في الموروث القديم، بتقديم تفسيرات جديدة
له تحديثية، والبحث في ذات الوقت، عن تفسير ديناميكي
«المقدس» في كل من الأطر القديمة والجديدة. وهذه الاستراتيجية
تتبناها الحركات الدينية الإحيائية.

٣- التوفيقية، وهي عملية يتم من خلالها الربط بين تعريفات
«المقدس» القديمة، وبين مقاطع أو أشكال جديدة له بهدف صياغة
تعريف مقنع ومرضي للإنسان معا، يعبر عن قيم جوهرية تنبثق من
الماضي، في الوقت الذي يتكيف فيه مع المؤسسات الجديدة أو يبتعد
٤- الألفية (الاعتقاد بعصر ذهبي)، أي خلق أسطورة حول مستقبل
مثالي، يقدم تعريفا جديدا لماهية «المقدس»، ولنظام اجتماعي جديد
يضمن تحقق عملية مثالية لأتباع الحركة. وهذا ما تسير عليه الحركات
السلفية والألفية. وتظهر لاهوت التحرير.

في أن هذه الاستراتيجيات تتلخص في بعث القديم، وضمان استمرار ما هو
تقليدي وتراثي، تحت مسميات أو تعريفات جديدة، مع إعادة تقييم وتحديد
المقدسات التي ينبغي احترامها والحفاظ عليها، وإعادة صياغة الحلم Dream
الجماعية وتوقعاتهم، وإعداد برامج عمل، في إطار نظام جديد، يضمن فوائد
معنوية لأتباع ومؤيدي هذه الحركات. وقد تكون هذه الفوائد اجتماعية، أو
اقتصادية، أو سياسية، أو ثلاثتها مجتمعة.

وأتباع هذه الحركات أنفسهم، كما أثبتت الدراسات، يستغلون
معتقداتها في تأكيد كيانهم وهويتهم، واستمراريتهم، وكوسيلة لتحقيق النجاح
والمنفعة. وقد أدى هذا، في رأي بعض علماء الاجتماع إلى تحول ما كان يشار
إليه قبلا «بديانات المقهورين» إلى ديانات اقتناص الفرص، أو التسلق لبلوغ
أهداف دنيوية أو مكاسب اجتماعية وسياسية ومادية، كما قد يفتح الباب
للانتهازيين والمتاجرين بالدين، في مختلف المجتمعات الإفريقية، لتحقيق
مكاسب مادية أو اجتماعية.

وتقدم قرية كاليبا، في زامبيا، نموذجا عمليا للتوجهات الحديثة.
فالقرية عبارة عن مجتمع أغلبه من شباب شهود يهوه، وقد تميزوا بتحقيق نجاح
كبير في أنشطتهم الزراعية والتجارية. واتضح لمن درسوا هذه الظاهرة أن سر
نجاحهم يعود إلى أنهم أعطوا تعريف نظام مجتمعهم في إطار معتقدهم الديني
«الألفي»، وجعلوا «المقدس» الواجب احترامه على أنه العمل الجاد الذي
يؤدي إلى النجاح الاقتصادي والمادي، وهو في ذات الوقت «المقدس» الذي
يؤهلهم للعصر الألفي ودخول الملكوت.

والجمع بين ما هو مقدس وما هو دنيوي زمني، في معظم هذه

الحركات ، دعّم فيها البعد السياسى برموز سياسية قوية ، خاصة تلك التى تعتنق المذهب الألفى . الأمر الذى جعلها موضع شكوك سلطات الاستعمار ، ثم السلطات الوطنية بعد الاستقلال . فحركات «برج المراقبة» ، على سبيل المثال ، محظورة فى بعض البلاد الإفريقية . بينما غيرها من الحركات موضوع تحت المراقبة الشديدة ، فى بلاد مثل زائير وزامبيا وزيمبابوى ، وذلك لقدرة هذه الحركات الدينية على تحريك الجماهير ، ودفعها إلى القيام بأعمال وأنشطة ، لاتقع غالبا تحت إشراف أو رقابة الدولة . كما أن اعتبار « التحرر السياسى » قيمة مقدسة فى برنامج دعوتها ، تجعلها مصدر أرق ، إن لم يكن تهديدا للنظم القائمة .

والشعائر والطقوس التى تمارسها بعض هذه الحركات ، تعتبر من أهم أركانها . فهى وسائلها فى نقل ونشر التراث ، وفى الاتصال ، وفى خلق وتدعيم روح الجماعة . وهى متعددة ، وتختلف من مجتمع إلى مجتمع . فمجتمع الصيد والقنص ، مثلا ، يشدد على طقوس تختلف عن تلك التى يركز عليها المجتمع الزراعى . وهناك ثلاثة مجموعات منها تعتبر الأهم والأكثر إحتراما وشيوعا ، وهى :

(١) طقوس الاجتياز أو العبور (المرور) (Passage) من مرحلة عمرية إلى أخرى ، أو من حالة إلى أخرى . وهى تتعلق بدورة الحياة ،من ميلاد وصبوة، ودخول فى عالم الرجال (initiation) عند البلوغ ، وزواج ، وشيخوخة ، وموت . والتدريبات الخاصة بالـ initiation تركز ، بالنسبة للذكور، على الجانب السياسى (الخطابة والفنون وحكمة القبيلة) لتأهيلهم للاضطلاع بمركز القيادة والمسئولية الدائمة فى مجتمعاتهم . أما بالنسبة للبنات فالتركيز

فيها على الأمور الأنثوية ، والحياة الزوجية المقبلة ، وكيفية تجنب مغازلات الذكور لهن قبل الزواج ، والاحتفاظ بعلاقات جيدة مع الأصهار ، واحترام الزوجات الأخريات. وفى فترة التدريب هذه لايشار إليهن بأسمائهن ، بل فقط بكلمة «صبية».

ولطقوس الاجتياز ، الفردى منها والمجتمعى ، ثلاث شعائر متعاقبة ، مستوحاة من قصة تأسيس الكون وتجديده ، أى انتقاله من الفوضى والخراب إلى الكينونة والنظام . وهى : شعيرة الانفصال ، عندما يترك المبتدئ أسرته ويتجه إلى الخلوة . وشعيرة الاندماج فى مرحلة التدريب ، وتشير إلى حالة انتقالية ، أو مرحلة متوسطة نحو الحالة المأمولة فى الحياة ، والتى هى مازالت فى طور التشكيل . وشعيرة التجمع ، عندما يرجع المبتدئ the initiate، من خلوته ومدرسته ، كشخص جديد وقد صار رجلا ، ومقبولا من قبيلته .

(٢) طقوس التقويم الزمنى Calendar، وهى الطقوس التى تتم فى أوقات معينة ، حسب تقويم محلى محدد ، مثل احتفالات رأس السنة ، والحصاد . والاحتفالات الخاصة بالأبطال والجماعة، وبالمناسبات المرتبطة بالآلهة الأدنى مرتبةً . ومن الشائع وجود « تقويم حائط » معلقاً فى بيوت مجتمعات إفريقية كثيرة . وهو منسق حسب الاحتفالات الشعائرية .

(٣) طقوس الأزمات ، وهى التى تُمارس عند وقوع كارثة أو ما شاكلها، من أجل إعادة الحياة إلى وتيرتها الطبيعية ، أو درء الشر. ومنها طقوس الشفاء من أجل طرد الشر أو السحر المتسبب فى المرض . وطقس العرافة الذى يستهدف التنبؤ بكارثة ما وتحديد سببها . والطقس التكفيرى الخاص بتجنب وقوعها .

ومما يجدر ذكره، أنه رغم انتشار المسيحية والإسلام [1] فى إفريقيا جنوب الصحراء، فما زالت الديانات الإفريقية التقليدية، بطقوسها وشعائرها، تلعب دورا كبيرا فى حياة شعوبها السياسية والاقتصادية والثقافية. وتظهر أهميتها بكل جلاء فى الاستمساك بالطقوس وخاصة شعائر الشفاء. ويقدر عدد الذين يمكن اعتبارهم من أتباع هذه الديانات، حسب إحصاء عام ١٩٧٧ بحوالى ثلث التعداد العام.

وهناك حركتان، من هذه الحركات الدينية الجديدة، تستحقان الإشارة إليهما:

(١) الجوديانية Godianism (الإلهية). وقد أسسها واحد من قبيلة إجبو فى نيجيريا. وتدور عقيدتها حول الله الذى خلق العالم كفردوس نعيم، ولكن الإنسان حوّله إلى جحيم بسبب معاركه حول سبل عبادته. وهى تؤمن بالله القادر على كل شئ، الخالق والحافظ. وأخوة الإنسان العالمية تحت أبوة إله واحد.

ويقول عنها مؤسسها إنها تمثل فلسفة إفريقيا الدينية التقليدية، وهى تدور حول شخص الله نفسه، متميزة عن المسيحية التى تدور حول شخص المسيح

---

(١) فى جامبيا وساحل الذهب (غانا)، مثلا، اعتنقوا الإسلام، مع الاحتفاظ ببقية من تقاليدهم القديمة. فالإسلام لم يقض على نظمهم المحلية، ولكنها اكتسبت شكلا جديدا وتلاءمت مع الدين الجديد.

والواضح أن تعاليم الإسلام، فى مجتمعات غربى إفريقيا الإسلامية، منسجمة مع التقاليد المحلية، فى نوع من المزيج الصحى، الإفريقى النقاء. يساعد على ذلك، كما يقول ترجمهام، أن العبادة فى الإسلام غير معقدة. وتدريب رجال الدين المسلمين وإعدادهم يحتاج إلى برنامج بسيط، ليس كالحال مع الكهنوت المسيحى.

(ابن الله)، والإسلام الذى يدور حول النبى محمد (خاتم المرسلين). ورسالة الجوديانية هى الجمع بين الديانات المتصارعة حول الوفاق والتسامح المتبادل، وجعل الجودياني يحب الأديان الأخرى والناس جميعا، بالرغم من اختلاف العقيدة واللون. ويضيف مؤسسها إن الدين الذى لا يطمع فى تحقيق هدف كهذا، ليس دينا على الإطلاق. فملكوت الله سيأتى إلى العالم حين يتعلم الإنسان أن يكف عن العراك مع أخيه الإنسان لأسباب دينية.

(٢) الإفريقانيا Afrikania، وأسسها فى غانا كاهن كاثوليكى عام ١٩٨٢. وهو يؤكد أن الإفريقانيا ليست ديانة جديدة، بل هى قديمة مارسها أسلاف شعوب إفريقيا منذ عام ٢٧٠٠ ق.م.، عندما استقروا على ضفاف النيل الأعلى، ومنها هاجروا إلى مصر، ثم إلى غربى إفريقيا وغيرها من مناطق القارة. والإفريقانيا، كما يذكر مؤسسها، دين يعلم الخير والصدق والعدل والحب والخلاص وفقا للتقاليد المقدسة لعموم القارة الإفريقية. ولكن لكل معتنق أن يتعبد تبعا للروحانية التى لمجتمعه التقليدى. ولقد تبنّت الإفريقانيا «كتاب الموتى» المصرى القديم كتابا لها لتكون على شاكلة الديانات ذات الكتب السماوية. إلى جانب كتب «الأسرار المصرية»، «والإرث المسروق»، «ودليل الإفريقانيا» الذى يتضمن المعتقدات العشرة الأساسية للديانة، وأعمدة الحياة الأربعة عشر. والإفريقانيا تعلن إيمانها القوى بكل الإعلانات المقدسة، فى أى بيئة، وفى أى شكل، أى الله، والآلهة، والأسلاف، والسحر والعرافة. والطقس الرئيسى فى عبادتها هو سكب الخمر كذبيحة. وتهتم الإفريقانيا بالحوار مع مختلف الجماعات التى تمثل الروحانية الإفريقية التقليدية، أكثر من إهتمامها بالحوار مع المسيحية أو الإسلام، من منطلق أن هذا يساعدها على الحصول على الاعتراف الإفريقى بها، وعلى زيادة أتباعها.

مع أن المفروض أن تكون هذه الحركات الدينية الجديدة واقفة على أرض صلبة ، لانتمائها اللصيق ببيئتها ، ولأنها عادة تنشأ فى مناطق متجانسة عرقياً ، ولقدرتها على بث روح الجماعة والولاء بين أتباعها ، إلى جانب إسهاماتها فى المجال السياسى والاجتماعى والثقافى ، فهناك من العلماء من يتشكك فى قدرتها على البقاء ، إذ تبدو لهم غير مستقرة ومتقلبة . ويرون أن ظهورها إنما يمثل مرحلة واحدة من مراحل الاحتجاج السياسى أو الدينى ، الذى يرافق عادة ميلاد الأمم الجديدة واستقلالها فى إفريقيا . فمشكلة خلافة الزعيم بعد موته ، أو الخلاف حول بعض الأفكار ، قد يؤدى إلى انشقاق عميق من الصعب رأبه . وهناك كنائس وحركات كثيرة تعانى فعلاً من انقسامات ، تولدت عنها تفريعات متعددة متصادمة ، فى المكان الواحد ، لعجز أعضائها عن حل المشاكل الخاصة بخلافة الزعامة ، أوعجزها عن توحيد الأمور الخلافية العقائدية .

ومع ذلك فالسجلات تشير إلى طول عمر هذه الحركات ، فبعضها مازال قائما منذ بداية هذا القرن . ويعتبر التوجه نحو المسكونية من الاتجاهات الجديدة التى تساعدها على الاستقرار والاستمرار . فبعضها يسعى إلى أن يكون له شكل ووضع دوليان ، بارتباطه بالحركات المسكونية فى العالم . ومن الكنائس التى انتسبت إلى مجلس الكنائس العالمى كنيسة الادورا فى نيجيريا وكنيسة كيمبانجويست فى زائير ، وكنيسة نينوى إسرائيل الإفريقية فى كينيا ، وكنيسة الروح القدس الإفريقية فى كينيا أيضا . وتحاول غيرها من الكنائس المحلية الانضمام معا فى جمعيات تعاونية محلية أو قومية أوقارية ، تمثلها كجماعات متحدة دينيا وثقافيا وسياسيا . وهذه الجمعيات ، التى تتكون طوعا ، تحاول الحفاظ على الاستقلال العقيدى لكل واحدة ، بينما تنظم جهودا مشتركة فى مجالات جمع المساعدات ، والتعليم والثقافة .

الفصل السادس

لاهوتيات إفريقيا-إلي أين ؟

بقدر ما يصنع الإنسان التاريخ ، تاريخه ، وتاريخ مجتمعه وعالمه ، بقدر ما يتحين التاريخ فرصة ، فى دوراته ، ليؤثر على الإنسان وقراراته ، ومجتمعه وعالمه . والتاريخ شأن كل قوى الكون ذات الفعالية ، يسعى إلى أن تكون له قوانين قاطعة، وحتمية يفرضها دون مراجعة . إلا أن الإنسان لا يقف جامدا ، بل يتطور ويتغير ، وتتغير معه أدواته التى يصنع بها تاريخه . لهذا قلما يتكرر التاريخ ، و إن حدث ، كان ذلك دليلا على غفلة الإنسان ، أو تخلّف أدواته .

وإفريقيا قد خرجت للتو من نفق طويل طويل مظلم ، بعد أن تحكّم غرباء فى كتابة تاريخها ، فترة طالت لقرون . وهى تصر اليوم على أن تمسك بزمام أمورها ، وأن تنتزع القلم من الأيدى العابثة ، لتسجّل تاريخا جديدا تعتز به وتفتخر .

فبينما كانت النهضة والتنوير ينشران ألويتهما فى ربوع أوروبا ، بدءاً من القرن الرابع عشر ، خرج أبناء منها يستكشفون بقاع الأرض ، يحملون المشاعل إلى المجاهل ، من السواحل إلى الداخل ، كيما ينيروا الطريق للأجيال . فى حين اتجه غيرهم إلى استغلال الغافل، واستعملوا السلاح فى أيديهم لقهر الإنسان الإفريقى واخضاعه تحت الاحتلال . وتورطوا فى تجارة الرق وراء الربح السقيم .

فأنكروا على الإفريقى آدميته ، وداسوا كرامته ، واصطادوه صيد الكواسر فى الأدغال ، وقيدوه بالسلاسل ، وباعوا حريته لمن يدفع الثمن الأعلى . ويقدّر عدد من تداولوهم ، صيداً وشراءً وبيعاً ، من عشرين إلى أربعين مليونا ، هلك أكثر من نصفهم فى الطريق إلى أراضى الإذلال .

ولقد أصابوا روح الإفريقى بجرح غائر عميق ، هيهات أن يندمل ، أو ينسى . وأساءوا إلى المسيحية التى نسبوا أنفسهم إليها ،وجلبوا عليها عارا لن يتمحى من الذاكرة الإفريقية بسهولة . أما الذين حاربوا الرق من المبشرين والتنويريين والسياسيين ، فقد غزوا إفريقيا ثقافيا وحضاريا ودينيا ، وتورطوا فى استهجان كل ما للإفريقى من تراث وثقافة ، فصدموا وجدانه ،ومزقوا نفسه ، وأصابوه بانفصام أو « شيزوفرانيا » ثقافية ودينية .

ودار التاريخ دورته ، وتقلّب تقلباته ، وعاد اليوم ليكون للإفريقى طوع بنانه ، يسطّر صفحاته بنفسه ، بحريته وإرادته . ولا مهرب - وهو يعيد سلطان تراثه وحضارته - من أن يعيد البحث عن قيمه الروحية والدينية ، باعتبارهما زاد نفسه ووجدانه ، وعماد وطنيته وقوميته. وأن يسترد هويته التى حاول الأجنبى طمسها ، أو تشويهها ، أو إلغائها كلية بحجة تمدينه وتغريبه ، ولامهرب أيضا من أن يدير ظهره إلى كل ما هو وافد غريب ، بما فيه مسيحية الغرب بإرسالياتها، ومبشريها.

ومنذ بداية موجه الاستقلال الوطنى ، ويقظة القومية الإفريقية ، فى الخمسينات من هذا القرن، والدعوة نشطة ، فى أرجاء القارة السوداء ، تحضّ الكنيسة على ترجمة الإيمان المسيحى ترجمة توفّر صيغة جديدة ترتبط بالواقع

الإفريقى ، وبواقع الإنسان الإفريقى ، بقوة وصدق . ولم تصدر هذه الدعوة عن القيادات والأفراد الإفريقيين وحسب ، بل شارك فيها مرسلون أجانب أيضا ، أمثال الأسقف « وليم فنسنت لوكاس » أسقف ماساى (١٩٢٦ - ١٩٤٤)، إذ طالب بعلاقة أوثق بين الكنيسة المسيحية الوليدة ، فى إفريقيا ، وبين حياة القبيلة، بل وندد بتدهور الحياة القبلية ، فى بعض أجزاء القارة ، لصالح أسلوب الحياة الأوروبية ، ونبه فى الوقت نفسه إلى الحرص على عدم التورط - عن جهل أو غفلة - فى المفاهيم والعادات الوثنية ، وإلى الاحتراز من الأخطار الكامنة فيهـا .

وكان القس « ت. أ. بيتهام »، (سكرتيرسابق لإرسالية الميثودست فى لندن ١٩٦٧)، أعنف فى استنكاره لتأخر الكنيسة فى أن تصبح إفريقية فى العبادة والمفاهيم اللاهوتية، مرددا القول « إن الكلمة قد تجسد من أجل كل جيل ، كى يكون معروفا ومفهوما كونيا . ولهذا ينبغى أن يتجسد فى حياة كل شعب ، فتكون هناك ليتورجيا إفريقية وعلم لاهوت إفريقى » .

وقد سبقهما ، بقرن تقريبا ، مبشران مرموقان هما «جيمس جونس » الذى ذهب كمبشر فى نيجيريا عام١٨٧٧ ، و د. إدوارد بليدن ، عضو الإرساليات فى غرب إفريقيا . فطالب الأول ألا تظل الكنيسة الإفريقية غريبة أو دخيلة ، بل أن تصبح نبتة محلية أو أهلية indigenous فى التربة الإفريقية . ودعا إلى إصلاح الليتورجيا لتتوافق والأوضاع المحلية . وقد وافقه الثانى فيما دعا إليه ، وأضاف محذرًا من أن الكنيسة الإفريقية فشلت مرة فى شمال إفريقيا ، فى العصور الخوالى ، وأنها ستفشل مرة أخرى مالم نقرأ الإنجيل فى لغتنا

الوطنية native . وأكد أن الإفريقى يمكنه أن يتقن العلوم ، ويتثقف بأوسع الثقافات ، ويكتسب المهارات لتنمية بلاده ، ويتفهم «الخلاص» ويُقبل عليه ، دون أن يصبح أوروبياً ، أو يتنازل عن تراثه وهويته .

الأفرقة indigenization

وأصحاب الدعوة إلى المحلية indigenization (الأفرقة) اليوم ، يقولون إن الكنيسة فى إفريقيا قد نشأت بعلم لاهوت «سابق التجهيز» ، جعل صلتها ضعيفة أو معدومة بتراثها التقليدى ، وبالمعتقدات المحلية ، وبممارسات الشعب الذى قامت من أجله . ومازالوا ينظرون إلى المسيحية على أنها « ديانة الرجل الأبيض » ، ومرتبطة به . وباتت الآن من مخلفات التاريخ ، بعد ما حمل الاستعمار عصاه ورحل .

ويضيفون أن قبول الدين المسيحى لايعنى الانفصال التام عن التقليد الإفريقى ، وعن الديانة القبلية ، كأنها ثنائية بين النور والظلام ، وبين ما هو مقدس وما هو منحرف . لأن الأمر ليس بهذه البساطة أو التسطيح . لأن مصدر هذا التقليد هو الله . شأن الإعلانات السابقة على المسيحية ، ويجد إكتماله فى المسيحية ذاتها . فالقيم الإيجابية فى الديانة القبلية إنما أتت من نفس المصدر الذى جاءت منه المسيحية . والمطلوب هو تنقية عناصرها البشرية .ويمكن اعتبارها «نقاط التقاء» تجد اكتمالها أو «تكميلها» فى الديانة المسيحية ، بعملية تغيير أو تحول عن «بعض النور» ، أو من الطبيعة الجزئية للأمور الأولى ، إلى «النور الكامل» . وعندما يتحقق هذا التحوّل ، ويتغير معه الإنسان الإفريقى ، فهو إنما يعلن أن سيادة الله عليه قد صارت حقيقة ، فى يسوع المسيح ، باعتباره «السلف

الأعظم الذى فوق الكل» . فديانة الإنجيل ذاتها ، فى العهدين القديم والجديد–فى رأيهم– قد مرت فى مراحل من النمو والتطور، مثل كل الديانات القديمة ، وتأثرت بشدة بالتفاعل مع محيطها الدينى .

ويؤكدون أنه لاينبغى النظر إلى الثقافة الإفريقية باعتبارها شيئا من الماضى، يعود إلى ما قبل الاستعمار ، بل باعتبارها موجودة وحاضرة الآن وهنا . أى باعتبارها حية ومعاصرة . لأنها تأثرت أيضا بالمؤثرات الغربية وإرساليات التبشير . والإفريقى وثقافته ليسا «متحفياً» ، أو قطعة من الأنثروبولوجيا ، لأنه قد تغيّر واقتبس وتطور .

والدعوة بالتحديد هى إلى قيام علم لاهوت إفريقى ، يهتم بترجمة[1] أساسيات الإيمان المسيحى فى لغة إفريقية أصيلة ، كيما يكون هناك حوار أصيل وبنّاء بينه وبين الثقافات الإفريقية . ومع أن هذه عملية ذهنية ، إلا أنها تخدم وتحقق إرسالية الكنيسة .

والاهتمام بالربط بين الإيمان المسيحى والثقافة الإفريقية هو لتأكيد القيمة الحقيقية لها بعدما نالته من تحقير الأوروبيين لها . ولهذا يسود الاعتقاد أن «اللاهوت الإفريقى» ،قد عمل عملا عظيما بإعادة تأهيل الوعى الدينى الإفريقى، كما أثبت بحزم سقوط الدعوى القائلة إن «الأبيض» هو الحق ، أو هو الأفضل . وهكذا تخلّص الإفريقى مما أصابه من شيزوفرانيا schizophrania

---

(١) هل الأمر سهل ؟ كيف يمكن ترجمة الخطية الأصلية أو الجدية ، حسب التعليم الإنجيلى ، والإفريقى يؤمن أن النفس البشرية نقية ،وخالية من الخطية ؟

دينية ، لأن جزءاً منه كان قد أُجبر على أن يُعطى اعترافا لفظيا فقط للمسيحية، كما قُدمت وفُسرت وفُهمت بواسطة الرجل الأبيض . بينما الجزء الأكبر من نفسه – وهو جزء خجل من الاعتراف به جهارا ، وجاهد لقمعه – قد شعر بأن إفريقيته قد أنتهكت . فديانة الرجل الأبيض الاحتفالية لم تكد تلمس شيئا من أعماق نفس الإنسان الإفريقى ، إذ أنها ، فى بدايات العمل التبشيرى ، جاءت ترتدى عباءة غربية ، ووجد معظم المبشرين صعوبة ، وأحيانا استحالة ، فى التمييز بين الإيمان المسيحى والحضارة الغربية . كأن الشيطان – كما يقول أحد اللاهوتيين الإفريقيين اليوم – قد استغل هذا الوضع ليُغرِّب الهوتنتوت والبوشمن (سكان جنوبى إفريقيا الأصليين) وغيرهم عن أصولهم ، أو ليتركهم بلا أمل أو رجاء يربطهم بالسماء، وهم فى وضعهم كإفريقيين . فالمبشر تصرّف على أساس أن الإفريقى بدون تراث دينى أو روحى ، وكان يعظ ويعلم كأنه يكتب على صفحة خالية بيضاء . وفى هذا ما فيه من تجن على الحقيقة والواقع وطبائع الأمور. فالعلم والتعليم ينبنيان دائما على خلفية موجودة ، وعلى جذور ممتدة . ومن هنا يتحقق النمو والتطور.

وكما أن الإفريقى يتعلم الكثير من الإيمان المسيحى كيف ينقّى «ويكمّل» اعتقاداته عن الله ، فبإمكان المسيحى أيضا – فى رأيهم – أن يتعلم شيئا من الإفريقى التقليدى ، أى تبصّراً جديدا ، وطرقا جديدة لفهم الله . ففهم الإفريقى لله ينطوى على نواح إيجابية يمكن أن تفيد المسيحية ، مثل الثراء فى أسماء الحمد والتمجيد ، والرموز البليغة التى يشار بها إلى الله فى التراث الإفريقى ، وخاصة الرمز الخاص «بأمومة الله» ، الذى تعتقد به بعض الشعوب الإفريقية لأنه إذا فهم فهما صحيحا ، واستعمل استعمالا سليما ، فإن صورة

الإنجيل عن «أبوة الله» تكتمل ، كما ينفتح الطريق إلى فهم أعمق للطبيعة الإلهية .

علوم لاهوت قومية

ولاشك أن يقظة القومية الإفريقية ، خاصة فى العقود الأخيرة ، تقف وراء اشتداد الأنتقادات الموجهة إلى المسيحية الإفريقية ، كما هى فى كنائسها الوطنية الأصولية[١] ، التى انبثقت عن كنائس الإرساليات ، وتسيطر عليها المسيحية ، دين الغرب [٢] . فبالـــــغ العديد من دعاة المسيحية المحلية indigenous فى مفاخرتهم بالتراث الدينى الإفريقى العريق . وانتشرت علوم لاهوت متعددة ، كما قامت حركات كنسية جديدة . وغالى علم اللاهوت الأسود [٣] بالذات فى التشبث بإفريقيته ، وفى تمجيدها ، حتى أنه يردد فى ديباجاته «نحن نعلم أن إسرائيل كانت أمة سوداء ، وأن أحفاد اليهود السود موجودون الآن فى إسرائيل ، ومنطقة البحر المتوسط وإفريقيا . وأن الإنجيل كتبه يهود سود . وأن العهد القديم إنما هو تاريخ اليهود السود. والأناجيل الثلاثة الأولى تتحدث عن قصة يسوع المسيح المبنية على العهد القديم . وأن المسيا نفسه كان أسود[٤] ، وجاء ليحرر الإنسان الأسود من قمع الأمميين البيض . ونحن

(١) الباب الرابع من الكتاب.

(٢) مع أن المسيحية نشأت فى آسيا وإفريقيا . وأبطال الإيمان المسيحى ، وواضعو قانون الإيمان المسيحى ، أمثال أثناسيوس الرسولى ، كانوا من إفريقيا ذاتها . وجعلوا إفريقياً ، قيروانيا ، يحمل الصليب (مت ٢٧ : ٣٢).

(٣) كان مهده بالولايات المتحدة الأمريكية ، ومركز قوته فى جنوب إفريقيا (العنصرى) .

(٤) والمعروف أن «أنتاديوب» السنغالى ذكر فى كتابه أن رمسيس الثانى كان أسود البشرة .

تعلم الآن أن هذه الأمور كلها حقائق أكيدة . وأن ديننا ووعظنا وتعليمنا تأتى جميعها من العهد القديم ، لأننا شعب الله المختار » .

ومهمة اللاهوت الأسود ، فى الواقع ، هى انتشال الشعب من بؤرة الإذلال . وفى محاولته هذه يتجاهل قيما أدبية ومسيحية ، تبدو غير مرتبطة بمهمته ، مثل التواضع مع الناس ، والشعور بالذنب أمام الله .

أما علم اللاهوت الإثيوبى فانطلق ، من جنوب إفريقيا ، بشعاره « إفريقيا للإفريقيين » ، وهو يعانى من سياسة العزل العنصرى ، ويقوم على ما جاء فى المزمور ٦٨ : ١ « *كوش تسرع بيديها إلى الله* » . ويتسم بالراديكالية فى أفكاره ودعوته . فهو يدعو إلى استعادة الأرض « راديكاليا » من المغتصب الأبيض . وإلى انسحاب البيض « راديكاليا » من كل المؤسسات الإفريقية ، بما فى ذلك « الله الأبيض ، ويسوع الأبيض » . كما يدعو إلى قيام عمل « راديكالى » مشترك بين الحركات المحلية ضد الاستعمار ، على غرار حركة الماو ماو فى كينيا . وإلى الاعتراف غير المشروط بالزنجية Blackness ، والتأكيد عليها من خلال القدامة السوداء ، مثل كنائس « شيليمبوى » « وشيمب » ، « وكيمبانجو » . ومن خلال النبوية والكهنوتية السوداء مثل حركة أليس لنكلينا . ومن تعاليمه الأساسية أن المسيا الأسود قائم عند بوابة السماء ، وفى يده المفاتيح ولايسمح إلا بدخول السود فقط . وإن كان بإمكان بعض البيض الدخول ، على أن هذا يتوقف على عدد الكراسى فى الملكوت !

وهناك علم لاهوت « تصفية الاستعمار » الذى يجمع بين علم اللاهوت

الأسود الأمريكى ونظيره الإفريقى فى أسسه ومضامينه . وهو يخاطب المقهورين سياسيا واجتماعيا ، ويدعو كل إفريقى إلى الانضمام إلى مسيحية « العمل المباشر activist » التى تضع أسس التحرير السياسى / الاقتصادى / الاجتماعى على مستوى يوازى التحرر الروحى أو أعلى منه .

أما علم اللاهوت الذى يشار إليه « باللاهوت الإفريقى » ، تمييزا له عما عداه ، فيسعى من جانبه إلى تأكيد كرامة الإنسان الأسود المقهور . ويركّز فى تعاليمه على العهد القديم [(١)] .ولكنه يختلف عن الثلاثة السابقة بأنه لايدّعى بوجود مسيا أسود . ولا يدعى بوجود أى نوع من الاحتكار الدينى الذى يقوم على الجنس ، أو على لون البشرة، وإن كان يتفق معها ، وقد يتفوق عليها ، فى التأكيد على كرامة الزنجية والشخصية الإفريقية. علما بأن الخلاص « الفردى » لا يشد انتباه الإفريقى ، إذ يهمه الخلاص الجماعى ، حيث لا عدد ولا أرقام ، فالإفريقيون يتشاءمون من الأعداد الإحصائية . ثم أن الخلاص « الفردى » يرتبط بمسيحية الرق والعبودية .

وهو إذ يمجد التراث الإفريقى ، بل وكل ما هو إفريقى ، يفترض شرعية

(١) وتمثله كنيسة ألادورا ، أو كنيسة السيد «فى نيجيريا . فمن بين معتقداتها وممارساتها عادات وممارسات يهودية. ويضيف مؤسسها ، دكتور أُشيتلو ، زوجة بعد أخرى إلى حريمه. كما أنه فرض استعمال أبجدية غريبة ، قال إنها أوحيت إليه . وتحظى هذه الكنيسة بترحيب واسع، كمؤسسة شرعية يحقق الله ، من خلالها ، هدفه فى إفريقيا ! رغم أنها متهمة بأنها تخلو من وجهة نظر مسيحية صلبة فيما يتعلق بالثالوث المقدس . وأخفقت فى استيعاب الفكر الكتابى عن الله « البار القدوس » ، بمعاملتها الخطية بخفة ، وأنها تسقط بمجرد التوبة ودون تكفير . كما ألبست السيد المسيح دور الوسطاء الإفريقيين التقليديين ، وعجزت عن فهم عمله الخلاصى، وأنه السيد الذى يجعل كل شئ جديدا .

وصحة إعلان الله المباشر للمتعبدين فى الديانات الإفريقية . أى أن للإفريقى التقليدى فعلا إختباراً حياً لله ، يتميز تماما عن اختبار المسيحى لـه تبارك اسمـه . كما أن الله خاطب الكاهن الإفريقى ، فى موقعه وفى موقفه كإفريقى، كما فعل مع اليهودى . فالوحى والإعلانات الإلهية هى من نصيب الجنس البشرى فى كل الأزمنة ، وفى كل بقاع الأرض . وعلى هذا الأساس يدرس الإفريقى تراث شعوبه ، ولديه الدليل على أنها عرفت الله وعبدته. كما أنه يستطيع التعرف على ما هو حقيقى عن الله ، فى شخص يسوع المسيح ، وذلك فى تراثه قبل المسيحية .

وهو أيضا يتجه إلى الديانات الإفريقية ، وإلى إفريقيا عموما ، كمصدر لعلم لاهوته. ويستعمل الإنجيل بعد ذلك لتأييد وتأكيد ما وجده فعلا فى هذه الديانات. ويسعى فى نفس الوقت إلى اكتشاف نقاط من التشابه بين فكر أو تصور مسيحى وآخر إفريقى ، ويجمع بين عناصر من كليهما ، كما جاء فى الفصول السابقة من هذا الكتاب .

ومنذ أمد بعيد والمحاولات الجادة تبذل ، فى غربى إفريقيا بالذات ، من أجل أقلمة العبادة المسيحية فى المحيط الإفريقى ، منها حركة Nigeria Airs، لاستعمال النماذج الموسيقية الإفريقية .كما تقدم الكنائس المستقلة أمثلة بالرقص والطبلة تشد انتباها شعبيا واسعا. وفى مؤتمر جميع كنائس إفريقيا (AACC)، الذى عقد فى إبادان بنيجيريا عام ١٩٥٨ ، تحقق الكثير فيما يتعلق بأفرقة الكنيسة ، فى الموسيقى وتقدمات الشكر، والملابس الكهنوتية ،وطقوس البلوغ والتثبيت والزواج والجنازات .

وهناك دعوة جادة لترجمة طقوس «التثبيت» initiation الإفريقى فيما يقابلها من الطقوس المسيحية ، وهى طقوس تحتفل بدخول الإفريقى ، ومروره ، وخروجه من الحياة ، كالميلاد والبلوغ والزواج والموت ، والعماد والتثبيت . والهدف هو تشكيل طقس مسيحى يتميز بالأصالة الإفريقية ، يؤسس على الخلاص الذى يسوع المسيح ، «السلف الأعظم» ، باعتباره التصور الدينى الأساسى الذى يتقرر بمقتضاه كيفية «تنصير» طقوس التثبيت الإفريقى . فهذا الخلاص هو النقطة المحورية فى الحياة ، التى يمكن بها تجميع العناصر الغريبة كى تصبح جزءاً من الحياة الكاملة الجديدة ،التى هى يسوع المسيح . ويكون «التثبيت» الإفريقى نقطة إلتقاء توضح للإفريقى المؤمن أن يسوع المسيح هو «السلف الأعظم» ، الذى تلقّى فيه جوابا حقيقيا وصحيحا ونهائيا لما يدور فى ذهنه من أسئلة حول وضعه الضائع .

ولقد اعترض على هذه الدعوة لاهوتيون أفارقة ، باعتبار أن التثبيت initiation الإفريقى هو مدخل للقبيلة ولعالم الكبار فيها . فى حين أن العماد المسيحى ، مثلا ، له مصدر مختلف ، ويقوم على مفهوم مختلف . والجمع بينهما بقصد إعطاء طقس العماد لونا افريقياً يخلق شكلا فولكلورياً بعيداً عن قدسية العماد . ثم أن تاريخ القبيلة التى على الإفريقى أن يدخل ويثبّت فيها ، عند البلوغ ، ليكون إبنا لها ، ليس جزءاً من التاريخ الخلاصى، والعضوية القبلية التى تتم للفرد من خلال لحمه ودمه لا ينبغى خلطها بعضوية جماعة شعب الله التى تقوم على الإيمان بالمسيح ، والولادة **« ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله »** (يو ١ :١٣) .

العالمية Universalism [illegible]

وهناك حركة أكثر حداثة، تنطلق من فكر الوحدانية المسيحية [illegible]، لكنها [illegible] مسيح الأديان، وهو الفكر الذي [illegible] الموت [illegible] [illegible]. [illegible] هذا الفكر [illegible] الجماعات [illegible]، [illegible] [illegible] [illegible] (١) [illegible] [illegible] هذا الفكر على أن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible].

[illegible] [illegible] [illegible].

[illegible] [illegible].

وراء هذا الفكر والتوحيد، وغيرهما، يقف فكر العالمية أو الكونية Universalism الذي يعود التاريخ له في مؤتمر مسيحية ولم مسيحية عديدة، ويدور حول اعتقاد مزعوم مفاده أن جميع الناس سيخلصون في النهاية، سواء آمنوا بالمسيح الآن أو لم يؤمنوا (٢). ويدعي مروجوه أنه موجود في الفكر الكنسي [illegible] الكنائس العالمي، والمجالس الكنسية الأخرى المرتبطة به، حيث أن الهدف هو قيام سلام عام وأخوة مشتركة في العالم كله. ويصل إلى بعض الإرساليات التبشيرية في إفريقيا بعد تأثره به، أو تتصرف تحت ضغط منه. فالمشيخية Presbyterian، أو الكنائس المشيخية، في إفريقيا، خففت من أنشطتها منذ عقدين من الزمان، وسحبت ٢٢٠ من مبشريها، بسبب تزايد الاعتقاد في «الكونية»، وباعتبار أنه لم يعد ثمة داع للعمل التبشيري. على أن تلك الإرساليات المتحررة تعمل بهمة، وتضاعف نشاطها، وميزانياتها الدراسية، من أجل توسيع دائرة هذا الفكر.

وهذا الفكر «الكوني» له مردود سياسي واجتماعي، فهو يساعد على توحيد الجماعات العرقية المتعددة في مختلف البلاد، وعلى تقوية الوحدة الوطنية. كما أن الإفريقي، في بحثه عن هوية خاصة به، يشجع مجتمعاته على تقبل السنكريتيزم syncretism، أي ممارسة أكثر من دين واحد في آن واحد. على أن من أقوى بواعث هذا الفكر عند الإفريقي بالذات، هو حبه العميق للأسلاف

(٢) يروج أصحاب هذا الفكر أن تعاليم أوريجانوس، عن الموت والخلاص، تضمنت أن الصالح يدخل النعيم، أو مكاناً ما حيث يلتقي تطهيرا إضافيا، بينما يدخل الشرير النار، ولكن ليس إلى الأبد، بل كوسيلة للتطهير، وأن الشيطان ذاته سيخلص في النهاية.

الذين ماتوا دون معرفة المسيح . فكثيرون منهم يرددون أنه لايمكن تصور أن ملايين الإفريقيين ، الذين ماتوا قبل التبشير بالمسيحية ،سيهلكون فى جهنم.

ثم أنه فى العقود الأخيرة ، قد برز توجّه عام ، خاصة وسط شعوب العالم الثالث ، نحو تحويل رسالة الإنجيل ، إلى رسالة اجتماعية – اقتصادية – سياسية ، أى تدخل فى صميم مشاكل الإنسان الحياتية والزمنية بكل أبعادها . على أساس أنه لايمكن تقسيم الإنسان الواحد إلى أقسام ،قسم منه يبحث عن خلاصه الأبدى فى الإنجيل ، وقسم يبحث عن حلول لمشاكله الأخرى فى مصادر أخرى . كما أنه لايمكن التركيز على خلاص الإنسان الأبدى ، وإهمال الأمور الأخرى ، أو اعتبارها خارج اختصاص الإنجيل . فالرب حين قال ***«اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره»*** ، أضاف ***« وهذه – أى الاحتياجات الزمنية – كلها تزاد لكم»*** . فهو تبارك اسمه لم يهملها أو يتجاهلها ، ولم يحتقرها ، بل اعترف بها، ووعد بأن يسدّها مضاعفا .

اللاهوتيون الأصوليون

ومع أن كل هذه التيارات والتوجهات اللاهوتية ذات رنين مرتفع يتردد فى أرجاء القارة الإفريقية ، جنوبى الصحراء ، فلا يعنى هذا أنها هى السائدة . فهناك أولا الكنائس الوطنية ، التى ورثت كنائس الإرساليات ، من كاثوليكية ، وأنجليكانية وبروتستانتية ، والتى تحافظ فى أغلبها على التعليم المسيحى ، وعلى الإنجيل ، وعلى عصمته كمصدر أول ووحيد للتعليم ، وللمفهوم الخلاصى للفرد والمجموع ، القائم على دم المسيح ، وللحرية فى مفهومها الإنجيلى وهو التحررمن عبودية الخطية الفردية والمجتمعية .

كما أن هناك جمعيات ورابطات متعددة ، من اللاهوتيين الإفريقيين ، الذين يرفعون أصواتهم بقوة ، فى مواجهة هذه التيارات اللاهوتية المختلفة . بعضهم يتكلم بلطف فيؤكد أنه ليس هناك ما يعيب التراث الدينى الإفريقى ، ولكنه يحتاج أن «يُفدى من الخطية» ، ولابد من مبضع الجراح ، كى يذهب ويختفى كل ما لايتفق مع الإنجيل . بحيث يبقى من هذا التراث ما لا يتناقض مع الإنجيلَ ، ومن ثم يمكن «تعميده» لكى يولد جديدا ، ويثرى المسيحية والمسيحيين . والمعنى هنا واضح ، وهو أنه لاينبغى أن يتقدم التراث الإفريقى على المسيحية ، أو على أركان تعليمها الأساسية .

أما البعض الآخر منهم فيتكلم بقوة ، محاولا أن يسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية. فهو يقر بأن الإفريقيين عرفوا «الكائن الأعلى» ، منذ دهور ، وقبل وصول المسيحية إليهم ، من خلال الإعلان الإلهى العام . ولكنه يرفض إدعاءهم أنهم عبدوه ، بالمفهوم الإنجيلى . فالعبادة معناها إعطاء الله «حقّه» . فكيف يستطيع عابد الأوثان ، فى وضعه هذا ، أن يعطى الإله «حقه» الكامل ؟! ويضيف تأكيده أن الخلاص الكفارى ، والذى تم فى المسيح يسوع ، والذى سبق تشخيصه والتنبؤ به فى العهد القديم ، إنما يعتبر تحقيقا وإكمالا للعهد القديم ، وليس تحقيقا للديانات الإفريقية القديمة ، أو أى دين آخر غير مسيحى.

ويفنّد هذا البعض التفسير الذى يغطى لما جاء فى إنجيل القديس يوحنا ٤ : ٢٣ ، ٢٤ ، على أساس أنه إشارة إلى البشرية جمعاء ، باعتباره خلطا فى النبوة ويخالف نصوصاً إنجيلية أخرى ، مثل (يو١ : ١٢ ، ١٣) ، (رو٨ : ١٤ – ١٧) ، تميز بين «صلاح الله وخيره» الذى لجميع الناس ، وبين «أبوته» التى لخاصته

وحسب (مت ٥ : ٤٣ – ٤٥ ، رو ٤ : ١١ ، غل ٣ : ٧) . تلك الخاصة التى اقتفت إيمان إبراهيم كنموذج للذين يؤمنون بيسوع المسيح ويتبررون (رو ٤ : ١ - ٢٢) .

ويعترض هؤلاء اللاهوتيون على ما يدعيه «علم اللاهوت الإفريقى» من رفض للأنيميزم (١) أى مذهب الروحيين ، لأنه يجعل من الديانات الإفريقية مجرد اعتقاد فى كائنات روحية . كما يعترضون على نفيه لشبهة الوثنية عنها باعتبار أن الإفريقيين إنما يعبدون كائنا أعلى روحيا ، يقتربون إليه من خلال شئ مادى . إذا يرون أن هذا الشكل من العبادة (الأنيمستكية animistic) ، أى عن طريق الآلهة الصغيرة والأرواح ، ليس دليلا على أن الإنسان يريد فعلا عبادة الله ، أو أنه يسعى إليه بوعى سليم . فهذه الآلهة الصغيرة ، التى يراها الإفريقى «خداماً» للكائن الأعلى ، سماها بولس الرسول « الأباطيل » (أع ١٤ : ١٥) . كما أن المسيحيين الأوائل تملكتهم حساسية مفرطة نحو كافة أشكال العبادة الوثنية ، لدرجة أنهم ابتعدوا عن الخدمة العامة ، وعن التردد على الاحتفالات العامة، وعن المشاركة فى أى نشاط قد تكون فيه شبهة الوثنية .

ثم أن هذه الآلهة الصغيرة ورموزها لايمكن اعتبارها بمثابة شهود لله ، استنادا إلى ما قاله بولس الرسول عن أن الله « لم يترك نفسه بلا شاهد » (أع ١٤ : ١٧) . لأن الشهادة المقصودة هى مظاهرصلاح الله ، وأعمال خيره ، ونعمه العامة ، التى يقدمها لبشريته ، كالمطر والشمس وما إليها ، بصرف النظر عن

---

(١) سبق الإشارة إليه فى الفصل الأول .

أفكارهم الدينية : « وهو يفعل خيرا يعطينا من السماء أمطاراً وأزمنة مثمرة ويملأ قلوبنا طعاما وسرورا » (أع ١٤ : ١٧) .

ويدور نقاش حول تسمية الديانات الإفريقية « بالديانات الفطرية Primitive » . فبينما يعترض عليها أصحاب «علم اللاهوت الإفريقى» لما تنطوى عليه من تحقير للإفريقى ، وازدراء لمعتقداته ، يعترض عليها اللاهوتيون الأصوليون لسبب مختلف جدا. ذلك أن إطلاق هذه التسمية على الديانات الإفريقية الحالية يعنى أنها الشكل «الأصلى الأول» للدين . فى حين أن الديانة الأولى ، أو الأصلية ، كانت التوحيد ، أى الإيمان بالله الواحد (تك ٣ : ١ – ٩). ولكنها تدهورت فيما بعد إلى التعددية polytheism ، والطبيعية أو الروحية animism. ولا يكفى قول الإفريقيين إنها ليست تعددا ، بل خداما للكائن الأعلى الواحد ، لينفى عنهم التورط فى شكل من أشكال الوثنية . فقد أكد الإنجيل هذا ، وأوضحه بولس الرسول فى رسائله بحيث لم يعد هناك مجال للخلط (قارن ١كو ٨ : ٤ – ٦ ، غل ١ : ٨ ، ٢كو ٦ : ١٤ ، ٢تى ٣ : ٥ ، تى ٣ : ١٠ ، ٢يو ٩ – ١١ ، لو ١٣ : ٥ ، أع ٢ : ٣٦ ، أع ٤ : ١٢) .

ومن بين اللاهوتيين الأصوليين من يؤكد ، فى لغة حاسمة ، أنه يوجد «كلمة» واحد فقط ، أبدى لايتغير ، وعلى هذا فلا يمكن أن يقوم إلا علم لاهوت واحد فقط ، قادر على أن «يتجسد» فى الموقف الإفريقى . وهو لا يمكن أن يتولد من «المزج» بين الأديان ، بل من الفهم السليم ، الذى يتطلب بناء جسور مع مختلف علوم اللاهوت ، مع دراسة دقيقة للحياة الدينية الإفريقية ، ولنماذج تفكير مختلف الشعوب الإفريقية ، إلى جانب العهد الجديد . ولن

يتأتى هذا الفهم السليم بالقفز المباشر من اللاهوت الطبيعى للطقوس الإفريقية ، وما ترتبط به من أساطير ، إلى الأفكار والتصورات العميقة الموجودة فى العهد الجديد، فاللاهوت المسيحى الذى يسعى إلى استعمال مكونات «التربة الإفريقية» ليؤسس علم لاهوت ذا تصميم يلتقى مع الموقف الإفريقى ، عليه أن يتفحّص بحرص مناطق كثيرة فى الموقف الإفريقى ، إذا أُريد لعلم اللاهوت هذا أن يترجم بأمانة التصور المسيحى ، وبالتالى الفكر الإنجيلى ، عن الله والخلق والإنسان ، والخطية والفداء ، ويسوع المسيح ابن الله والوسيط ، والروح القدس ، وغيرها . كما أن هناك مواضيع كثيرة ينبغى أن تتفحّص وتناقش ، ليس أقلها التقدمات والذبائح التقليدية ، وخلفياتها وفلسفتها والعقيدة المرتبطة بها ، والسحر والعرافة والطب التقليدى (القبلى) . إلى جانب الأفكار الخاصة «بالموت» «وبالحياة بعد الموت» ، والتصور الإفريقى الخاص بالزمن والأبدية ، وبالإيسكاتولوجى eschatology ، أى علم الأخرويات. وبمكانة الأرواح والأسلاف وغيرهم . لأنه رغم أن الديانات الإفريقية تنطوى على الإيمان بكائن أعلى واحد ، فهو فى ذات الوقت ليس «المؤثر والموجه» الرئيسى لعوامل الحياة التاريخية. إذ «ينافسه» فى ذلك تلك الأرواح ، وهؤلاء الأسلاف ، وحتى الطبيب الساحر أيضا.

****

لاجدال أن إفريقيا تجتاز فترة بحث عن الذات والهوية ، وقد تجد ذاتها فى نهاية المطاف . وسيتوقف هذا على سرعة تخلصها من تلك الحساسية المفرطة، التى سيطرت عليها كرد فعل لما ترسب فى أعماقها من هوان ومذلة ، فتشوشت المفاهيم المسيحية فى ضميرها ، بسبب جهل أو أنانية الذين نقلوها إليها . ونكوصها إلى الماضى تلوذ به يكاد يكون مؤقتا ، لأنه نابع عن عناد وتحدٍ.

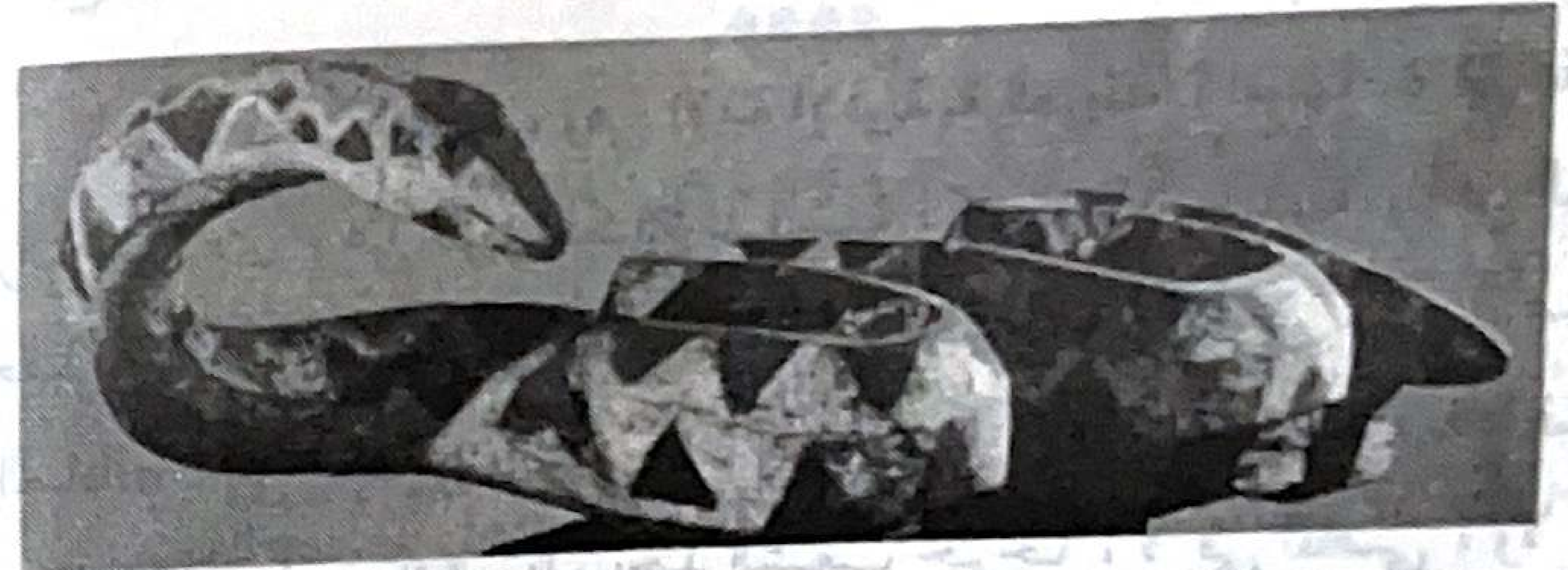
وقد زال اليوم ، أو كاد ، سبب العناد . وانتهت المواجهات ، ومعها روح التحدى. خاصة بعدما انهار آخر معقل زيّف المسيحية ، وأفسد أجمل مضامينها ، حين استبعد أخاه الإنسان ، وعزله عن تيار الآدمية الحقة ، بدعاوى مضللة خاصة بلون البشرة والجنس (العرق) . فبعد سقوط عنصرية جنوب إفريقيا سيجد علم اللاهوت الأسود ، أشد العلوم اللاهوتية الإفريقية تطرفاً وراديكالية ، أنه لم يعد «ذات موضوع» . وقد تنتهى بقية علوم اللاهوت الإفريقية إلى مثل هذا الاكتشاف إن عاجلا أو آجلا .

وليس بدعا ، أو مستغربا ، أن يستسلم القديم للجديد ، كما استسلم (العهد القديم) ، بكل مقوماته ، لمن جاء «ليكمّله» . وكل الشعوب التى دخلتها المسيحية ، فى العصور الأولى ، سواءاً فى الشرق الأوسط أو فى أوروبا ، وكانت لها حضاراتها ودياناتها العريقة والوطيدة ، قد قبلت الجديد ، وتخففت من القديم ، حتى تخلصت منه ، ماعدا ما استطاعت أن تستوعبه فى الجديد دون تعارض أو تناقض . وكان المفروض أن تسير الشعوب الإفريقية فى نفس الاتجاه، لولا أن الرسالة وصلتها خلوا من زخم المحبة التى ***«لاتتفاخر ولاتنتفخ ولاتقبح ولاتطلب ما لنفسها»*** (١كو١٣ : ٥٤).

ولقد قبلت إثيوبيا ، وهى الأمة الإفريقية العريقة ، المسيحية فى القرن الرابع الميلادى ، عن طريق الكرازة المرقسية لكنيسة الأسكندرية ، وهى اليوم حصن للتعليم والطقوس والممارسات الأرثوذكسية : من الأسرار ، إلى الأصوام والعبادات ، إلى الطقوس والليتورجيا ، إلى الأعياد . حتى تقويم البلاد ذاته قبطيا فى شهوره ورأس سنته . ولم يجد الشعب حرجا ، لا فى الماضى ، ولا فى

الحاضر، أن يتقبل المسيحية فى ثوب «سكندرى» . ويعتز اليوم أيما اعتزاز بانتمائه للأسرة الأرثوذكسية اللاخلقدونية .

وإذا كان الماضى عادة هو مفتاح الحاضر ، فمن حق الحاضر أن ينطلق دون قيود تكبّله ، ليكون هو أيضا مفتاح المستقبل . ولقد كان إيليا ثاقبا فى فهمه للتاريخ ولحكمة التغيير والتطور ، حين قال « *إن كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه* » . إذ لامجال للتعريج بين الفرقتين ، أو بين الماضى والحاضر، حين تكون الفروق صارخة ، وشبهة الانحراف أو الانجراف عن الحق قائمة . ومهما انطوى الماضى على قيم وتراث يستحقان الاحترام ، فالمفروض أن تَجُبّ صيغة الحاضر – بحكم التطور – أفضل ما كان فى الماضى . وجراح إفريقيا اليوم عميقة ، ومآسيها تفوق الوصف . يكفيها الجفاف والجوع اللذان يهددان الملايين ، والحروب الأهلية التى تحصد عشرات الألوف ، وتخلخل التركيبات السكانية والتوازنات الاجتماعية ، وتضاعف أسباب الفقر والتخلف . وبهذه الخلفية المأساوية المفجعة يبدو الجدل اللاهوتى ترفا لا محل له ، بل نشازا لايتلاءم وحاجة الإنسان الإفريقى الملحة إلى الحب ، الحب العملى الباذل ، الذى هو جوهر اللاهوت .



الفصل السابع
الأرثوذكسية في إفريقيا

مصر

لإفريقيا أن تعتز بأنها قبلت المسيحية فى بداية انطلاقاتها المجيدة ، حين دخلت بشارة الإنجيل من خلال أعرق بواباتها الشمالية ، مصر ، فى منتصف القرن الميلادى الأول . وبلغة الأديب يحار المرء فى التعرف على من وجد ضالته فى من : هل وجدت المسيحية ضالتها فى مصر ، أرض الديانات القديمة [1] ، والقلق الروحى ، والانغماس ، حتى أعماق الأهرامات ودهاليزها السرية ومراكب الشمس ، فى أسرار الحياة بعد الموت ، وفى حقائق البعث والخلود ؟ وحيث امتزجت الدراسات الطبيعية بالقوى الروحية الكونية والإلهية ، فجاءت حضارتها جماعا من عالم الطبيعة المادية وعالم الروح ، حيث عرف المصرى القديم المزج بينهما ، ووقف على الصلة الوثيقة بينهما ،وسعى إلى كشف أسرارهما ؟

أم أن مصر وجدت ضالتها فى المسيحية بعقيدة التثليث ، وبالفكر اللاهوتى المستنير والمنير ، والمثير لكافة الجدليات التى تحوّل مياه الحياة الراكدة إلى تيارات وأمواج تقضى على الركود ، وما يتخلف عنه من عفن وتلوث وتبلّد

(١) وإنها لحقيقة رائعة أن يكون توقيت عيد البشارة ، فى ٢٩ من برمهات ، مسبوقاً إليه فى مصر القديمة باعتباره عيد الخليقة الأولى ، كما وصل إليه علم المصريين قديما . وكثير من مناسبات الأيام فى التقويم القبطى لها جذور ممتدة فى حضارة مصر القديمة .

ذهنى وروحى . وتطلق طاقات التجديد ، فالخلق ، فالحياة المستمرة المتجددة ، بحيث يخرج المرء عن وتيرة الفطرة الرتيبة ونزعاتها ، والاستكانة إلى المألوف ، من مـأكل ومـشـرب وتزاوج وإنجـاب، إلى فـرادة العـقل وتمايزات الروح ، وابداعاتهما ، وتطلعاتهما إلى ما وراء المنظور ؟!

ومنذ البداية تزامل قبول المسيحية مع دفع ضريبة الدم ، فترعرعت كرمةً زكيةً ، مدت فروعها فغطت كل أرجاء الوادى الأخضر ، من شماله إلى جنوبه، وحتى أطراف الصحراء . ما عطشت يوما ولا جفّت ، لأن أبناءها أمنّوا حصتها من الرى من ذوب قلوبهم . وبقـدر مـا أعطتهم من عـصارتهـا المحيـية ، بقـدر ماأفاضوا وأعطوها . فهم أحفاد المصرى القديم الذى كان يبحث ، فى الأبدية وما بعد الموت ، عن كل ما يعطى لحياته على الأرض مسحة من الجمال والرونق. فبدا الأمر وكأن هناك ألفة مع الموت باعتباره الطريق إلى الحياة ، وبوابة الانطلاق إلى ما هو أجلّ وأسمى . وبات أعمق ما فيه هو ذلك البعد اللاهوتى الذى يجعل منه ربحاً وفوزا عظيما .

وفى ظل هذا المفـهـوم وجدت القناعـة ، التى هى من صـمـيـم الدعوة المسيحية (١تـى ٦ :٦، ٧)، عمقا نسكيا ، جعل للأرثوذكسية المصرية مذاقا خاصا . وقد تجسدت فى التخفف من الماديات وفى الزهد الروحانى ، ومقايضة العالم الفانى بالذى يأتى ، مما مهد الطريق للخروج من العالم كلية والتوحد فى البرية ، حيث يطيب التأمل والتعبد فى هدوء الخلوة وسكينة الانفراد . وهذا «ترف» لايقدر عليه إلا المدعوون .

وكان التجمع الرهبانى فى صحارى مصر ، إبان تزايد البطش الرومانى

وافـتـراسه للمـؤمنين ، يشكّل «سدا عـاليـا» للكنيـسـة ، إذ كـانوا بصلواتهم وابتهالاتهم يولّدون طاقة من نور أنارت طريق الشعب فى إيمانه ، وفى حرصه وتمسكه بعقيدته . وطاقة من شجاعة تقبل على الموت ،وتتنافس عليه كأنه الجائزة الكبرى. ولم يكن الاستشهاد نوعا من تلذذ الألم أو الماسوشية . ولم يكن عن تعصب أو عناد . أو حتى عن حب التملك ، مستبدلا ميراثا يفنى على الأرض بميراث أبدى غير قابل للزوال . بل كان الأمر ، ببساطة ، هو أنه حين طُلب من القبطى أن يتخلى عن إيمانه ، اكتشف أنه لايستطيع العيش بدونه ، فقد ملأ عليه شغاف قلبه ، وصار له الهواء والماء والزاد ، والأنفاس تتردد فى صدره ، فاختار أن يموت به على أن يبقى فى الجسد بدونه .

ولأن الدماء سفكتها أيد أجنبية ، فقد امتزجت بثرى الوطن ، وتسربت إلى أعماقه وتوحدت معه . وتولّد عن هذا اللقاء عناق أبدى . وارتباط والتصاق يفوقان التوأمة . فشب الأبناء والأحفاد ومعهم تراث رائع فى حب الوطن ، إذ صار جزءاً من كيانهم بقدر ما هم جزء منه ، يدور فى دورتهم الدموية بقدر ما يدورون هم فى فلكه ، أو يتكورون فى حـضنه . فلمـا انتظمت عـبـاداتهم وطقوسهم دخل فيها بأديمه ومائه وهوائه ونباته وحيوانه وطيره ، ويومه وغده، وحكّامـه . ولأن الأرض «مـوطئ قـدم» الثالوث ، صـار لتـقـديس الوطـن بعدا لاهوتيا ، يفرض ولاءاً من نوع متميز ، ويجعل حبه لونا نسكيا . ولعل من حظ الكنيـسـة القـبطيـة أنهـا لم تـتـورط فى السلطة الزمنيـة بأطمـاعـهـا وأهوائهـا واستغلالاتها، فبحكم الأوضاع الاستعمارية التى سادت منذ البداية تبلورت لها خصوصية ذات عمق روحى ، وشموخ وطنى ،ورصيد تاريخى تزهو به كفلك

نجاة للوطنيين ، وقلعة منيعة للمصرية الحقة .

وصار للفكر المسيحى ، الذى نما وازدهر على أرض مصر ، مذاق خاص، وفاح له عبق طهور . فتميزُ الأرثوذكسية المصرية لاحدود له . وأول ما يلفت النظر فيها هو قدمها التالد . وعدم تغيرها الظاهر . فما زال الأرثوذكس يعمدون بالتغطيس ثلاث مرات كالكنيسة الأولى ، وما زالوا يأتون بالرضع والأطفال إلى مائدة التناول ، ويتلون قانون الإيمان دون تغيير . فأهم ما تتميز به الأرثوذكسية هو تصميمها على أن تبقى وفيّة للماضى ، مستشعرة حياتها المستمرة مع كنيسة الأيام الأولى . ولسان حالها يقول «إننا نحافظ على تعليم السيد المسيح دون تغيير أو زغل ، ونتمسك بثبات الإيمان الذى سُلّم إلينا ، ككنز ملكى ، دون نقصان» .

وتتمركز استمراريتها حول «التقليد» ، أى الإيمان الذى أودعه السيد المسيح الرسلَ ، وجرى تسليمه، منذ أيامهم ، من جيل إلى جيل فى الكنيسة . ولو أن «التقليد» فى الأرثوذكسية له مضمون أوسع تحديدا وأكثر تماسكا وإقرارا. فهو يعنى أسفار الكتاب المقدس ، وقانون الإيمان ، وقرارات المجامع المسكونية ، وكتابات الآباء ، والقوانين الكنسية، وكتب الخدمة ، والأيقونات المقدسة . أى أنه يضم نظام التعليم والعقيدة ، والعبادة ، وإدارة الكنيسة ، والفن الذى طورته الأرثوذكسية عبر الأجيال . وهذه العناصر ، على تعددها ، لاتنفصل ولا تتناقض، فالروح القدس ذاته هو الذى يتكلم من خلالها ، وتُكوّن مجتمعة كلاً واحداً كاملا ، ويُفهم كل عنصر منها فى نور بقية العناصر . ويحظى الكتاب المقدس وقانون الإيمان والمجامع بالمقام الأول فى هذه السلسلة المقدسة ، لأنها تامة

ومطلقة ، ولا تُلغى أو تُراجع .

وبينما تحفظ الكنيسة هذا التقليد ، وتحافظ عليه ، يحيا هو فيها وتحيا هى به ، ليس باعتباره نظام عقيدة وتعليم ، أو مسائل مجردة ، بل باعتباره حياة– لقاءاً شخصياً مع المسيح فى الروح القدس ، أو حياة الروح القدس فى الكنيسة. فهو وإن يكن تراث الماضى ، فهو فى الواقع اختبار حيّ للروح القدس فى الحاضر، وفى كل حين ، إذ له ديناميكية لا تتوقف . ومع أنه لا يتغير داخليا، لأن الله لا يتغير ، فهو دائما يتخذ أشكالا جديدة تضيف إلى الماضى وتتممه دون أن تحل محله ، لأنه شهادة الروح ، الروح الذى لايتوقف عن إعلان الأمور الطيبة والتبشير بها ، ويحقق فى الكنيسة دائما بُعدىْ التجديد والاستمرارية . ومن هنا فواجب الكنيسة أن تدخل فى روح التقليد الداخلية، مجددة لقاءاتها مع المسيح فى الروح القدس ، ليكون التقليد نبعا لإبداعاتها وتجديدها المستمر ، وليس مصدرا لتحجرها أو تزمتها .

ولتتذكر أنها مُعرضة لتجربة الانغلاق على التقليد كتراث قديم ،والركون إلى التكرار الببغائى . فالدخول فى عمق نهر الحياة ، وشركة القديسين ، لايتم بتكرار أقوال الآباء بصورة ميكانيكية ، بل بفهم جذورها الإنجيلية ، والأخذ بروحها ومكنوناتها ،وتطبيقها على إنسان اليوم والغد (1) . ولأن الحياة تتطور ، والعقليات والأذواق تتغير ، وكذلك الرؤية العلمية والفلكية للكون ، فواجب

(1) وهى دعوة للدخول فى حوار مع أية دراسات حديثة فى مجالات العلم والثقافة ، بدلا من تجاهلها أو الخوف منها . فآباء القرن الثانى الميلادى ، كما قال أحد الكتّاب ، قد تحاوروا مع التراث العبرانى ، وآباء القرن الرابع مع التراث اليونانى . وقيادات لاهوتية كثيرة تدعو اليوم إلى إعداد العدة الروحية للتفاعل مع حضارة كونية صار فيها العالم قرية صغيرة .

الكنيسة أن تقدم شرحا لأسرارها لإنسان اليوم والغد ،مؤكدة له قدرتها على أن تغذى حياته ، وتملأها بالخصوبة والثراء الروحى والوجدانى . وأن تعيد دائما اكتشاف العالم فى نور الإنجيل ، باعتباره المحرك وراء كل تقدم إنسانى، بتأكيد أن روح الله يجدّد وجه الأرض ، وأن العالم فى مسيرة دائمة نحو ملكوت الله. فالله خلق العالم مرة واحدة وسلمه للإنسان ليبدع فيه على طول المدى .

ومن المسلم به أن الكنيسة المسيحية كتابية ، والأرثوذكسية تؤمن بهذا أكثر من أشد الكنائس الأخرى مغالاة . فالكتاب المقدس هو التعبير الأعلى لإعلان الله للإنسان . والإنجيل بدوره هو كتاب الشعب ، إذ يحيا داخل الكنيسة ومفهوم وسطها ، ولا يمكن الفصل بينه وبين التقليد . والكنيسة هى التى تستطيع ترجمته بسلطان ، لأن هناك أمورا لايستطيع المرء فهمها بوضوح إذا اعتمد على فهمه الخاص (قـارن أع ٨ : ٣ : ١) . ويقبل الأرثوذكس قيادة الكنيسة لهم فى فهم كتابهم .

ولايختلف كتاب العهد الجديد فى الكنيسة الأرثوذكسية عنه فى الكنائس الأخرى . أما العهد القديم فترجمته اليونانية المعروفة بالسبعينية هى المعتمدة عندها . وتعتبر النصوص التى تختلف فيها عن الأصل العبرى هى بوحى الروح القدس ، وتقبلها على أنها استمرارية الإعلان الإلهى . (أنظر إش ٧ : ١٤ ، مت ١ : ٢٣) .

وللكتاب المقدس مركز مرموق جدا فى عبادات الكنيسة ، وقراءاته مرتبة على مدار السنة . ففى الترتيب الليتورجى هناك قراءة من البشائر ومن الرسائل

لكل يوم من أيام السنة . وتشكل قراءة الإنجيل ذروة خدمة القداس الطاهر . كما تُقرأ أجزاء كثيرة من الكتاب المقدس فى مناسبات متعددة . ويقرأ سفر المزامير بكامله مرة كل أسبوع فى صلوات الأجبية ، ويقرأ مرتين فى الصوم المقدس .

ويردد الأرثوذكس قانون الإيمان النيقاوى فى قداساتهم ، ويحترمون قانون إيمان الرسل ويقبلون تعاليمه باعتباره إعلان إيمان حوارى قديم . ويقرون بقرارات المجامع المسكونية الثلاثة الأولى ويعترفون بعصمتها . ويحتفظون بمركز جليل لآباء الكنيسة فى التاريخ والتقليد والتعليم. وعصر الآباء عندهم مستمر دون توقف عند حقبة تاريخية ما .

وهناك تحديدات عقيدية للأسرار المقدسة ، وعن العالم الآخر ، والقديسين والمنتقلين ، وقد تضمنتها صلوات وتسابيح وترانيم الخدمة الأرثوذكسية . ولايكتفى الأمر عند حد التعبير عنها بالقول ، بل أيضا فى الأفعال والإيماءات ، كالتغطيس فى ماء المعمودية ، ومسحة الميرون ، والمائدة الربانية ، والزواج ، وطقوس الأصوام والأعياد ،وإشارة الصليب ، وغيرها ، حيث يجرى التعبير بالرمز وبالحركة الدرامية عن حقائق الإيمان . ويجيء الاحتفال الليتورجى وتسبيحاته وابتهالاته بمثابة لاهوت حى ، حيث تتخلص اللغة من كثافتها البشرية ، وتتحول إلى موسيقى العبادة وصمتها ، وتصير فى العابد طاقة داخلية تعطى للحياة أنفاسها ونفائسها.

الشمال الإفريقى

تشير برديات المتحف المصرى إلى وجود صلات اجتماعية وتجارية قديمة العهد بين مصر وليبيا، أو ما كان يعرف بالخمس مدن الغربية. وكانت سيرين ، عاصمة سيرينايكا ، مسقط رأس القديس مرقس (١٥م) ، الذى أسس بها الكنيسة المسيحية الأولى بين عامى ٥٥-٦٨م ، بعدما أسس كنيسة الأسكندرية. ويذكر القديس إيرونيموس أنه اصطحب معه بعض الأقباط لمساعدته فى كرازته فى تلك المنطقة، وجعل كنيسة الأسكندرية مسئولة عنها . واعترف مجمع نيقية (٣٢٥م) ، فيما بعد ، بتبعية كنيسة بنتابوليس لكنيسة الأسكندرية. [1] وتشهد آثار الكنائس القديمة الموجودة فى مدن وقرى الجبل الأخضر (سيرينايكا) ، وهى بالعشرات ، عن مدى ازدهار الكنيسة ونموها فى العصور المسيحية الأولى .

واعتمدت كنيسة سيرينايكا منذ البداية على كنيسة الأسكندرية فى خدمتها الروحية والتعليمية . وتذكر المصادر القبطية أن البابا ميلوس الأسكندرى (٨٦-٩٦م) رسم لها أساقفة ، وكانوا يشاركون فى المجامع القبطية ، كما كانوا يرافقون بطاركة الأسكندرية إلى المجامع المسكونية. وواظبت الأسكندرية على إرسال الكهنة والمعلمين للافتقاد والإرشاد حتى عهد البابا يؤنس (البطريرك الرابع والسبعون ١١٨٠-١٢٠٧م) . والمعروف أن البابا أثناسيوس الرسولى اختفى بها ستة أعوام أثناء الاضطهاد الأريوسى له .

(١) جاء فى القانون السادس للمجمع «لتحفظ السنن القديمة التى فى مصر وليبيا وبنتابوليس أن أسقف الإسكندرية له الرئاسة عليها كلها . وهذه المدن كانت عواصم مقاطعات واسعة.

هذا وقد انتقلت الحياة الرهبانية بأشكالها المختلفة إلى بنتابوليس (ليبيا الشرقية) فى وقت مبكر ، بعد دخول المسيحية . وجرى تبادل الزيارات بين الأديرة ورهبانها ، كما أقام رهبان بنتابوليس فى أديرة مصر وتمرسوا على الحياة فيها .

وتؤكد جمهرة من المؤرخين أن التبشير بالمسيحية الأرثوذكسية إتجه غربا إلى قبائل البربر ، وبلاد المغرب الثلاثة ، بواسطة الرهبان والراهبات الذين توجهوا إليها من وجه الاضطهاد البيزنطى ، إلى جانب الذين هاجروا إليها بعد الفتح العربى ، وكان بينهم تجار وحرفيون وإداريون لمساعدة رجال الحكم العربى ، بحكم درايتهم بالشئون المالية ، وأمانتهم فى العمل والتصرفات . وقد انتشر أغلبهم على ساحل البحر المتوسط حتى المغرب ، وظلوا على تمسكهم بإيمانهم وبصلتهم بالكنيسة الأم التى كانت ترسل لهم الأساقفة حتى القرن الثالث عشر، أو السادس عشر حسب بعض المصادر ، أى حتى دخول العثمانيين حين باتت الحياة صعبة تحت حكمهم . وقد عثر الأثريون فى تلك الديار على أيقونات وقوارير وحلى وأدوات كنسية قبطية ، ومازالت بعض الأسماء القبطية تتردد فى مجتمع البربر ، وخاصة بين الطوارق ، وتحمل أيدى أصحابها رسم الصليب ، كما دخلت فى لغتهم بعض المفردات الدينية القبطية .

ويذكر «ميك» أن بعض التأثيرات المسيحية نفذت جنوبا حتى أدركت بلاد غانا ، فى غربى إفريقيا ، واختلطت بدياناتها الإفريقية .

علاقة مصر بجارتها الجنوبية ، النوبة ، ضاربة فى القدم [1] . فقد كان بينهمـا تبـادل ثقافى وحضارى متدفق ، كمـا لم ينقطع انتقال البشر بين ربوعهما. فلما انتشرت المسيحية فى مصر عبرت الحدود إلى نوباتا ، بصورة غير منتظمة ، فى القرن الميلادى الثالث ، عن طريق انتقال الأفراد والأنشطة التجارية وغيرها. وهناك رأى يقول إن المسيحية دخلت [2] النوبة بواسطة المبشرين الأقباط فى القرنين الأول والثانى . ومن الثابت أن قصر إبريم كانت بها جالية مصرية من المهاجرين ، ولعلها قبلت المسيحية قبل أن تصل إلى البلاط الملكى النوبى ، وأثرت بدورها على محيطها ، وازداد هذا التأثير بازدياد عدد الأقباط الذين لجأوا إلى نوباتا ، هربا من الاضطهاد الرومانى، الذى بلغ ذروته فى أواخر القرن الثالث الميلادى . وكان بينهم رهبان أسسوا الحياة الديرية فى مناطق تواجدهم بالنوبة الشمـالية . وقد اكتشف چيمس كورى أديرة واحة سليمة التى دللت على

---

(١) من المعروف أن ملوك النوبة حكموا مصر أكثر من مائة سنة ، فى القرن الثامن قبل الميلاد . وكانت لهم آثار جميلة من الأهرامات والمعابد والتماثيل البديعة . وهم الذين أقاموا معبد دندرة . وكانت لهم صلات مباشرة بأوروبا دون أن يمروا بمصر .

والفنان النوبى مبدع من الدرجة الأولى ، وكان عبقريَّ الأصابع . فالذى نقشه على الجدران، والذى سوّاه فى التماثيل يؤكد تفوقه . أما المهندس النوبى فهو أحد قمم العمارة الفخمة فى العصور القديمة . وكان أثر الهندسة النوبية واضحا جدا فى مصر وفى السودان. ولايزال البحث مستمرا عن عبقرية النوبة بين أطنان من الآثار والتحف الفنية التى نقلها الأمريكان والأوروبيون من بلاد النوبة قبل أن يغرقها السد العالى .

(٢) وانتشرت بين شعوب المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر ، وهم البلميون ، أو البجة (البجاة) ، كما يذكر بعض المؤرخين. ويقول «بالمر» إنها انتشرت فى منطقة بحيرة تشاد ، ووصلت إلى برنو وغوبير منحدرة من بلاد النوبة فى القرن الثالث عشر .

ازدهار الحياة الديرية فى نوباتا . ثم أن الرهبان الأقباط المقيمين فى جوار أسوان كانوا على اتصال بالنوبيين. وهناك روايات عن تغيير أفراد منهم إلى المسيحية . وتؤكد رسامة البابا أثناسيوس الرسولى لأحد الرهبان أسقفاً لفيله ، الواقعة على تخوم النوبة الشمالية ، على اهتمامه بالنوبة ، وعلى وجود نشاط تبشيرى ورعائى بها فى القرن الرابع الميلادى .

وكانت هناك بالطبع فرص لدى النوبيين، المسافرين إلى فيله وغيرها من المدن المصرية ، أن يشاهدوا الكنائس المبنية حديثا ، أو القائمة فى المعابد القديمة بعد تحويلها ، وأن يتشربوا بعضا من تأثيرات الإيمان المسيحى . ثم أن النوبيين الذين هاجروا شمالا رحّب الأقباط بهم . فالأنبا شنوده رئيس المتوحدين (القرن الخامس) إستقبل الكثيرين فى ديره ، الدير الأبيض بإخميم ، حيث استقروا وحظوا برعايته .

وتعود بعض الآثار المسيحية فى نوباتا ، كالصلبان وغيرها ، إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين . كما تشير المقابر المكتشفة إلى ما كان من تحول كامل وسريع فى الممارسات الخاصة بالدفن ، إذ اختفت العادات الوثنية أواخر القرن السادس ، وعثر بها على شواهد قبور تحمل كتابة بالقبطية الصعيدية ، ومؤرخة فى القرن السادس الميلادى .

وكان لونجينوس أول أسقف لنوباتا ، وقد رسمه الأنبا ثاودوسيوس بطريرك الأسكندرية ، ووصلها عام ٥٦٣م . وتتفق المصادر على أنه أول من بشر مملكة علوة ، المملكة الجنوبية من ممالك النوبة الثلاثة ، إذ توجه إليهـا عـام ٥٨٠م بطلب من ملكها ، وسرعان ما صارت المسيحية الدين الرسمى للمملكة . وقد اشتهرت بكنائسها وأديرتها التى قُدّر عددها فى أوجها بأربعمائة . أما مقوريا ،

المملكة النوبية المتوسطة ، فقد جاءت تبعيتها للكنيسة القبطية متأخرة ، واشتهرت دنقلة ، عاصمتها ، بكثرة كنائسها .

وألقت الإكتشافات الأثرية ، التى تمت فى الستينات ، الضوء على صورة الحياة فى النوبة المسيحية فى العصور الوسطى . فقد كانت بكل مستوطنة أو قرية ، مهما صغرت ، كنيستها أو كنائسها ، وبعضها كانت فى الأصل معابد وثنية ، غُطيت جدرانها بطبقة من الجص ، ورُسمت عليها القصص الدينية والكتابات المسيحية ، الأمر الذى يدل على مدى انتشار المسيحية بين طبقات الشعب ، وعلى مدى ما كان الشعب يحظى به من رعاية كنسيته . كما أن بقايا المخطوطات التى وجدت ،فى اللغات النوبية والقبطية واليونانية ، كانت مصنفات دينية توحى بورع النوبى المسيحى ، وقد اشتهر كثيرون من النوبيين بالقداسة [1] . هذا إلى جانب انتشار النقوش والرموز المسيحية ، خاصة الصليب والحمامة والسمكة ، على جدران البيوت ، وسفوح الجبال والصخور .

ومع أن كنائس كثيرة بنيت بالطين ، فى مناطق عدة مثل إبريم ودنقلة وفرس وبوهين وغيرها ، قد اندثرت ، فمازالت أعمدة بعضها تشاهد ، من بينها واحدة بالقرب من جزيرة ساى ، وأخرى فى واحة سليما . وفى دير الغزال ، قرب مروى ، توجد بقايا دير وكنيسة مبنية بالحجارة حتى النوافذ ، وبالطين حتى السقف .

(١) هناك رواية للشيخ علم الكفاءة أبو يحى اسطفان بن مينا الكاتب ، عن كيف استقبل الأنبا زكريا ، البطريرك الرابع والستون (٩٩٦-١٠٢٤م)، راهباً نوبياً اسمه ششية (سوسنة)، إذ خرج إليه ماشيا وأخذ بركته قبل أن يبارك عليه . ولما سئل البطريرك عن سبب هذا التكريم قال إنه قد طرح معه فى جب الأسود بأمر الحاكم . فكانت تخضع له وتلمس رجليه قبل أن تفعل ذلك معه (أى البطريرك) .

ومازالت هناك بقية من العادات المسيحية فى بعض مناطق النوبة ، فى هيئة تقاليد وممارسات متوارثة ، مثل يوم الأربعين حين تأخذ الأم الوالدة أطفالها إلى النيل ، ومعها نسوة يحملن سعف النخيل ، فتغسل الأم وجهها ويديها وقدميها فى مياه النيل ، ثم تقوم بتغطيس الطفل فيه . وفى بعض القرى النوبية تقول الأم للطفل «أغطسك بمعمودية يوحنا» . وكان رسم الصليب على صدر المريض ، وعلى رأس الطفل من العادات التى تمارس حتى القرن الماضى فى بعض مناطق النوبة . كما أن الصحون التى يزين بها النوبيون واجهات بيوتهم تأخذ دائما شكل صليب ، مهما كان عددها ، لمنع الشر .

واختفاء المسيحية من النوبة أحجية تحير العديد من المؤرخين . ومع أن هناك اتفاقا على أنها استمرت لفترة بعد سقوط مملكة دنقلة فى الربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادى (١٣٢٣م) ، إلا أن هذا السقوط كان إيذانا بانحسارها بعدما تفاقمت النزاعات بين العائلات المالكة، وتزايد التدخل الأجنبى سواء من الشرق ، من القبائل الوافدة من الجزيرة العربية وساحل البحر الأحمر [1] ، أو من الفونج جنوبا ، أو من مصر العربية شمالا . فقد أدّى تخوف مصر من أن تصبح النوبة الباب الخلفى للتهديد البيزنطى ، إلى التدخل فى شئونها لضمان ولائها أو لإخضاعها . هذا إلى جانب ضعف المساندة ، الروحية والأدبية ، القادمة من الكنيسة المصرية لظروفها الصعبة .

(١) فقد دخل الإسلام مناطق قبائل البجة ، وكان ينتشر بين أفراد الطبقة الحاكمة ، إذ يعتنقه ملوك من أمهات بجاوات وآباء عرب ، ثم ينتشر بالتدريج بين عامة الناس ، فكانت الإمارات البجاوية تخضع اسما لملك علوة المسيحى ،بينما ملكها مسلم .
وقد تغلغل الإسلام فى ممالك النوبة على نفس النمط ، وقد ساعد على ذلك أن المجتمع النوبى كان مجتمعا أموميا (نسبة إلى الأم) ، إذ ينتقل الميراث عن طريق الأم .

ولايمكن إغفال موقع النوبة الجغرافى ، وبالذات المملكة الشمالية وعاصمتها دنقلة ، فهى محصورة فى وادٍ ضيق محدود الموارد ، بدون منفذ إلى البحر ، وبين جيران كانوا يتربصون بها . وجاء نظام الإرث عن طريق الأم ، الذى كان سائدا فى الممالك الثلاث ، بابا لانتقال الثروة ، فالنفوذ ، فالسلطة ، فالملكية ذاتها إلى الأنسباء والأصهار من الدخلاء. وهكذا ضاعت إحدى درر تاج الكرازة المرقسية ، بعد ما ضاعت درة المدن الخمس الغربية وامتدادها غربا فى شمال القارة .

السودان

وإذ نغلق ملف النوبة الحزين، يعزينا أن نلقى نظرة على الكنيسة القبطية السودانية الأرثوذكسية . ففى أوائل القرن الماضى ،بعد ما فتح محمد على السودان (١٨٢١) ، أتيحت الفرصة لعدد من الأقباط التوجه إلى هناك ، كموظفين مدنيين ، حيث استقروا فى الخرطوم وأم درمان . كما استقر غيرهم كتجار فى أقاليم أعالى السودان . وقد سبقهم عشرون من الموظفين مع أسرهم ، رافقوا الجيش المصرى هناك أيام محمد على . وبالتدريج ، ومن خلال الهجرة ، تكوّن مجتمع قبطى صغير ، قام برعايته الأنبا دميانوس الذى رسمه غبطة البطريرك بطرس السابع ، كأول أسقف للسودان . وقد خلفه الأنبا غبريال .

وتزايدت هجرة الأقباط إلى السودان ، فى عصر عباس حلمى الأول ، بسبب سوء الأحوال الاقتصادية . وإن كانت توقفت فترة قيام الثورة المهدية، أواخر القرن الماضى ، التى أساءت كثيرا إلى الأقباط وإلى كنائسهم وممتلكاتهم. ثم عادت إلى معدلاتها بعد سقوط المهدية ، واحتل الأقباط رقعة كبيرة شمال

أم درمان القديمة والخرطوم ، وبنوا مساكنهم كما أقاموا الكنائس والنوادى . وقد زار البابا كيرلس الخامس السودان زيارة رعوية ، فى يناير ١٩٠٤ ، ووضع حجر أساس كنيسة مارمرقس فى الخرطوم ، ورسم كهنة لها . ودشّن الكنيسة بعد خمس سنوات (يناير ١٩٠٩) . وقد سبق لقداسته أن رسم للسودان الأنبا مكاريوس فى ١٨٧٨/١٠/٢٧ ، ثم الأنبا صرابامون فى ١٨٩٧/٧/١٣ ، الذى تميز بالنشاط ، إذ طاف البلاد ، وأعاد فتح المدارس والكنائس التى أغلقها الدراويش ، وافتتح عددا من الكنائس والمدارس الجديدة ، فى مقدمتها مدرسة الخرطوم التى تخرج فيها عدد من كبار رجال السودان . وكان الأنبا يؤنس ، الذى رسم فى ١٩٤٧/٦/٢٩ مطرانا للخرطوم وبلاد الجنوب ، أول مطران يحمل الجنسية السودانية ،إذ ولد وتعلم فى السودان . أما الأنبا باخوميوس فقد رُسم معه كأسقف للنوبة وأم درمان . وللسودان الآن مطرانان ، أحدهما لمطرانية أم درمان واختصاصها السودان الشمالى ، والثانى لمطرانية الخرطوم وتمتد إلى جنوب السودان . وهناك ست كنائس ، وأربع مدارس ثانوية ، وعدد من المدارس الإعدادية، والمكتبات والنوادى .

إثيوبيا

وصلت المسيحية إلى إثيوبيا ، أو بالأحرى إلى البلاط الملكى الأكسومى (١) ،فى الجزء الشرقى من البلاد ، عام ٣٥م ، حسب التقليد

(١) المعروف أن أكسوم الإمبراطورية تأسست منذ ألفى عام تقريبا ، بالقرب من سواحل البحر الأحمر الجنوبية ، واختلط الاكسوميون بالسبائيين على الجانب الشرقى للبحر الأحمر . كما غزت أكسوم اليمن فى ٥٢٤-٥٢٥م ، وأخضعت دولة الحميريين ، لتحقيق سيطرتها على تجارة البحر الأحمر ومصر . وفى القرن الثامن الميلادى ضعفت مملكة أكسوم ، وغزا المسلمون منطقة الساحل ، وقطعوا الروابط التجارية مع المدينة الملكية الواقعة على مسافة بعيدة بين الجبال ، ونسى الإثيوبيون حضارتهم الأكسومية الشامخة التى ازدهرت طوال قرون عدة .

الإثيوبى ، الذى يستند إلى ما سجله كاتب سفر الأعمال عن وزير كنداكة ملكة الحبشة (١) ، الذى بشره فيلبس وعمّده ، وهو فى طريق عودته إلى بلاده (أع ٨: ٢٦ – ٣٩) . ويشير التقليد نفسه إلى روايات لم تتأكد عن زيارات قام بها الرسول إندراوس أوالرسول توماس أو كلاهما (٢) . وفى غياب السجلات التاريخية لايمكن التحقق من مدى انتشار المسيحية فى البلاد ، ومدى تأثيرها على الحياة العامة والثقافية فيها خلال القرون الثلاثة الأولى . فتاريخ الكنيسة الإثيوبية يبدأ بفرومينتوس ، الصورى الأصل والقبطى المشرب والمعتقد . والكتّاب الإثيوبيون أنفسهم يقولون إنه قبل قدوم فرومينتوس كان هناك مسيحيون فقط ، فلم تكن هناك كنيسة أو كهنوت أوطقوس أو كتب أو مؤسسات دينية . فهو مثلا الذى ترجم الكتاب المقدس إلى لغة الجيز (أو الجعزية) ، لغة الثقافة والأدب ، والتى صارت لغة الطقس المسيحى . ويذكر عنه إرسال بعثات إثيوبية إلى الأسكندرية لدراسة الطب على يدى القديسين الطبيبين إيسيدور وسيرابيون .

وقصة فرومينتوس أسطورة فذة بقدر ما هى حقيقة تاريخية ثابتة. فنجاته وقبوله فى القصر الملكى فى أكسوم كانت نقطة تحول فى تاريخ إثيوبيا الدينى. ونجاح خدمته وقبول رسالته ، وإرسال الملك له إلى الأسكندرية ليبدأ تلك العلاقة المباركة بين البلدين ، وهو المدنى الشاب ، تدل على مدى تقواه وعمق

(١) هناك جدل حول تحديد موطن هذا الوزير . ويتجه رأى إلى اعتباره النوبة ، مؤسسا ذلك على أمرين ، أولهما أن الوزير كان ملما باللغة اليونانية التى كانت متداولة فى النوبة ، والتى كان يقرأ بها إشعياء . وثانيهما أن هيرودوت كان يطلق اسم إثيوبيا أو نوبية على كل البلاد الواقعة جنوبى ليبيا ، فى حوض النيل وتخوم البحر الأحمر .

(٢) وإن كان التقليد الكنسى يذكر أن متى البشير ذهب إلى إثيوبيا ، وقابل خصى كنداكة الذى عمده فيلبس . ومكث فى البلاد (أكسوم) حوالى ثلاثة وعشرين عاما يبشر ويصنع المعجزات التى أشار السنكسار إلى بعضها .

إيمانه ، وتأثير سيرته الشخصية الطاهرة على محيطه الإثيوبى . وجاء اختيار البابا أثناسيوس الرسولى له ليكون أول مطران لأكسوم ولكل إثيوبيا تتويجا لجهاد طويل، ودليلا على أن الروح القدس هو الذى أفرزه للجهاد الأكبر وللمسئولية الأثقل . ومع أن البابا رسمه باسم الأنبا سلامه الأول إلا أن الإثيوبيين أطلقوا عليه اسم « كاشانى برهان » ، أو كاشف النور ،تعبيرا عن مدى فرحتهم وملكهم به .

وصارت إثيوبيا ، بالترتيب الزمنى ، الدرة الثانية فى الكرازة المرقسية . وهى اليوم الدرة اليتيمة ، بعد اختفاء المسيحية من النوبة والخمس مدن الغربية . وستظل هكذا لأنها « البنت » التى ظلت فى بيت العائلة قرابة ستة عشر قرنا ، وقد ارتبطت به فى علاقة فريدة ، لو خضعت للدرس والتحليل لاتضح أن التقليد فى المفهوم الأرثوذكسى هو عنصر الربط الأقوى والأبقى . وإن كان هذا لايقلل من شأن روابط التاريخ والجغرافيا . ولقد استمر حضور الكنيسة القبطية وسلطتها، ممثلة فى المطران القبطى، الذى امتدت صلاحياته لتشمل تتويج الملوك ، فى الكنيسة والحياة الإثيوبية ، حتى الخمسينات من هذا القرن ، حين تطورت الأمور وقامت بين الكنيستين علاقة نديّة ، إذ صار للكنيسة الإثيوبية بطريرك جاثليق ، وتم توقيع بروتروكول عام ١٩٥٩ لينظم هذه العلاقة .

وكان من حظ الكرازة المرقسية أن الزخم الكرازى كان مازال قائما حتى القرنين الخامس والسادس ، ذلك أن مجموعة من الرهبان الأقباط توجهوا إلى إثيوبيا ، فى أواخر القرن الخامس ، وعملوا عمل المبشر والمعلم ، وشيدوا الكنائس، وبنوا الأديرة على قمم الجبال ،ومنها كنائس لاليالا فى أكسوم، التى

نحتوها فى سفوح الجبال . وحولوا الكنائس والأديرة إلى مراكز للتعليم والثقافة ، وهى التى مازالت تضطلع بهذا الدور الحيوى حتى اليوم .

ولما جاء القرن الثالث عشر شهدت إثيوبيا نهضة كنسية مرموقة ، قادها الأنبا سلامه الثانى ، مطران إثيوبيا ، فى بداية عهده هناك . وقد قام بتتويج الملك « يكونو أملاك » الذى ساند الكنيسة الإثيوبية ، ومنحها ثلث أراضى المملكة الخصيبة لتتمكن من أداء رسالتها . وأشرف المطران على ترجمة العديد من الكتب القبطية ، كما راجع ما سبق وترجم كالكتاب المقدس ، وكتب الطقوس والميامر ، وحياة الشهداء والقديسين ، والتراث الرهبانى . واستمرت حركة الترجمة والانتعاش الثقافى الدينى فى الكنيسة قرنين طويلين ، تُرجمت خلالهما كتب كثيرة مثل الأجبية ، وكتاب التجنيز ومدائح العذراء ،وحياة الرسل ، وكتب أدبية مثل كتاب تاريخ اليهود ،والسنكسار ، وبعض كتب اللاهوت لمؤلفين أقباط .

وفى القرن الخامس عشر تعهد الإمبراطور « زرا يعقوب » هذه الحركة ، فصدرت فى عهده مجموعة من الكتب التى تتناول العقيدة والقوانين ، وعادات الكنيسة وتقاليدها ، وترجمة للدسقولية ولمجموعة المجامع وغيرها .

وهذه الذخائر الدينية والثقافية صارت زادا غنيا للشعب ، عمقت مفاهيمه ودعمت إيمانه . فلما جاء القرن السادس عشر باضطراباته الخطيرة ،التى هددت معتقداته ، بل ومصير إثيوبيا ذاتها ، كان هناك صمود واستبسال حتى خرجت البلاد من محناتها . وأولى هذه الأخطار وأرهبها جاءت من الإمام أحمد جرانى (أو الأعسر) ، أمير هرر ، الذى اجتاح الأراضى الإثيوبية (النصف الأول من

القرن السادس عشر) ، وقام بتدمير البلاد والكنائس والأديرة بما فيها من كتب، وقتل العديد من الرهبان والقسوس ، وإرغام الكثيرين على اعتناق الإسلام (١)

وبعد ما انتهت هذه المحنة بمساعدة البرتغاليين ، بدأت محاولة البرتغاليين أنفسهم كثلكة البلاد ، وما صاحب ذلك من مؤامرات وبلبلة . فقد وصلت بعثة برتغالية فى القرن السابع عشر ، وكان من بينها الأب « الفاريز » الذى كتب وصفا للبلاد ، حين بلغت الحضارة الإثيوبية أوجها . وقد وقف الإمبراطور كلوديوس ضد هذه المحاولات بحزم ، واستطاع الإمبراطور فاسيليداس ، خليفته ، القضاء عليها نهائيا بمنع البرتغاليين من البقاء فى البلاد ، بل ومنع دخول الأجانب بصفة عامة . على أن المجادلات العقائدية التى انطلقت مع محاولات الكثلكة ظلت قوية ، وقسّمت الكنيسة إلى مجموعتين لاهوتيتين متناحرتين . واستمرت الأمور على هذه الصورة حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا ، حين رسم الأنبا سلامه الثالث مطرانا لإثيوبيا (١٨٤١م) ، ونجح فى القضاء عليها بعد مجهود كبير .

وتقدر الكنيسة الإثيوبية عدد شعبها الآن بما يقارب الخمسة والعشرين مليونا ، موزعين فى أرجاء الجمهورية ، وإن كانت الغالبية تتمركز فى الوسط والشمال والشمال الشرقى من البلاد . ويقدر عدد القسوس بحوالى ٧٤ ألفا ، والشمامسة ٥٣ ألفا ، والدفترا ٣٩ ألفا ، ويتجاوز عدد الرهبان والنساك ٥٠ألفا . كما يقدر عدد الكنائس الرئيسية والأديرة ١٢ ألفا ، وكنائس الريف عشرة آلاف.

(١) ويقول «أرنولد» إن انتشار الإسلام فى إثيوبيا ، خلال النصف الأول من القرن الماضى ، كان راجعا إلى مابذلته النساء المسلمات من جهود ، وخاصة نساء الأمراء المسيحيين ، وكن مسلمات يتظاهرن بالمسيحية ، وينشئن أبناءهن نشأة إسلامية .

وتنقسم البلاد إلى إثنتين وثلاثين إيبارشية ، ويتجاوز عدد المطارنة والأساقفة الثلاثين .

وتتمسك الكنيسة بالتقاليد والطقوس الأرثوذكسية ، وتدقق جدا فى تطبيقها . وإن كان هذا لايمنع من وجود بعض الممارسات والشعائر كاستعمال الطبلة والرقص الدينى ، والتى هى جزء من التراث الإفريقى واليهودى .

ويأخذ التمسك ، أو التشدد ، مستويين :

١- فبالنسبة للسلطة الكنسية ، فهى تلتزم بالطقس والعبادة وأسرارها بصورة تحفظ عليها قدسيتها . فسر التناول من الأسرار المقدسة مثلا يكاد يكون قاصرا على الأطفال والشيوخ . ويمنع عن الباقين من الرجال والنساء ، لخوف الكنيسة من أن يتناولوا بدون استحقاق . فهى لاتريد النزول بجسد الرب ودمه إلى مستوى عامة الشعب بضعفه نحو الخطية ، حرصا على السر ذاته ، وخوفا من الاستهانة به من قبل الناس ، ومن عواقب هذه الاستهانة عليهم من دينونة وغضب . وحتى عهد قريب كانت خدمة القداس الإلهى تبدأ وتنتهى مع بوادر شروق الشمس أو قبلها بقليل .

وقد يرى المرء فى هذا منطقا غريبا ، لأن وظيفة الكنيسة هى التعليم والتوعية كى تكون بابا مفتوحا لاقتراب كل فئات الشعب وطبقاته من الرب ، والدخول معه فى شركة مقدسة . ولعل موقفها يعود إلى أنها منذ البداية واجهت واحدا من أمرين ، إما أن تسمح للسر أن يتأقلم مع المفاهيم والطقوس والسلوكيات الإفريقية ، فيخرج عن مضمون قدسيته ، أو أن تحافظ على جوهره

ومنزلته ، فلا تسمح للاقتراب منه إلا لمن هو فى مستوى براءة الأطفال وحكمة وحصانة الشيوخ . فالتسرى والزواج المدنى وأعمال السحر متفشية ، وهى أدواء يطول علاجها ، ولامكان لها فى حياة البر .

ويمتد التشدد إلى بقية الأسرار وخاصة سر الزواج . والإقبال على الكهنوت قوى ، فهو واحد من وظائف ثلاث كانت ، إلى عهد قريب ، تشد قلب الإثيوبى وتحظى باحترامه . والوظيفتان الأخريان هما العسكرية والفلاحة . وقد نأى الإثيوبى المسيحى بنفسه عن التجارة لتخوفه مما تهيئه من مناخ للانحراف والطمع ، وظلت إلى وقت قريب حكرا على المتوطنين من العرب وغيرهم ، وعلى قبائل الكراجى . أما الرهبنة فلها مقام خاص فى قلوبهم ، وينخرط الآلاف فى حياتها ، ويشاركون فى كافة الأنشطة الكنسية. ويتعلم الدفترا (الكتبة) الطقوس ، كخدام للكنيسة ، من سن السابعة أو أقل ، ويتوقفون عن الخدمة حالما يبلغون سن المراهقة ، حتى لايدنسوا قداسة الكنيسة بسلوكهم غير السوى قبل الزواج . وبعد ما يتزوجون يستأنفون التدريب والخدمة .

وكانت جميع ضروب التعليم والتعلم فى الماضى – ومازالا إلى درجة ما – فى الأديرة ، التى كانت بحق مراكز الحياة الثقافية فى البلاد ، حيث يُدرّس الإنجيل والتاريخ والأساطير المقدسة وكتاب القوانين وغيرها . ويعتبر دير « دبرا لبانوس » ، إلى الغرب من أديس أبابا ، من أقدس الأماكن فى إثيوبيا ، حيث تحفظ عظام القديس « تكلا هيمانوت » ، الذى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى . وفى أثناء الاحتلال الإيطالى لإثيوبيا ، قتل الإيطاليون جميع رهبان الدير (٤٠٠) ، لاتهامهم بالاعتداء على حياة الجنرال جرزيانى .

٢- وبالنسبة للشعب ، فهو يتشدد ويدقق فى أمور وشعائر معينة ، مهما تفاوتت مستوياته الروحية وتباين موقفه من ممارسة الحياة المسيحية الصحيحة . ويأتى الصيام على رأس القائمة . ويسود رأى شعبى يعتبر من يفطر الأصوام المرتّبة من الكنيسة خارجا عنها ، بل وعن المسيحية .ومازال أصحاب محلات الجزارة ، حتى اليوم ،يغلقون أبوابهم طوال أيام الصوم المقدس الكبير . وهناك أيضا المشاركة فى المناسبات الدينية بقوة وحماس، كعيد الغطاس الذى يحظى بشعبية منقطعة النظير ،وله شعائره التى تنفرد بها إثيوبيا دون سائر الشعوب الأرثوذكسية[1] . والاحتفال بأعياد القديسين والملائكة ، المرتبة على مدار الشهر والسنة . ويهتم الإثيوبى « بالحج » إلى الكنائس وتقبيلها (مسّالم) ، لايصده عن ذلك بعد المسافات أو مشقة الطريق . ولايخلو بيت من الماء المقدس (طّبل) ، فهو دواء لكل مرض ، يشربه المريض ويرش به جسده طلبا للشفاء

(١) ففى برامون الغطاس تقيم كل مدينة خيمة بالقرب من مجرى الماء بها ،وتحمل كل كنيسة تابوتها ، تحت المظلات المزركشة ، فى مظاهرة دينية إلى الخيمة ، حيث تبيت جميعا لليوم التالى ، وفى صباحه يقام القداس عند مجرى الماء وتشترك فيه كل كنائس المدينة أو القرية ، وينتهى برش الماء المقدس على الجميع ، كما يغتسل المصلون فى مجرى الماء . وبعد الظهر يقام احتفال دينى ضخم أمام الخيمة ، تشترك فيه جماهير الشعب وهى تلبس أجمل ما عندها ،وتمسك بالعصى الطويلة الملونة ، وتتراقص وتترنم بذكرى عماد المسيح ، أمام التوابيت وهى عائدة إلى كنائسها فى تظاهرة دينية مفرحة .
والتابوت عبارة عن صندوق مستطيل مكسو بالقماش المزركش ،وبداخله كتاب الوصايا العشرة، ومكانه على المذبح فى الكنيسة . ولايمكن أن تقام خدمة مقدسة بدونه . وهو يشير إلى تابوت الرب فى الهيكل اليهودى . وهناك رواية إثيوبية تؤكد أن تابوت الرب قد تم تهريبه إلى إثيوبيا بعد خراب الهيكل الأخير في أورشليم ، وأنه محفوظ فى مكان أمين غير معروف إلا لقلة من الرهبان . وإن كانت الأسطورة تقول إنّ منليك الأول ، إبن سليمان ، هو الذى أخذه (سرّبه) إلى بلاده ، أو أن سليمان نفسه أعطاه لملكة سبا حين طلبه منه .

والعافية[1] . ومن السلوكيات التى يتميز بها المجتمع الإثيوبى المسيحى هو عدم التدخين ، باعتبار التدخين ظاهرة شيطانية . وفى القرن الماضى نجحت شركة روسية فى زراعة التبغ فى البلاد ، ولكنها أفلست لأنها لم تجد سوقا محلية ، ولا من يعمل به من الوطنيين .

وتدخل الكنيسة الإثيوبية فى مجموعة الكنائس الوطنية . وهى كذلك منذ البداية . فالمسيحية انتقلت من القصر إلى الشعب ، سواءٌ أكان ذلك فى القرن المسيحى الأول عن طريق خصى كنداكة ، كما تقول المصادر الإثيوبية ، أو عن طريق القصر الذى تقبّل فرومنتوس وتعهده فى القرن الرابع . وارتبطت بالكنيسة القبطية كأم تعهدتها بالتعليم والقيادة والرعاية عبر العصور . ورغم أنها كنيسة وطنية ، مرتبطة بتراثها الوطنى ، وجزء حيوى ومؤثر فى تاريخ الوطن ، فقد قبلت رئاسة الكنيسة القبطية ، واعتبرت هذه الرئاسة ، ممثلة فى مطرانها القبطى ، جزءاً من خصوصيتها ، وصار تقليدا ارتضته ومعها الشعب بمحض اختيارهما، رغم التطورات التى طرأت على مركز المطرانية ودورها القيادى والسياسى فى شئون البلاد ، خاصة منذ القرن الثانى عشر الميلادى حين آلت إليها سلطة تتويج الملوك . وهذا الوضع لم تفرضه الكنيسة القبطية ، بل أوجدته الظروف المحلية والتاريخية . فالكنيسة انطلقت نحو إثوبيا بالمفهوم الكرازى وبروح الخدمة ، وليس طمعا فى رئاسة أو سلطة دينية فوقية ، تتطور مع الأيام إلى مزيج من السلطة الدينية والزمنية . وحيث أن إثيوبيا هى التى قبلته وارتضته ، فالمنطق يفرض أن

(١) وللصليب مكانته فى الأعياد الإثيوبية . ففى ليلة عيد الصليب (٢٦ سبتمبر) يقيم أفراد الشعب ، أمام بيوتهم ، شعلة نار من خشب الكافور ، يطوفون حولها بالإنشاد ، رافعين الصليب . كما تقام كومة ضخمة من الخشب أمام الكنائس ، تسمى دمرا Damara ، يصلى حولها القسوس. وفى فجر يوم ٢٧ سبتمبر (١٧ مسكرم) يشعلون فيها النار احتفالا بالصليب . ويدورالشعب حولها ، يأخذون من رمادها ويرسمون به علامة الصليب على جباههم .

يكون استمراره رهنا بهذا القبول والرضى ، بحيث لايصبح فى يوم من الأيام موضع جدال أو سجال ، وبحيث تظل روح الخدمة ، والاهتمام بالحصاد واحتياجاته ومشاكله ، هما الشغل الشاغل لكلتا الكنيستين وكلا الشعبين .

وكم تحز فى النفس تلك الآراء والأحكام ، التى يطلقها البعض من آن لآخر ، كلما تحرجت العلاقات بين الكنيستين ، المصرية والإثيوبية ، فيتوعدون إثيوبيا بالويل ، لو فكر قادتها فى الخروج عن طوع الكنيسة المصرية ، ويربطون بين ما قد يحل بها من أزمات وصعاب ، وبين رواج مثل هذه التوجهات .

وأقربها ما ألمّ بإثيوبيا فى العقود الثلاثة الأخيرة ، وما حل بامبراطورها هايل سلاسى الأول ، وبطريركها الأنبا ثاؤفيلس ، فى السبعينات. إذ كثر الغمز واللمز والتأويل – ومازال – بأن هذا هو مصير من يتجاسر على تفكيك العلاقة التاريخية بين الكنيستين . وهو ما يجافى المنطق ومجريات الأحداث . فالمجاعات والقلاقل السياسية والاجتماعية قد أصابت الشعب نفسه فى الصميم ، رغم أن غالبيته العظمى لم يفتر حماسها وتعلقها بكنيسة الإسكندرية ! كما أن هذه المجاعات والقلاقل قد أصابت شعوبا إفريقية كثيرة ، لاصلة لها بقضية العلاقات بين الكنيستين .

لقد آن الأوان أن تعتبرهذه التصورات نوعا من الفريسية أو النرجسية ، واستسلاما لروح عدوانية تلبس قناع الدين ، وتهوى الإساءة إلى من يخرج عن خطها ، إذ تختلق منه خصما ، وتتمنى له من السوء ما تود لو نفذته بنفسها ، وهى « شماتة » لا تتفق وروح المسيح . ونوع من العنجهية الروحية ، تأخذ مكان الرب الديان ، وتطلق الأحكام على عواهنها . ومن أنت يامن يدين غيرك (يع ٤ :١٢) ؟

وليس هذا دفاعا عن طرف ما ، أو تأييداً أو تعاطفاً مع تحركات معينة . إنما هو من أجل الحفاظ على صورة وأمثولة الكنيسة المصرية ، كنيسة الشهداء والشهادة ، وعلى مفهوم أمومتها الروحية ،وحرصا على كرامة الكرازة المرقسية ، التى ترتفع فوق أمثال هذه الترهات ، أو النزعات الشعوبية .

ومنذ البدء قد نأت المسيحية عن التورط فى أمور السياسة والحكم . واكتفت بأن « *تُقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات .. لأجل الملوك وجميع الذين هم فى منصب* » (١تى ٢ : ١) . والدعوة للخضوع « *لكل ترتيب بشرى من أجل الرب . إن كان للملك... أو للولاة ..* » (١بط ٢ : ١٣ ، ١٤) . ولم يكن هذا عن تأفف ، أو عن انتقاص من شأن هذه الأنشطة الإنسانية الهامة والحيوية . فشئون الناس الزمنية والحياتية هى أيضا من اختصاص الكنيسة ، يدل على ذلك أن واحدا من أسرارها السبعة يختص بالمرضى . وفى القداس أواشى وصلوات من أجل أمور الناس الحياتية من زرع ومطر ومياه وغيرها. والكنيسة مدعوة دائما إلى ترجمة المحتوى الاجتماعى للإنجيل فى نور الحب الإلهى نحو الإنسان ، والذى يتجلى فى حياة «إبن الإنسان» الذى كان يجول يصنع خيرا ، وتناول هذا الخير احتياجات الإنسان فى مختلف صورها . كما يتجلى فى أعمال الرسل ، وفى حياة الآباء . فالقديس باسيليوس ، مثلا ، أسس مركزا للخدمة الاجتماعية ، سماه الفقراء «المركز الباسيلى» . والقديس يوحنا ذهبى الفم وضع خطة للقضاء على الفقر والبؤس فى أنحاء إيبارشيته. وعلى المؤمنين أنفسهم أن يعيدوا اكتشاف معنى العالم فى نور الإنجيل ، الذى كان وراء التقدم العلمى فى الغرب . وأن يوظفوا فيه ذكاءهم ويكتشفوا أسراره ، بل وأسرار الكون كله الذى خلق الله فيه كل شئ بغنى من أجل تمتع الإنسان (١تى ٦ :١٧) . والرب حين أشار إلى زنابق الحقل وجمال ما تلبس ، وإلى طيور السماء وكفاية ما تأكل ، إنما أراد

أن ينبه إلى إبداعات الجمال ووفرة الخير والذخائر فى عالمنا ،وأن يحث الإنسان على التعرف عليها والنهل منها ، مع تأكيده على البعد الروحى فى الاقتراب من هذه الثروة الهائلة ، وأسلوب الاستفادة منها . واليوم أكثر من أى وقت مضى هناك حاجة ماسة إلى أن «يروحن» الإنسان الطبيعة ، ويحترمها ، ويعمل على حمايتها والحفاظ عليها . وهو ما يتطلب أن تقوم وحدة وانسجام بين المعرفة الأفقية والمعرفة الرأسية - الروحية - للعالم .

فالكنيسة إنما نأت عن عالم السياسة حتى لاتنحصر ، أو تُختصر اهتماماتها وتضيق ، وحتى لا تكون فريقا أو حزبا فى ساحات السياسة والحكم ، وهى التى تريد أن تكون أما للجميع ، ومرجعا ، وملاذا ، ومركزا لرعاية الروح والنفس والعقل ، التى تسيطر فعلا على الإنسان جسدا ونشاطا ، وانتاجا ، وممارسات من كل لون . وقبل قسطنطين كانت الكنيسة تركّز على التبشير والتعليم والرعاية ، دون إهمال لاحتياجات القديسين ،وتوسعت فى ذلك أفقيا ورأسيا ،وتحملت فى سبيل ذلك الاضطهاد والتشرد بصبر ورضى . وظلت دماء الشهداء تروى الكنيسة وتنبت لها أبناءً غاية فى القوة والعزم . وبعد قسطنطين تسربت شئون الحكم والسياسة إلى الكنيسة ، فى هدوء وتريث ، حتى جاء اليوم حين انشغلت بها الكنيسة وغاصت فى دواماتها . ثم جاء يوم غابت شمسه حين أخذت الكنيسة تضطهد بعضها بعضا ، والأسوأ من ذلك تضطهد غير المسيحيين على غرار ما تفعله قوى العالم الغاشمة . ولقد تناهى هذا التورط أو كاد بعدما خرجت من نفق العصور الوسطى المظلم ، وتفجّر عصر النهضة والتنوير ، وانصرفت إلى رسالتها الروحية والإنسانية ، وقد وحدت بين الإلهى والإنسانى فى يسوع المسيح ، وصارت هذه الوحدة مجال عمل الروح القدس فى حرية الإنسان المبدعة ، ومنطلقاته نحو خدمة المجتمعات وتنميتها .

أسقفية شئون إفريقيا

تأسست هذه الأسقفية فى ١٣ يونيو١٩٧٦ ، وهو اليوم الذى قام قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث برسامة أول أسقف لها باسم الأنبا أنطونيوس مرقس ، ومقرها نيروبى بكينيا [١] ، التى هى أيضا مقر مجلس عموم كنائس إفريقيا .

وهى إيبارشية كرازية نشطة ، تعمل وسط أتباع الديانات الإفريقية ، وقد أنشأت عدة كنائس وطنية أرثوذكسية ، فى أقطار مثل كينيا وزامبيا وزائير . وبدأت ، فى الفترة الأخيرة ، نشاطا واسعا فى جنوب إفريقيا ، وصار لها مركز رئيسى فى جوهانسبرج افتتحه قداسة البابا أوائل عام ١٩٩٤ . ولقد سبق لقداسته أن زار إفريقيا ، عام ١٩٧٧ ، وبالذات زائير وقوبل بحماس وترحيب بالغين ، نبعا من تعلّقٍ إفريقى تلقائى بكنيسة مصر الأرثوذكسية ، باعتبارها الكنيسة الإفريقية الوطنية الأولى ، العريقة ذات المنشأ الرسولى .

ونيافة الأنبا أنطونيوس مرقس كان فى الأصل طبيبا ، مارس الطب البشرى فى إثيوبيا تسع سنوات من عام ١٩٦٦ . وتميزت سنوات عمله هناك بخدمة كنسية وإنجيلية واسعة ، وأمكنه إتقان اللغة الأمهرية . وقصة هذه السنوات،

(١) جاء فى «الأرجوزات» الشعرية ، التى كتبها الربان شهاب الدين أحمد بن ماجد (الربان اليمنى لسفينة فاسكودى جاما) ، وصفا لشعوب الساحل الإفريقى الشرقى . ويشير إلى «ممباسة» ، ميناء كينيا على المحيط الهندى ، التى كانت بمثابة مركز إيبارشية الهند الكبرى ، والتى كانت تتكون من ساحل الهند الشرقى وإيران واليمن والجزر . وكان أسقفها العام القبطى الأنبا اسطفانوس (القرن الرابع الميلادى) ، الذى رسم الأنبا موسى اليمنى ، القديس الذى عرف بأسقف الخيام . والتقى الربان بشعبها وقسوسها ، ووصف أعيادها القبطية ، كعيد الصليب ، وتذكار الملاك ميخائيل . وذلك فى القرن الخامس عشر!

ورسامته ، ونشاطه الواسع فى قارتنا العزيزة ،هى موضوع كتاب قيّم ، نشره حديثا بعنوان « أعبر.. إلينا وأعنا » .

وهذه الإنطلاقة المباركة للكرازة المرقسية ، فى قارة مهد الإنسان ، تفتح الباب أمام الكنيسة القبطية لتستعيد رسالتها الكرازية ، التى حملتها إلى أطراف القارة الأوروبية فى القرون المسيحية الأولى ، وتضع عليها ،فى الوقت ذاته ، مسئولية ضخمة تجاه شعوب قارتها العريقة . ولابد لها من وقفة تأمل عميقة ودراسة ممحصة لمنهج الخدمة الذى تسير عليه فى ربوعها . فليس من المعقول أن يسير النهج على نمط ما يجرى فى كنائس المهجر ، حيث التركيز على نقل كل ما هو قبطى إلى تلك الأصقاع ، مع المغالاة فى كل ما هو طقسى وتقليدى . وإن كان هذا يفى باحتياجات المهاجرين الأقباط الروحية والثقافية .

فالحكمة تدعو إلى التوجه إلى إفريقيا بفلسفة مختلفة . وإنه لمن المفيد ، فى هذا الصدد ، الرجوع إلى سجلات العمل التبشيرى الغربى فى إفريقيا ، ودراسة ما يكتب عنه فى الغرب الآن ، تحليلا وتقييما ونقدا وندما ، وللتعرف على إيجابياته وسلبياته، ولتجنّب مزالقه وأخطائه ، وعلى رأسها محاولة فرض ثقافته ومفاهيمه . وهو ما جاء ذكره فى فصول هذا الكتاب .

وخير مدخل وركيزة للعمل الكرازى فى إفريقيا اليوم هو **الحوار**، الحوار على مختلف الأصعدة : **حوار** ثقافى حضارى ، يقوم على الاحترام المتبادل، وقد تجرّد من نزعة الغزوات الثقافية . والأقباط الذين يعتزون بتراثهم الفرعونى القديم، فلسفةً وحكمة ودينا وفناً ومعمارا وغيرها، خير من يقدرون تعلق الشعوب بتراثها.

وحوار عقيدى إيمانى يتسم بالتفهم الكامل لما يعتبرونه من مقدساتهم . واستعداد لتبادل الخبرة والتعليم والتعلّم . بحيث يترك «المنبر الفوقى» وشعار

«نحن نعرف أحسن منكم» مكانهما ، ليحتله مبدأ الإسراع نحو الاستماع (يع ١ : ١٩) . والمحبة التى لاتقبّح (١كو١٣) ، ووداعة الأخذ والعطاء .

وحوار إنسانى عرقى يتصف بعمى ألوان بيّن ، واحترام للعادات وأنماط الحياة ، وقبول بحياة الكوخ ، ولبس الرداء المهترئ ، كما لبس السيد المسيح جسد الإنسان الترابى الأصل .

وحوار إنمائى خِدمى يفتح الباب أمامهم ليكتشفوا احتياجاتهم ومشاكلهم، ويتلمّسوا سبل سد الاحتياجات وحل المشاكل ، بحيث تكون التنمية بهم ومنهم ولهم . فقد ولّى زمن توزيع الصدقات ، وفرض الرؤية الوافدة أو الغريبة ، وشعار « نحن نعرف ما هو لصالحكم أو نافع لكم » .

وحين يتشكل المجتمع الأرثوذكسى الجديد يكون التركيز أيضا على إعداد القيادات المحلية ،الناضجة المتفتحة المستنيرة ، التى تجسد التزاوج الفريد بين الثقافات ، لتأخذ بزمام المسيرة بإلهام الروح القدس ، وبوعى روحى يقضى على النفور بين القديم والجديد .

وإنها لسانحة مباركة أن تضع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية يدها فى يد شقيقتها الإثيوبية ، ربيبتها السابقة ، ليعملا معا فى هذا الحقل الإفريقى المترامى الأطراف . فمن شأن هذا أن يعزز علاقاتهما ، ويجمع خبراتهما وجهودهما نحو هدف أثير عند كليهما ، وهو توطيد الحياة الأرثوذكسية بنسكيتها وروحانيتها، وليتورچيتها لتملأ أرجاء القارة بتغريدها السماوى . ومن مؤشرات التوفيق الإلهى أن هناك التقاءاً مباركا ، فى الأهداف والتطلعات الكرازية ، بين قيادات الكنيستين . فقداسة البابا معروف بعلمه الواسع ، وبحبه لإفريقيا ، واهتمامه بالخدمة فيها . وغبطة الأنبا پاولوس ، بطريرك إثيوبيا ، واسع الثقافة ، ومتقد الحماس والنشاط

لخدمة بلاده الشاسعة ، وعموم قارته العظيمة .



قداسة البابا شنوده الثالث — الأنبا باولوس بطريرك أثيوبيا الحالى

وقد دخلت الساحة كنيسة جديدة / قديمة ، هى كنيسة إريتريا . فبعد حصول البلاد على استقلالها الكامل عن إثيوبيا فى مايو ١٩٩٣ ، رأى شعبها المسيحى العريق أن تحظى كنيسته باستقلالها أيضا ،فيكون لها مجمعها المقدس ، وبطريركها . وقد قام فعلا قداسة البابا برسامة خمسة أساقفة لها فى يونيو ١٩٩٤ ، على أن تتم رسامة بطريركها عندما يستقر عليه اختيار الشعب الإريترى. والكنيسة الإريترية تعتز بأن المسيحية فى إثيوبيا إبتدأت منها ، باعتبارها الجارة الشمالية لمملكة أكسوم التى خرج منها خصى كنداكة ،وإلى بلاطها وصل فرومينتوس . وكانت فى الماضى امتدادا طبيعيا لها ، جغرافيا وبشريا .

المراجع

١- د. أنطون يعقوب ميخائيل ، الكنيسة والتفرقة العنصرية فى إفريقيا، (رسالة دكتوراه غير منشورة) ، ١٩٨١ .

٢- أوليڤيه كلمنت ، المسيحى الأرثوذكسى وعالم اليوم (مترجم) ، القاهرة ، ١٩٩٣.

٣- چون بونخهلر ، أرض الوجوه السمراء (مترجم) ، القاهرة ، ١٩٦٣.

٤- د. حسن أحمد محمد ، الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا ، القاهرة ، ١٩٨٦.

٥- د. زاهر رياض ، كنيسة الأسكندرية فى إفريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٢.

٦- د. زاهر رياض ، مصر وإفريقيا ، القاهرة ١٩٧٦ .

٧- سعد زغلول نصار ، دفاع عن إفريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٦.

٨- عاطف محمد عمر ، أضواء على الفنون الإفريقية، القاهرة ، ١٩٨٧ .

٩- د. ميخائيل مكس إسكندر ، تاريخ كنيسة پنتابوليس ، القاهرة .

10- Barrett , David B., Schism and Renewal in Africa , 1982 .

11- Bleakley , Robert , African Masks , London , 1978 .

12- Campell , James J., The Language of Religion , New York, 1971.

13- Campell Joseph , The Power of Myth, New York, 1988.

14- Cleage , Albert B. Jr. The Black Messiah , N.J. 1969 .

15- Demerath , N.J., Religion in Social Context , New York , 1969.

16- Evans - Prichhard , E.E , Theories of Primitive Religion , 1969 .

17- Fernandez, James &W. Bwitti , An Ethnography of the Religious Imagination in Africa , Princeton , 1982 .

18- Lanternari , Vittorio , Religions of the Opressed , New York , 1963 .

19- Martin , David , A General Theory of Secularization , New Yok , 1978 .

20- Mbiti , John , Concepts of God in Africa , Switzerland , 1970 .

21- Mbiti , John , African Religions and Philosophy , London, 1969 .

22- Meek , C.K. , The Northern Tribes of Nigeria , London , 1925 .

23- Parrinder , Geoffrey , African Methology , London ,1969 .

24- Parrinder , G. , African Traditional Religion , London , 1974 .

25- Ranger , T.O, & Kisembo , I, The Historical Study of African Religions , London , 1973 .

26- Ray , Benjamin , African Religions , Symbols , and Community, N.J. 1976 .

27- Suandkler , Bengt , The Bantu Prophets .

28- Tshibangu , Th. (Bishop) , Religion and Social Change in Africa, (unpublished thesis).

29- Turner , Harold , New Tribal Religious Movements , 1974.

30- Turner , harold , African Independent Church .

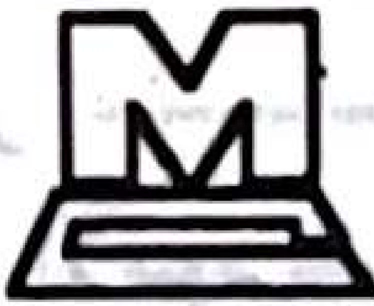
31- Ware , Timothy , The Orthodox Church , G. Britain , 1963.

32- Weber , Max , The Sociology of Religion , 1963 .

33- Zuemer , Samuel, M. , The Origin of Religion , New York , 1945 .

محتويات الكتاب

صفحة



الجمع والإخراج الفنى
إم . سى للتجهيزات الفنية
ت : ٢٤٣٨٢٢٥

